إلهام منصور

بالإذن من سِفْر التكوين

رواية

WITH DUE RESPECT

FOR THE BOOK OF GENESIS

By

Ilham Mansour

First Published in November 2005

Copyright # Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com

. www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-225-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

رسم وتصميم الغلاف: حسن إدلبي

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2005

توطئة

بين البداية والنهاية تكتمل الدائرة واكتمالها مفتوح على احتمالات لامتناهية، احتمالات لا تغير حركة اكتمالها. لذا اخترت من بين الاحتمالات، الأبسط والأقرب إلى العادي كي لا تغيّب الأحداث حركة الدائرة وكي لا يطغى الفرعي على الأساسي . باكتمال الدائرة تتساوى الأحداث ويتماهى الخارق العظيم مع العادي البسيط وسيظل الظل المبتسم مبتسماً مهما تغيرت أحداث الرواية، تعملقت أو تقزّمت، حلّقت كالنسور أو دبّت كالنمل . تلك الابتسامة هي الثابت الوحيد، ه ي الحقيقة، الحقيقة التي تختزن كل سخرية القدر.

الفصل الأول

— 1 —

حين اكتملت الدائرة وأُقفلت حلقة من حلقات العود الدائري، ولدا معاً، خرجا من رحم واحدة، «إنسان»، أحدهما شيخ لا ندري ما عمره والثاني طفلة صغيرة .
كان الشيخ يحمل الطفلة بين ذراعيه، ينظر إليها ويبتسم.
أما هي، فحين فتحت عينيها ورأته، بدأت بالصراخ .
أخذوها من بين يديه، نظفوا جسدها من آثار الدم العالقة عليه، ألبسوها ثياباً أو بالأحرى لفوها بنوع من القماش الأبيض ووضعوها في سريرها الصغير . كانت كل هذا الوقت تصرخ وهو كان ينظر إليها من بعيد ويبتسم، تلك الابتسامة التي لن تفارق وجهه أبداً.

الرحم التي خرجا منها لم تكن رحم أمهما، بل رحمها هي التي انفجرت كالبيغ بانغ الذي به انوجد الكوزموس وأخذ بالتمدد قبل أن يعود إلى الانكماش وتتراكم الحلقات العودية.

بعد أن ولدت أصبح اسمها حياة، أما هو فظل من دون اسم لأن باستطاعته أن يحمل كل الأسماء، ميزته الوحيدة تلك الابتسامة . لذلك أصبحت حياة، فيما بعد تسميه المبتسم وهو لا يبالي لأن طبيعته تخوله الاستجابة لأي نداء.

وضعوها في السرير فانبطح المبتسم تحته، لا أحد يراه وهو لا يأتي بأي حراك أو صوت . كان مسالماً، همه الوحيد أن لا يفارق حياة لحظة واحدة، أن يرافقها كظلها الصامت المطواع . فرض عليها وهي لا حول ولا طول. في البداية لم تكن تراه جيداً ولا تدري بما يفعل، لكنها، مع مرور الوقت تغيرت وأصبحت تتعامل معه بسلوكات مختلفة.

حين أطعموها نامت، فتركوها، وخلت الغرفة من أي وجود سوى وجود هما. انسحب من تحت السرير وأخذ يضغط بيديه الكبيرتين على بطنها وعنقها، فانفجرت بالبكاء وتقيأت. اطمأن وعاد إلى مكانه حيث لا يراه أحد، ودخل من أخذ يعالج الطفلة الصغيرة ببعض الأعشاب كاليانسون المغلي وغيره إلى أن هدأت وعادت إلى النوم.

— 2 —

تلك كانت البداية بينهما واستمر المبتسم بإيذاء حياة إلى أن رأته. لم تره مباشرة، لكن حين نظرت للمرة الأولى إلى المرآة، لم تر وجهها بل رأته هو، رأت ظلاًّ، طفلة صغيرة. لم تفهم يومها سر المرآة التي تعكس الصور، لكنها قبلت ما رأت وهكذا رأته وألفته وأصبح

هو في الواقع، لا في المرآة، ظل ها الذي أنست إليه وأصبح رفيقها الدائم الذي يغريها بابتسامته الساحرة.

لم يصبح رفيقها الدائم لأنها اختارت ذلك، بل أصبح رفيقها من دون أن تدري كيف ولماذا . كل ما تعرفه هو أنه أصبح لها رفيق لا يفارقها لحظة واحدة . لكن ما كان يربكها هو أنها لم تستطع يوماً لمس هذا الرفيق، لم تستطع يوماً رؤيته وجهاً لوجه، لم تعرف يوماً طوله أو عرضه أو .... لهذا السبب كانت تشكله على هواها ووفق تطورها . كانت تنطلق دائماً من تلك الابتسامة الساحرة التي أمست اليقين الوحيد لديها عن ذلك الظل. من تلك الابتسامة كانت تخلق شخصاً يناسبها ويستجيب لميولها ونزواتها.

هل كان حقاً يستجيب لميولها ونزواتها؟ سنرى . حين شكلته للمرة الأولى أعطته صورة جدها لأنه كان الشخص الأقرب إليها والذي يلبي كل طلباتها، ولأن الابتسامة التي ترتسم على ثغره كلما دنا منها تشبه ابتسامته. لكن ما إن انتهت من تكوين الصورة حتى

استقلت تلك الصورة عنها وأخذت تتحرك من ذاتها كأنها أفلتت من يد صانعها وأصبح لها منطقها الخاص وتحولاتها الخاصة . لذلك أدركت حياة أن عليها التصرف مع رفيقها وظلها كأنه مستقل عنها بالرغم من ملازمته لها. فلنتابع المسيرة معاً.

— 3 —

تبدأ الحكاية إذاً من طفلة وظلها الشيخ / الجد كما أرادت حياة أن تسميه . كلنا يعلم علاقة الجد، كل جد، بحفيدته. فلنتابع إذاً هذه العلاقة بين حياة والمبتسم الذي شكلته في البداية على صورة جدها، تلك العلاقة التي جمعت بين كل التناقضات التي لم تفهم حياة لها معنى . لكن ما كان يربكها هو أنها كانت الوحيدة التي ترى هذا الظل. لا أحد سواها يراه ولذلك كان عليها وحدها أن تفهم ما يقول وكيف يتصرف.

كيف كان يتحرك ذلك الظل؟ كان يتحرك وفقاً لآلية التذكر والنسيان عند حياة ؛ حين تتذكره، يحضر مباشرة ليشاركها حياتها . وحين تنساه، يغيب عنها . هل كان يغيب حقاً؟ ويل لمن ليس له ظل لأنه يكون خارج الزمان وحكماً خارج المكان . ويل له لأنه يصبح الإله الذي تتلبسه كل الظلال من دون أن يكون له ظله الخاص. كانت حياة تنسى أحياناً ظلها، لكنه هو لم ينسها لحظة لأنه إن نسيها خرجت من عالمه وأفلتت من قيوده التي لا يعيش ولا تعيش إلا بها.

«إنسان»؛ حياة وظلها، هما وحدة لا تنفصم إلا لضرورات السرد . لكنهما يتحدان وينفصلان من دون أن يفترقا وفقاً للآلية السابقة التي كانت تتحدد بدورها وفقاً لوجود حياة مع الآخرين أو وحدها؛ حين تكون برفقة آخرين لا تعود تنتبه إلى ظلها، كأنها تتماهى مع الآخرين الذين لا يرونه . لكن ما إن تعود إلى ذاتها ووحدتها حتى يجلسا وجهاً لوجه، هي تتأمل ما لا تراه

عيناها وهو يبتسم مبدياً تأهبه لاتخاذ كل الأشكال التي ترغب بها حياة.

— 4 —

حياة، الطفلة ماذا تريد وما هي رغباتها؟ لا تريد سوى اللعب، إنه عالمها الحقيقي، أو إنه عالمها الخاص الذي لا تميزه عن عالمها مع الآخرين، إنه مملكتها وحيز ممارسة حريتها، تلك السوسة التي تبدأ بنخر كياننا منذ الولادة والتي إن قوينا عليها وصلنا إلى السكون والاندماج الكلي مع الغير، وإن قويت علينا، عشنا القلق الوجودي الذي يحوِّلنا إلى سؤال لا ندرك معناه ولا نعرف الإجابة عنه إلى حين نتوحد مع ظلنا في العتمة التي نقذف إليها خارج الزمان والمكان.

كانت حياة، إذاً، تجد نفسها في اللعب . واللعب عند الأطفال هو أن يجعلوا الأشياء تتحول وتتحرك وفقاً

لإرادتهم. هذا التحول والتحرك لا يكونان وهماً، بل حقيقة تعطي للعب كل الجدية وإلا فسد الملح. وإذا فسد الملح فبماذا يملح؟

اللعب إذاً. كيف يلعب الأطفال أو بالأحرى كيف يحيا الأطفال؟ من بين الألعاب التي تستهوي الأطفال في سن معينة هي تلك التي تجعل من الحيوانات الأليفة، كائنات مؤنسنة. فأحياناً كثيرة تتحول أشياء عادية، داخل منطق اللعب، إلى دجاجة أو ديك أو هر أو كلب أو حمار أو نعجة أو ... ويتعامل معها الطفل كأنها حيوانات حقيقية.

أما حياة فلم تكن بحاجة إلى أشياء عادية لتحولها إلى ما تريد من حيوانات أو غيرها، كان الظل / الشيخ جاهزاً لكل هذه التحولات. لكن هل كان يستجيب لكل تهويمات حياة حول سلوك تلك الحيوانات؟ كان يستجيب لوقت قصير إلى رغباتها، لكن يبدو أن السادية هي من مكوناته الأساسية، ولهذا السبب كان يخرج على إرادة حياة ويسلك وفقاً لمنطقه الخاص. كيف؟

— 5 —

تعرفت حياة إلى الدجاجة في كتب الأطفال وفي بيت جدها في الضيعة وعلمت أنها تقاقي وتبيض بيضاً لذيذاً يشكل قسماً من غذائها اليومي . الظل/الشيخ، في لعبة الدجاجة يتحول حقاً إلى دجاجة تقاقي وتشرعُ بإعطاء بيض لذيذ تقليه حياة وتتلذذ بطعمه. لكن سرعان ما تبدأ الدجاجة بالصراخ وتبيض أفعى في يد حياة زارعة الرعب في قلبها . تقذف حياة بالأفعى بعيداً وتخرج صارخة من غرفتها لتلجأ إلى حضن أمها حيث تشعر بالأمان . تضمها الأم إلى صدرها وتسألها إن كانت تشكو من ألم ما وتجيب حياة بلغتها المكسرة : «إنها الأفعى». لا تفهم الأم ما تقول ابنتها لكنها تمسّد بكفها وجهها وتقول لها : «لا تخافي، لا يوجد أفعى في البيت، وإن وجدت فوالدك يقتلها ». خلال هذا الوقت يكون دفء حضن الأم قد فعل مفعوله وأخرج حياة من

الخوف لتعود إلى عالمها الطبيعي، فتطعمها أمها الوجبة المحددة لذلك الوقت وتضعها في سريرها لتنام.

يغيب الظل لفترة تخرج بعدها حياة من نومها وأحلامها التي لا تذكر منها شيئاً، وتراه أمامها يظللها بابتسامته الساحرة فتنسى ما قام به سابقاً وتأمره أن يكون ديكاً وتنتهي اللعبة كما سابقتها، يخرج الظل على إرادة حياة ويزرع الرعب في قلبها إذ يبدأ بنقر عينيها أو يتحول إلى ثور ينطحها بقرنيه فيعلو صراخها وتلجأ من جديد إلى حضن أمها التي لم تفهم يوماً سبب ذعرها وصراخها. كانت ترد السبب دائماً إلى ألم ما وتعالج ابنتها ببعض المسكّنات الخاصة بالأطفال.

— 6 —

من بين اللُّعب التي كانت تستهوي حياة وتؤذيها في آن، ثمة لعبتان؛ لعبة الكلب ولعبة الأم، فبأيهما نبدأ؟

كانت حياة تحب الكلاب الصغيرة جداً ولطالما طلبت من أمها أن تأتيها بكلب يكون رفيقها، لكن الأم لم تلبِّ طلبها لما يحتاج إليه الكلب من اعتناء ولضرورة إخراجه من البيت صباحاً ومساءً لقضاء حاجته . باختصار كانت تقول لابنتها: «إننا نسكن شقة في بناية، واقتناء كلب في شقة هو أمر غير عملي إطلاقاً، حين ننتقل إلى بيت لنا مع حديقة، أعدك بأن أ شتري لك كلباً تختارينه أنت ». كانت حياة ترضخ لهذا الشرح غير المقنع بالنسبة لها وتعوض عن الحقيقة باللعب الذي يتحول بدوره إلى حقيقة تأخذ وقتاً طويلاً من يوم حياة.

تنظر إليه فتسكرها ابتسامته، يصيبها نوع من الخدر وتظن أنها ملكت الكون، تحوله كما تشاء، وهكذا يصبح الظل/الجد كلباً صغيراً مشابهاً تماماً للصورة عنه في مخيلة حياة ويمثل أمامها أبيض الوبر، أسود العينين، منتصب الأذنين، منتهياً بذيل لا يتوقف عن الهز. تأخذه حياة من مكانه على الأرض بالقرب منها، تضعه على ركبتيها وتبدأ بتمسيد وبره الناعم وبالكلام

معه وبإطعامه أشهى المأكولات. بينما هي تقوم بعملها بكل اندفاع، تبدأ عملية التحول فيأخذ جسم الكلب بالتضخم وينقلب وبره الناعم إلى ريش قاسٍ ثم إلى نوع من الشوك الأسود. يكبر فمه وتستطيل أذناه ويعلو ذيله إلى فوق وتتمدد حوافره فيرتفع عن الأرض ويصبح وجهه القبيح قبالة وجه حياة   المرتعب وهو ينبح فاتحاً فاه كأنه يريد التهامها. تضع حياة يديها الصغيرتين على عينيها وتصرخ خارجة من الغرفة إلى ملجئها، إلى حضن أمها وهي تقول : «كاد يبتلعني، إنه شرير ... لا أحب الكلاب الكبيرة. أريد كلباً لا يكبر، لا أحب الكلاب الكبيرة، أريده صغيراً ووبره ناعم   اً لا يؤذي   ....» تحضنها أمها وتهدئها واعدة أنها ستشتري لها كلباً صغيراً حين تتوفر الظروف الموضوعية لذلك.

— 7 —

تنسى حياة وتعود من جديد إلى اللعب . كيف لا وهو عالمها الفعلي؟ تمسك وجه ظلها بيديها وتدنيه من وجهها، تقبله فتسمع صدى قبلاتها يتناثر في الفضاء ومع ذلك تظل ممسكة بوجه ظلها مسحورة كعادتها بابتسامته التي تملأ وجهه . يحن قلبها وتصبح أمه وهو يتحول إلى طفل صغير بين ذراعيها، طفل من دون أسنان وعاجز عن تناول الطعام . تخرج حياة ثدياً من ثدييها، فينكب عليه وتبدأ عملية الرضاعة وهي تشعر بنوع من اللذة . تسترخي وتستسلم لتلك اللذة . لكن سرعان ما ينبت للطفل أسنان ويلتحي وجهه ويتجعد وتتحول الرضاعة إلى عض ثم إلى نهش يدمي ثدي حياة. تدفعه عنها فيبتعد وهو يحمل بين أسنانه حلمة ثديها الدامي. تتجمد مكانها وتبدأ بالصراخ من الألم . تركض أمها إليها وتحاول التخفيف عنها لكنها تستمر بالبكاء وتنتبه أمها أن حرارتها مرتفعة ووجهها محتقن . تحملها بين ذراعيها وهي تهدهد جسمها الصغير وتتوجه إلى الهاتف لتطلب الطبيب الذي أتى مسرعاً .

بعد معاينة حياة توجه إلى الأم قائلاً : «عليك الانتباه إنها مصابة بنزلة صدرية، يجب مراقبتها جيداً »، وتابع : «سأكتب لك أسماء الأدوية التي عليك إحضارها بسرعة للبدء بالعلاج». انصرف الطبيب ولازمت ابنتها طوال فترة المرض مما جعل حياة تنسى وجود ظلها الشيخ الذي لا يحضر أمامها إ لاّ حين تكون وحدها كما رأينا سابقاً. هو لا يغيب لكنه يصبح فقط شفافاً بحيث لا يعود يُرى.

— 8 —

نسيت حياة تلك اللعبة لفترة، لكنها لم تنس اللعب لأنه نسيج وجودها، فقررت أن تستعيد لعبة الدجاجة آمرةً إياها ألاّ تخرج عن الدور الذي تطلبه منها وهو أن تقاقي وتبيض فقط. استجاب الظل لأوامر حياة وها هي الدجاجة البيضاء الصغيرة تملأ غرفة حياة بالقواق

وبالريش الأبيض الناعم المتط اير في الفضاء . كانت الدجاجة تتهادى وتدور حول حياة التي اطمأنت إلى حسن أداء الظل لدوره .اطمأنت وتمددت على السرير لتستريح. وسرعان ما أخذها النعاس بينما كانت الدجاجة لا تزال تقوم بدورها . لكن حين أرادت أن تبيض، لم تجد مكاناً مناسباً لتضع فيه البيض سوى فم حياة ا لذي، حين غفت، انفتح وأخذت تتنفس منه . وهكذا باضت الدجاجة بيضتين في فم حياة تاركة دورها لتصبح الظل من جديد، الظل الذي تمدد تحت سرير حياة ينتظر ردة فعلها حين تستيقظ.

لم تستمر استراحة حياة طويلاً واستفاقت منزعجة، لا تدري ما بها، لكن حين أرادت أن تبلع ريقها شعرت بالألم. وكالعادة بدأت بالصراخ وبمناداة أمها التي حين رأت الانتفاخ تحت أذنيها، لطمت وجهها وهي تقول: «إنه البو كعيب، عليّ أن أستدعي الطبيب» حين عاين الطبيب حياة أكد للأم صحة حدسها . هكذا

«كعبت» حياة قاطعة موسماً جديداً من مواسم أمراض الطفولة والتي تؤدي إلى الموت إن لم تعالج كما يجب.

— 9 —

بعد أن شفيت من «البو كعيب»، ابتعدت حياة عن الحيوانات المؤذية وحاولت أن تلاعب ظلها من جديد آمرة إياه أن يتحول إلى هرٍ وديع . امتثل الظل لطلبها وها هو هر سيامي جميل ينبطح بغنج عند قدمي حياة التي جلست على الأرض بالقرب منه وأخذت تدغدغ بطن يديها بوبره الناعم . استسلم الهر للمداعبة وقتاً طويلاً وهو لا يخرج على إرادة حياة. لكن بما أن الأذى من طبيعته مهما رقت مشاعره ومهما حاول أن يكون عند حسن ظن حياة، إذاً بما أن الأذى من طبيعته، كان عليه ألاّ يجعل هذا التحول إلى هر يمر بسلام . استمر الهر كما هو، لكن التغير الوحيد ظهر على مخالبه التي

أخذت تطول وتطول وتتروس، حتى إذا ما بلغت حداً معيناً أخذ الهر يجرح بطريقة ناعمة جلد حياة التي لم تشعر بداية بالألم بل شعرت بنوع من الدغدغة التي استسلمت لها تاركة الهر يعبث بكل جسدها الذي ما لبث أن شعر بالألم، فانتفضت وصرخت هاربة من غرفتها إلى حيث تشعر بالأمان . هي شعرت بالأمان لكن أمها التي رأت جلدها مكسواً بالحبيبات الحمراء، لم تشعر بالأمان بل ذعرت ولم تطمئن إلا حين أبلغها الطبيب أن الطفلة مصابة بالحصبة وهو أمر عادي عند الأولاد في مثل سن حياة . بعد استشارة الطبيب اتصلت الأم بأمها التي نصحتها بأن تغلي العدس وتسقي حياة ماءه كي يساعدها على إخراج الحرارة من البطن وتشفى بسرعة.

— 10 —

هذه الحصبة التي فرضت على حياة ملازمة السرير لعدة أيام مع تقيؤ مستمر وانزعاج من عدم السماح لها بحك جلدها الذي كان يرعاها، قررت أن تنتقم من كل الحيوانات وأن تلغيها من حياتها وكل ألعابها. لكن ما إن خرجت من حالة المرض حتى عاد المبتسم. نقول عاد لأن أم حياة لم تفارقها لحظة واحدة خلال مرحلة مرضها ونحن نعلم أن الوجود الملاحظ للظل يتم وفقاً لآلية التذكر والنسيان وهذه بدورها مرتبطة بوجود حياة مع آخرين أم وجودها وحدها . إذاً ما إن خرجت حياة من حالة المرض وباتت أمها تتركها وحيدة في غرفتها، حتى عاد المبتسم الذي يشبه الجد، فما كان من حياة إلاّ أن أنبته وضربته. لكن حالة الجفاء بينهما لم تطل وصفحت عنه حياة لأنها لا تستطيع أن تقاوم سحر ابتسامته. لكنها قالت له:

ـــ نتصالح وسأحبك من جديد إن بقيت كما أنت، لا حيوانات بعد الآن، سألعب معك كما أنت، وإن تغيرت فسأضربك.

نظر إليها وهو يبتسم ففهمت منه أنه لا يمانع وهو مستعد لتلبية كل رغباتها. أمرته:

ـــ عليك أن تدب على الأرض كي أركب على ظهرك من دون أن تصير حماراً بشعاً.

امتثل لأوامرها، دب على الأرض واقترب منها فركبت على ظهره ودار بها في الغرفة وهي تضحك وتغني. حين تعبت نزلت عن ظهره، مسّدت وجهه، قبلته وجلست على حافة السرير تفكر بما ستطلب منه، فما كان منه إ لاّ أن قفز في العالي وصعد إلى ظهر الخزانة، جلس على الحافة ورجلاه متدلي تان. نظرت إليه حياة وأعجبت بما فعل وأرادت أن تقوم بما قام به . فكرت قليلاً ثم جرت طاولة صغيرة إلى قرب الخزانة، وضعت فوقها كرسياً وتسلقت عليهما، وصلت إلى ظهر الخزانة وجلست بالقرب من ظلها.

ـــ سنقفز، قال، ما رأيك؟

ـــ تقفز أنت أولاً.

ـــ طبعاً.

ما كاد يكمل كلامه حتى قفز من ظهر الخزانة إلى الأرض، فارتطم بها كأنه كيس من قطن والابتسامة لا تفارق وجهه . وقفت حياة على حافة الخزانة وأخذت تتهيأ للقفز وهي تردد: «لكنني خائفة».

ـــ لا تخافي، فأنا أحميك وأتلقاك بين ذراعيّ.

رمت بنفسها، لكنه لم يتلقّها فارتطمت بالأرض وأخذ الدم يسيل من جبهتها وهي تصرخ: «لماذا هربت، أين أنت»؟ لأنه فعلاً اختفى حين ظهرت أمها راكضة لترى ماذا يحدث.

رفعت الأم ابنتها بين ذراعيها، نظفت جرحها واتصلت بالطبيب الذي نصحها بنقل حياة إلى المستشفى لإجراء صورة أشعة لرأسها مع طمأنتها بأن الأمر بسيط، لكن الحيطة واجبة. قال:

ـــ ما من خطر، أنا متأكد، لكن بعد أن نطمئن الآن أنصحك بإدخال ابنتك دار حضانة، لأنها بحاجة

إلى اللعب مع أطفال من عمرها تحت رعاية مسؤولة مدربة لهذا الغرض . اقتنعت الأم بكلام الطبيب، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياة حياة.

— 11 —

في مرحلة الحضانة، كان الظل يحضر كل يوم صباحاً إلى غرفة حياة، يندس بالقرب منها في السرير ويقنعها برفض الذهاب إلى الحضانة . كان يعرف أن الفترة التي ستمضيها حياة مع الأطفال هي فترة يغيب فيها عن نظرها ولا يعود له الدور الذي يريد والذي ينسجم مع طبيعته السادية . كانت حياة تستجيب لطلبه وكل يوم صباحاً تبدأ بالبكاء رافضة النهوض من السرير والذهاب إلى الحضانة . لكنها كانت أخيراً ترضخ للأمر الواقع وتوافق أمها التي كانت تصر على ذهاب حياة إلى الحضانة واعدة إياها بمكافآت متنوعة .

تقبل حياة وترافقها أمها إلى دار الحضانة، تمكث معها قليلاً ثم تتركها لرعاية ا لمسؤولة المدربة على رعاية الأطفال.

تترك الأم ابنتها وتبدأ حياة يومها بالصمت والانفراد محاولة استحضار ظلها كي يرشدها إلى سلوك معين، لكن سرعان ما كانت المسؤولة تتدخل وتأخذ حياة من يدها لتدمجها مع الأطفال الآخرين الذين كانوا يتجمعون للقيام باللعب أو الغناء أو الرقص أو... فتنسى حياة ظلها وتنسجم بالجو. لكنه لا يستطيع الغياب طويلاً وها هو يدك العمارة التي بنتها حياة من مكعبات خشبية؛ يمد يده ويعبث بالمكعبات التي أمضت حياة فترة طويلة في تنسيقها كي تصبح بيتاً أو غير ذلك مما ترغب فيه. تلعنه وتحاول ضربه، لكن يدها تذه ب في الهواء من دون أن تلقى أي مقاومة . تحاول من جديد وتصل في كل مرة إلى النتيجة إياها لأنه يتدخل دائماً فترفس المكعبات برجلها وتبدأ بالبكاء، طريقتها الوحيدة

في استرعاء انتباه الآخرين . وسرعان ما تحضر المسؤولة وتجمع الأطفال لتعلمهم الغناء.

— 12 —

هنا يصبح دور الظل صعباً لكنه دائماً يحاول، فيقف قبالة حياة ويطلب منها أ لاّ تشارك في الغناء. لكن حياة التي تحب الغناء، تتجاهله وتتعلم الأنشودة التي ستردّدها في المساء أمام والديها . وما كان يزعجه جداً هو فترة تعلم الرقص؛ في تلك الفترة تنساه حياة كلياً، تنساه ويبدأ جسدها بالتمايل مع إيقاع الموسيقى وأهازيج الأطفال، ترقص ولا تتعب وتظل ترقص إلى أن تسمع رنة الجرس الذي أصبحت تدرك معناها وتعرف أن وقت الرقص قد انتهى وحان أوان الطعام.

— 13 —

يحضر الغداء ويتوزع الأطفال حول طاولة كبيرة. هنا يحاول الظل أن يمارس أهم أدواره ورغباته، فيجلس قبالة حياة ويقنعها بأن الطعام غير لذيذ وإن تجاهلت حياة إيحاءه، يمعن في السادية، فيقترب من صحن حياة ويبصق فيه؛ وهكذا يصل إلى مبتغاه لأن حياة تقرف وتتمنع كلياً عن الأكل، وعبثاً تحاول المسؤولة التي تلجأ إلى أساليب مختلفة لإقناع حياة بضرورة أن تأكل ما يقدم لها.

ـــ ابنتك لا تأكل مع الأطفال. تقول المسؤولة لأم حياة حين تأتي لاصطحاب ابنتها إلى البيت، وتتابع، طعامنا جيد ولدينا طاهية ممتازة، عدا أنه صحي جداً . لكن حياة ترفض الطعام ولا ندري لماذا . هل لديها أفضلية لأطباقٍ معينة؟

تؤنب الأم ابنتها وتذهب مع المسؤولة، بن اءً على إلحاحها، إلى المطبخ للتأكد من صحة ما قالته لها عن نوعية الطعام وجودته. تتفحص المطبخ وتتذوق الطعام وتجده حقاً كما وصفته لها المسؤولة فيزداد تأنيبها

للصغيرة التي تقول أخيراً : «لقد بصق في صحني ».
وهنا تسأل صاحبة الحضانة عن الذي فعل ذلك وتهدد : «أنا أعرف كيف أربيه». ثم تتوجه إلى الآخرين وتسأل بنبرة صارمة». من الفاعل»؟ ويسود الصمت إذ لا أحد يجيب عن سؤالها . تغضب وتجمع الأطفال الذين كانوا بالقرب من حياة حول طاولة الطعام وتسألهم من جديد كلاًّ بدوره فينكرون وتتوجه إلى حياة وترفع برأسها نفياً كلما سألتها عن أحد هم. ويزداد تأنيب الأم لابنتها وينفد صبر المسؤولة قبل أن تقول حياة : «لا أحد بصق في صحني وغداً سأتناول كل الطعام ». وهنا تحول التأنيب إلى درس في الأخلاق إذ إن الكذب أمر سيئ جداً ولا يجوز اللجوء إليه في أي حال.

كل المشكلة هي أن حياة لم تكذب، لقد رأته يفعل، المشكلة تكمن في عدم إمكانية التمييز بين الواقع والخيال عند حياة. الطفل لا يكذب، فقط يكون مسحوراً بابتسامة ظله التي لا تقاوم.

— 14 —

تصطحب الأم ابنتها إلى البيت وتطعمها جيداً قبل أن تدعها تدخل غرفتها للعب . لكن حياة لا تريد دخول غرفتها لتلعب بل لتعاتب، لتعاتب ظ لها على فعلته التي سببت لها كل ما تحملت من تأنيب ودروس في الأخلاق. دخلت غرفتها وحضر أمامها كالعادة، وكالعادة نسيت حياة غضبها مسحورة بتلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه . نسيت عتابها وبدأت باللعب معه وانقلبت الأدوار إذ أصبحت هي المربية في الحضانة وهو تحول إلى طفلة صغيرة اسمها حياة. دور حياة هذا لا يناسب الظل لأن طبيعته تتنافى مع البراءة، براءة الطفولة. وكعادته يخرج على الدور الذي حددته له حياة، فيدب على الأرض ويدعو حياة إلى الركوب على ظهره وهو يعلم جيداً أن حياة لن ترفض طلبه . نسيت

حياة دورها كمربية في دار الحضانة وانصاعت لأوامر ظلها الذي تحول إلى مطية مغرية.

حين جلست على ظهره بشكل مريح، أخذ يدور بها في كل أنحاء الغرفة وهو يقفز قفزات ناعمة في البداية. فرحت حياة بتلك اللعبة وعلت صيحات ضحكاتها وهي تلطمه برجليها كي يسرّع ركضه وقفزاته. يلبي رغبتها التي هي في الوقت ذا ته رغبته، فينبت له قرنان تتمسك بهما حياة ويبدأ بالركض وحياة تضحك بصوت عالٍ . لكن سرعان ما أخذ يقفز عالياً جداً فوقعت حياة عن ظهره وارتطمت بالأرض جارحة شفتها العليا وسال دمها، فارتاح للأمر لظنه أن حياة لن تذهب إلى الحضانة في اليوم التالي وستبقى معه وله .

كالعادة أيضاً ركضت أم حياة إلى ابنتها وأخذت تعالج الجرح في شفتها وقد اختفى الظل وهو يخطط ليوم لن تنساه حياة أبداً.

— 15 —

لكن أمل المبتسم خاب إذ إن الأم بقيت مع ابنتها كل اليوم التالي محاولة إلهاءها عن إيذاء نفسها، فما كان منه إلا أن ابتدع خطة طويلة الأمد لإبعاد حياة عن أمها وجعلها تكرهها. انتظر كل ذلك اليوم إلى حين وضعت حياة في سريرها وهي نائمة . حين غادرت الأم الغرفة اقترب من السرير وأيقظ حياة التي فرحت به وأخذ يحدثها بهدوء، قال:

— إن أمك تريد أن تبعد والدك عنك، تريده لها وحدها، انتبهي، عليك أ لاّ تدعيها تنجح في ما تخطط. وما إرسالك إلى الحضانة إ لاّ لكي تنفرد به وحدها . ألا ترين أنهما ينامان في غرفة واحدة وفي سرير واحد ويأكلان معاً ويتنزهان معاً وأنت وحدك في هذه الغرفة، يتركانك وحدك و.....

يتابع الظل كلامه وحياة تفكر وتقول لنفسها : «كل ما يقوله هو صحيح ». ولأول مرة انتبهت إلى وجود والدها. كان دائماً موجوداً لكنه بعدما سمعت كلام المبتسم أصبح موضوعاً للغيرة والتملك . استمر إنسها الثاني في الكلام وهي تخطط لإبعاد أمها عن أبيها لتحظى به وحدها ولكي يصبح حبيبها هي. اطمأن الظل إلى أن حياة فهمت وقبلت كلامه، فتركها تغفو . في الصباح حين أيقظتها أمها لتتهيأ للذهاب إلى دار الحضانة، لم تبتسم كعادتها، بل عبست، وقبل أن تصبّح أمها، سألت:

ـــ أين بابا، لا أريد أن أذهب معك إلى الحضانة فليرافقني هو، لا أريدك أنت.

ـــ إنه يستعد للذهاب إلى عمله، ما بك اليوم؟

ـــ لا شيء، فقط أريده أن يرافقني هو، لا أنت.

ـــ كما تريدين، سأطلب منه ذلك.

ودع الأب زوجته بقبلة وودعت الأم ابنتها بقبلة وضمة. الأمر لم يرق لحياة التي قالت لوالدها وهما في الطريق إلى دار الحضانة : «غداً، لا تقبلها حين ترافقني». ابتسم الأب لأنه كرجل مثقف، علم ماذا يدور في خاطر حياة نظراً للمرحلة ا لتي تمر بها وفقاً لتعاليم علم النفس، ووعدها أنه لن يقبل أمها في الغد . حين وصلا إلى مدخل دار الحضانة، وقبل أن يتركها لرعاية أهل الدار، طلبت منه أن يرفعها بين ذراعيه نحو وجهه، ولأول مرة طبعت على وجنتيه قبلات شهوانية . كانت تقبله سابقاً لكن هذه المرة شعرت بحر ارة غير عادية.

ــــ أوصلك وعاد إليها، قال لها ظلها حين بدأت تنسجم في جو الأطفال، وتابع : «هو الآن معها، لقد نسيك».

انقلب مزاج حياة عند سماعها كلامه وبدأت بالبكاء من دون سبب ظاهر، وكلما سألتها المربية عن سبب بكائها أجابت أنها تريد العودة إلى البيت . هكذا وبفضل

تدخله وثرثرته، أمضت حياة يومها متوترة، منزعجة، وكلما حاولت اللعب مع الأطفال، ظهر أمامها ليذكرها أن والديها نسياها وهما يتمتعان معاً بالقبلات والمداعبات والـ... حين أتت أمها بعد الظهر لأخذها إلى البيت، كان سؤالها الأول: «أين والدي؟».

ـــ إنه في مركز عمله، أجابتها الأم بكل بساطة.

ـــ هل حقاً ذهب اليوم إلى العمل؟ ألم يبق معك في البيت؟

ـــ ذهب كالعادة، نعم كالعادة، لماذا تسألين؟

ـــ أقسمي بالله أنه ذهب إلى عمله.

ـــ لن أقسم، أنا لا أكذب، ثم لماذا كل هذه الأسئلة؟ هيا لقد هيأت لك كعكاً شهياً في البيت، هيا بنا قبل أن يصل بابا.

نسيت حياة غيرتها ورافقت أمها التي دللتها كالعادة وظلت معها كل الوقت واصطحبتها في نزهة . لكن حين عادا ورأت والدها، تغيرت، ركضت إليه والتصقت به ولم تعد تفارقه لحظة واحدة محاولة إبعاده عن أي كلام مع الأم. ساير الأب ابنته ولبى كل رغباتها مرجئاً إلى أن تنام، أمر الاهتمام بزوجته وتبادل الحديث معها كالعادة. لكن ما أدهش الأهل هو أن حياة رفضت، في المساء أن تنام في سريرها بل أصرت على النوم بينهما، في سريرهما «الكبير جداً الذي يسع لهم جميعاً». لم يرفضا، بل تركاها تفعل ما تريد وحين غفت، نقلها والدها إلى سريرها وعاد إلى زوجته.

أما هو، الظل، الذي أعجبته اللعبة، فقد حضر إلى غرفة حياة وأيقظها من النوم . حين استيقظت ووجدت نفسها وحدها في سريرها أخذت بالبكاء والصراخ لاعتقادها أنهما أبعداها عمداً وحمّلت أمها المسؤولية وقالت لنفسها : «إنها تكرهني، أنا لا أحبها، لن أترك بابا معها». علا صراخها ولم تنتظر مجيء أحد والديها

إليها، بل نزلت من السرير وذهبت إلى غرفتهما وفتحت الباب المغلق. استيقظا وحاولا تهدئتها ظناً منهما أنها تتألم، لكنها تابعت البكاء ورفضت العودة إلى غرفتها وأصرت على أن تنام بينهما . اندست في سريرهما، طوقت عنق و الدها بذراعيها الصغيرين وهي تقول لأمها: «اذهبي أنت ونامي في سريري».

ــــ سريرك صغير ولا يكفيني، سننام كلنا هنا، لا تخافي.

ــــ إذاً أديري لنا ظهرك.

ــــ لكني أحبك وأريد ضمك إلى قلبي.

ــــ لا، بابا سيضمني، لا أريدك أنت.

ضحك الوالدان، قبّل الأب الطفلة التي غفت بين ذراعيه؛ وهكذا غاب المبتسم بعد أن اطمأن إلى حسن تنفيذ أفكاره ونواياه.

ـ 17 ــ

استمر الوضع على حاله إلى يوم استفاقت فيه الأم ودخلت الحمام باستعجال وأخذت بالتقيؤ . نهض الأب بسرعة من قرب حياة في السرير، هبَّ لكي يسعف زوجته بعد أن سمعها وأدرك أنها بحاجة إلى مساعدة . لكن حياة تمسكت به قائلة : «اتركها لحالها، هي كبيرة وتستطيع تدبير أمورها».

— إنها كبيرة، صحيح، لكنها تتألم وهي بحاجة إلى مساعدة، سأخبرك لماذا.

ترك ابنته وتوجه إلى زوجته التي كانت قد بدأت تستريح بعد أن أفرغت من معدتها سائلاً حامضاً . اطمأن إليها وعاد إلى ابنته ل يخبرها لماذا تحتاج أمها إلى المساعدة . استلقى قرب حياة، ضمّها إلى صدره وقال:

— سأخبرك شيئاً مهماً جداً، أمك ستأتينا بطفل جديد، ستلد لك أخاً أو أختاً، ألا يفرحك ذلك؟

— لا أريد أحداً . بدأت بالبكاء وهي تتابع، لهذا السبب هي لا تحبني، أمي لا تحبني، فلتمت، لا أريدها،

فلتذهب عنا هي والطفل الجديد . أريد أن أبقى وحدي معك.

ـــ هي تحبك ولهذا السبب ستأتيك بطفل جديد تلعبين معه ولا تبقين وحدك.

ـــ لا أريد لا أخاً ولا أختاً . اتركها وتزوج بي . فلتعد إلى أمّها، أنا أصبحت كبيرة وأستطيع أن أحضر لك الطعام.

لم يستطع الأب إخفاء ضحكته وقال:

ـــ عندما تكبرين أكثر، نفعل ما تريدين، أما الآن فما زلنا، أنت وأنا بحاجة إلى أمك ؛ من سيكوي لنا الثياب، من سيطعمنا، ومن سيشتري لك ما تريدين من ثياب ولعب وغيره و...؟

ـــ ستحبه أكثر مني، أنا أعرف.

ـــ من؟

ـــ الولد الجديد.

ـــ لا، طبعاً، لن أحب أحداً أكثر منك.

— ولا حتى أمي؟

— ولا حتى هي.

— 18 —

اطمأنت حياة وفي الصباح رافقها والدها إلى دار الحضانة، وهكذا أصبح هو من يرافقها كل يوم . يتركها في الدار ويذهب إلى عمله . ارتاحت حياة إلى هذا السلوك الجديد، لكن بالها ظل مشغولاً بالولد الآتي . تجلس وحدها في دار الحضانة فيحضر ه و الذي ضاق صدره من ملازمة والد حياة لها . يحضر بابتسامته الرائعة ويبدأ في الكلام، الكلام الذي يدخل الشكوك إلى ذهن حياة ويزرع الغيرة في قلبها الصغير . استمر ينمي هذه الغيرة إلى أن اكتملت مع ولادة الطفل وكان صبياً . والأمر الذي زاد من غيرتها هو أن والدها قد أتى بجدتها كي تهتم بها في الفترة الأولى بعد ولادة أخيها .

هنا تدخل المبتسم بعنف وأخذ يعلمها أشياء كثيرة كأن دوره انقلب إذ تحول من أداة إيذاء لحياة إلى أداة إيذاء في يد حياة، أو كأنه ألبسها دوره كي يشبع في وقت واحد نرجسيته وساديته.

— 19 —

جلس يوماً قبالتها وأقنعها أن ترفض الذهاب إلى دار الحضانة، قال : «يريدون إبعادك عن البيت كي يهتموا بالصغير، إنهم يحبونه أكثر منك، لا تقبلي بعد الآن الذهاب خارج البيت، ابقي وراقبي كل حركاتهم، وحين يتركون أخاك وحده في السرير، اقتليه، سأعلمك كيف. لكن عليك ألا تفارقيني أبداً، ابقي معي وأنا سأساعدك».

اقتنعت حياة بكلام ظلها وأول عمل قامت به هو رفضها الهستيري للذهاب إلى دار الحضانة : «سأرمي

بنفسي من السيارة، سأضرب الأولاد، سألبط المعلمة س.....» قالت ذلك مرددة ما تعلمته من المبتسم.

فهم الوالدان آلية الغيرة عند ابنتهما، وتركاها في البيت. للكن وجودها في البيت لم يكن سهلاً إذ إنها أرادت المشاركة في كل ما تقوم به الأم مع الطفل، وذلك، طبعاً بوحي من الظل الذي فرح بطواعيتها وانقيادها لكل ما يطلبه منها.

— 20 —

فترات الرضاعة كانت صعبة جداً إذ إن حياة كانت ترغب هي أيضاً بالرضاعة مثل أخيها، وتلبية لتلك الرغبة كانت تحاول أن تنتزع زجاجة الحليب من فمه. لكن الأم كانت ترفض بشدة وتحاول إبعاد حياة عنها مستعينة بالجدة التي تحاول عبثاً إلهاء حياة عما تريد. دام الوضع على ما هو عليه حتى امتنعت حياة

عن الطعام كلياً. رفضت كل ما قدم لها، وحين أرغمت على الطعام، تقيأت كل ما دخل معدتها بالقوة، فما كان أمام الأهل إلا حل واحد وهو أن يؤتى لحياة برضّاعة كما أخيها. فرحت حياة بالحل لكن حين طلبت منها أمها أن تستلقي على السرير لتشرب الحليب، رفضت وطلبت من أمها أن تضعها في حضنها كما تفعل مع الصغير، وبما أنها لم تكن ترغب في الطعام إلا حين يكون وقت إطعام أخيها، كانت تطلب من أمها أن تسلم الصغير إلى الجدة وتهتم هي بها . رضخت الأم لطلبات حياة وأصبحت هي من تهتم بها بعد أن أوكلت إلى الجدة مهمة الاعتناء بالصغير ريثما تخرج حياة من حالة الغيرة التي تمر بها.

— 21 —

طوال هذه الفترة كان الظل جالساً في الزاوية وهو يبتسم ولا أحد يراه سوى حياة التي كانت تنظر إليه من وقت لآخر ويتبادلان الابتسام.

ـــ هذا لا يكفي، قال لها يوماً، عليك أن تبولي في ثيابك كما يفعل أخوك، ألا ترين كم يهتمون به ويغيرون له ثيابه بعد كل وجبة طعام؟

ـــ ما بك، قالت الجدة، لمَ ثيابك مبللة؟

ـــ إني بلت فيها.

ـــ لماذا؟ أنت أصبحت كبيرة الآن ولا يجوز أن تفعلي ذلك.

ـــ لا أدري لماذا، لم أشعر بشيء، لقد أتى البول وحده.

تكررت هذه الحادثة مرات عديدة إلى أن أرغمت الأم على تحفيض حياة من جديد كما تفعل مع الطفل الجديد. أما هو فقد اتسعت ابتسامته وزادت غبطته؛ حياة

أصبحت ملكه، تلبي كل ما يطلبه منها . لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد.

ـــ عليك التخلص منه. عندما يغفو ويضعونه في سريره، ادخلي غرفته، جريه من السرير وارميه على الأرض.

تسلقت على السرير، حملت أخاها وقذفت به إلى الأرض وعلا صراخه. نزلت من على السرير وحاولت الهرب.

ـــ ماذا فعلت يا شيطانة؟ قالت الأم وهي تركض.

ـــ كنت أريد أن أحمله كما تفعلين أنت، لكنه رفسني ووقع.

بما أن السرير لم يكن مرتفعاً جداً لم يتأذّ الصغير كثيراً إذ أسعفته الأم بسرعة وداوته بأن وضعت قطعة من الثلج على جبهته التي انتفخت قليلاً . لكن بعد هذه الحادثة اشتدت الحراسة على الصغير وبات على الظل أن يبتدع حيلاً جديدة . لم ينجح كثيراً إذ حاول الأهل

إحاطة الصغيرة بحنان كبير جعلها تنساه، فغاب عنها وابتعد عن نظرها وزاد غيابه لأن حياة لم تعد تمكث وحدها ولا لحظة واحدة، فجدتها أصبحت رفيقتها الدائمة تلازمها وتنام معها في غرفتها.

— 22 —

انتهت سنة الحضانة، أتى الصيف وموسم البحور والسباحة فأصبح الأب يرافق ابنته إلى المسابح تاركاً الأم والطفل في البيت . أعجب هذا السلوك حياة لكنه لم يعجب الظل الذي كان يتحايل لينفرد بحياة ويعلمها ما عليها أن تفعل كي تظل تحت سيطرته.

ـــ أصبحت كبيرة، انزعي العوامات من ذراعيك وارمي بنفسك في المياه، انظري كيف أسبح أنا وكيف

يسبح أبوك، لا تخافي . الماء سيحملك ويمنعك من الغرق.

استغفلت أباها الذي كان يلعب بالنرد مع أحد أصحابه، نزعت العوامات من ذراعيها ورأته في الماء يبتسم لها ويؤشر لها بأن تأتي إل يه وهو يفتح ذراعيه جاهزاً لتلقيها وحمايتها . رمت نفسها في الماء، فاختفى وأخذت تتخبط وتبلع الماء إلى أن أتى المسعف وأنقذها وهي تصرخ : «أنت كذاب؛ الماء لم يحملني، كدت أغرق، لا أريد رؤيتك بعد الآن».

أتى والدها راكضاً وأعادها إلى البيت بعد أن ألبسها ثيابها وهو ي ؤنبها ويهددها بأن يحرمها من المجيء إلى البحر إن استمرت في مخالفة ما يقوله لها.

ــــ أصبحت لا تطاق، قالت الأم، فهي تتصرف على هواها، لا تسمع الكلمة . السنة القادمة في المدرسة سيعرفون كيف يربونها . أما الآن فلن نبقى على الساحل، سنذهب إلى الجبل إلى بيت أهلي وهكذا نكسب

صحة ونبتعد عن الساحل وحرِّه وعرقه وقرفه و ... شيطنات حياة.

— 23 —

في الجبل لم يتغير الوضع فالمبتسم حاضر أينما كانت حياة، يلازمها كذاتها وهي ألفته إلى حدِّ التوحد معه إذ إنها أحياناً أصبحت تتصرف من دون أن يأمرها كأن إيحاءاته أصبحت جزءاً من تفكيرها الخاص:

عصافير في أعلى الشجرة وها هي حياة تتسلق الأغصان كي تصل إلى العش، فينكسر تحتها الغصن الطري وتسقط على الأرض وتجرح ركبتها ويسيل دمها وهو يبتسم كأنه حقق نصراً عظيماً.

في الزاوية العليا لجدار السطيحة، بيت للدبابير، تأتي حياة بالسلّم، تصعد فوق خشباته وبيدها عود صغير كي تنقر البيت وترميه، وها هي الدبابير تفور،

تتجمع على وجه حياة ويديها ورجليها وتعقصها في كل مكان وهي تصرخ كي ينجدوها. حين فعلوا كان جسمها قد تورم واحمر جلدها، فنقلت إلى الطبيب خوفاً من التسمم، وهو يبتسم.

في الحديقة شتلات بندورة وخيار ولوبياء و ... تقتلعها حياة وترمي بها جانباً وتصفع على يديها وهو يبتسم.

تركب على ظهر الحمار، تلطم بطنه برجليها، يركض ويرميها، فيزرقّ جلدها الناعم وهو يبتسم.

تأتيهم سلة عنب من أحد الأقارب، تهجم حياة وتأكل من العنب من دون أن تغسله، تصاب بالإسهال والتقيؤ وهو يبتسم.

هكذا تنقلت حياة من قصة إلى قصة إلى أن مضى الصيف وعادوا إلى المدينة حيث أدخلت المدرسة . لكن الدخول هذا لم يكن بأسهل من دخول دار الحضانة إلا أنها أصبحت تذهب إلى المدرسة بأوتوبيس مخصص لهذا الغرض. تنتظره صباحاً مع أمها أمام البيت، يمر

وتصعد إليه كي تجلس بين رفاقها الجدد و ليس وحدها. لهذا السبب كان على المبتسم أن يغير تكتيكه. كيف؟

— 24 —

كان كل صباح ينتظرها أمام باب المدرسة . في البداية حاول إقناعها بأن تتمنع عن الدخول إلى أن تأتي الناظرة وتأخذها من يدها وأحيانا كثيرة تعنّفها. بعد فترة تعب من هذه الآلية التي باتت مهددة بالفشل لأن حياة لم تعد تمانع كثيراً في الدخول إلى المدرسة، تعب من هذه الآلية وأراد أن يبتكر غيرها كي يكون تدخله أكثر فاعلية.

توقف الأوتوبيس وبدأ الأطفال الخروج منه. كانت حياة على درجة الباب حين فاجأها بوجوده، ققفزت، فتعثرت خطواتها وسقطت على الأرض، لكن هذا السقوط لم يؤذها كما كان يتوقع وهي لم تبكِ أمام

رفاقها، بل كابرت وتحملت وجعها من دون أن تخرجه كعادتها بالصراخ. لم يعجبه سلوك حياة مما دفعه للبحث من جديد عما يحقق مبتغاه.

لاقاها في الملعب : «ماذا تفعلين هنا وأمك وحدها مع أخيك، تلاعبه وتدلّله وتداعبه و ... اتركي المدرسة وعودي إلى البيت. لا تخافي، أنا أرافقك». لم يكن البيت بعيداً جداً وهي لم يخطر ببالها البعد، بل استاءت من كون أمها موجودة وحدها مع أخيها الصغير في البيت وأعجبتها فكرة الفرار من المدرسة لتفاجئ أمها وتعرف ماذا يحدث خلال غيابها عن البيت.

خرجت برفقته من الباب ولم ينتبه إليها أحد. ساعة «تخلّي»، كما يقال بالعامية . سارا معاً يداً بيد على الرصيف. سارا وهما يمزحان ويضحكان كأنهما يحققان فعل الحرية بامتياز . لكن سرعان ما تلاشى الظل من قربها ولم تعد تراه. استاءت ونظرت في كل الاتجاهات، ها هو يسير على الرصيف الثاني، ينظر إليها ويبتسم. حين رأت ظلها بعيداً عنها، يسير وحده على الرصيف

المقابل للرصيف الذي تسير عليه، اضطربت وضاع توازنها إذ كيف لجسد أن يكون من دون ظل في وضح النهار. ما كان عليها إذاً إلاّ الالتحاق به ففعلت من دون تردد كأنها منجذبة مغناطيسياً، ركضت لملاقاة ظلها كي يأنس جسدها إليه ويحقق اكتماله.

ما إن همت بالركض حتى حصل ما لم يكن بالحسبان ؛ في تلك اللحظة صادف مرور سيارة مسرعة، وما كان من حياة إ لاّ أن ارتطمت بها . لكن، والحمد لله وكما يقال : «من له عمر لا تقتله الشدة »، حياة هي التي ارتطمت بالسيارة وليس العكس، مما جعل ا لضربة غير مميتة . وقعت حياة على الأرض وحين رفعت رأسها لتبحث عن ظلها، رأته واقفاً مكانه يبتسم. اغتاظت كثيراً وغابت عن الوعي كي لا تعود تراه. هنا أعفي القارئ من توابع هذه الحادثة بين الأهل والمدرسة لأنها خارج الموضوع . لكن حياة كرهت ظلها بعد تلك الصدمة وأخذت ت بتعد عنه قدر استطاعتها. لكنه ظلها وأحد إنسيّها اللذين يشكلان

شخصيتها، فكيف تتخلص منه؟ ربما بالنسيان والهروب إلى الآخرين الذين لا يرونه. أصبحت حياة مندمجة كلياً بجو الرفاق في المدرسة، مجتهدة بالدرس ومنسجمة باللعب ولا تفارق أهلها لحظة واحدة حين تكون في البيت. لكنه كان دائماً يحضر في المساء حين تعود حياة إلى وحدتها وهي حتماً تعود إليها كلما أوت إلى سريرها.

ـــ أعتذر عما حصل لك. قال لها حين التقيا للمرة الأولى بعد الحادثة.

ـــ لا أريد أعذاراً، رأيتني على حافة الموت وأنت تبتسم.

ـــ كيف لا أبتسم وكدت تصبحين لي وحدي؟ ألا تعلمين أنك ملكي ومهما فعلت لن تفلتي من قبضتي؟

ـــ لا أريدك ولا أريد سماع أقوالك، أنت مجنون، اتركني، أريد النوم.

لم يتابع وتركها تنام . إنه يتصرف بذهنية المرتاح المطمئن لأمره : «أين المفر؟ » كان يقول في سره «عاجلاً أو آجلاً سوف...».

— 25 —

أمضت حياة تلك المرحل ة الابتدائية وهي تحاول الابتعاد عن ظلها من دون أن توفق دائماً . ففي إحدى المرات استغفلها واقترب منها وهي في ملعب المدرسة وكان الطقس حاراً جداً.

ـــ ما رأيك بقطعة من البوظة؟ سألها.

ـــ لا، منعني أهلي من أكل البوظة لأنها مضرة . لا آكلها إلا من صنع الماما في البيت.

كان يعرف أن وباء الحمى منتشر في البلد، وأن مصلحة الصحة العامة قد حذرت من أكل الخضار والفاكهة من دون غسيل وتطهير . ومنعت أكل البوظة

وبخاصة التي تصنع من مشتقات الحليب إذ إن حرارة الطقس لا تسمح بحفظها بطريقة صحية. كان يعرف كل ذلك، لكنه تابع إغراءاته:

ـــ سأشتري لك قطعة، لا تخافي، سآكل معك.

اشترى اثنتين، قدم لها واحدة وبدأ بالتهام الأخرى. كيف ترفض وهي تحب البوظة كثيراً وما زاد في عدم تمنعها هو أن تناول البوظة في تلك المرحلة يشكل، بالإضافة إلى لذة مذاقه، تحدياً لإرادة الأهل ونوعاً من تثبيت الشخصية. أكلا معاً وتلذذا. لكن هو ما همه، فهل يمرض الظل؟

في المساء ارتفعت حرارة حياة وبدأت تتقيأ، لكنها لم تصب بالإسهال. انشغل بال الأهل واستدعوا الطبيب الذي قال بعد المعاينة:

ـــ راقبوا الحرارة يومين ولا ترسلوها إلى المدرسة، بعدها سنرى ما علينا فعله.

صباح اليوم التالي، كانت حرارة حياة منخفضة وشبه طبيعية. بقيت في السرير وهو في زاوية الغرفة

ينتظر ويبتسم . حين أتى المساء ارتفعت الحرارة، وتكرر الأمر في اليوم التالي وحياة ترفض الطعام وتتقيأ. أتى الطبيب، عاينها من جديد وسأل أمها ماذا تناولت من أطعمة قبل أن تمرض . عددت الأم ما أطعمت ابنتها ولم يجد الطبيب فيها ما يسبب المرض . توجه إلى حياة وسألها إن كانت قد أكلت شيئاً في المدرسة. رفضت بداية البوح، لكنها في النهاية اعترفت وقرر الطبيب أنها بحاجة إلى تحليل دم، وأثبتت التحاليل أنها مصابة بداء الحمى، وهكذا أمضت شهراً كاملاً وهي تعالج بالمضادات الحيوية. خلال تلك المدة كانت تلعن في سرها ظلها الذي كان يحضر دائماً ليحرضها على عدم قبول الطعام وعدم أخذ الدواء و ... لكن الأهل كانوا هنا وهم من تولوا الأمور بأنفسهم، مما أشعر الظل بعدم جدارته وعدم جدوى محاولاته، لكنه لم ييأس واستمر بالتحريض إلى أن تعافت حياة وقررت أن تبعده عنها وألاّ تسمع نصائحه.

— 26 —

أين لها المفر منه؟ إنه لا يتعب ولا يكلّ ولا يغيب . إنه الحضور المستمر وما غيابه للحظات إلا نسيان حياة له كما قلنا سابقاً وحضوره الدائم لا يتعبه، بل على العكس، يزيد من نشاطه إذ انتبهت حياة بين بلغت سن المراهقة في العاشرة من عمرها تقريباً أنه لم يعد شيخاً أبيض الشعر كما كان في المرحلة السابقة، بل «شبشب» وبدأ يشبه أباها بعد أن كان يشبه جدها . هنا بدأت العلاقة به تتغير . في هذه المرحلة كانت حياة قد فقدت جدها وأصبح صعباً عليها أن تراه، هو، كجدّها . هل هو تغير فعلاً أم هي غيرته على هواها وبحسب ميولها؟ إنها هي التي حولته، لكن ذلك لا يغير شيئاً في الموضوع إذ إن تغيراته كانت وفقاً لإرادتها غير الواعية طبعاً.

كلما تصورته أو حضر أمامها، انتابت حياة مجموعة من المشاعر المتناقضة ؛ إنها أحياناً تحبه، بل تعشقه وأحياناً أخرى تكرهه وتر يد قتله، وهو كأصابع عازف القانون يتنقل من شعور إلى شعور كأنه يتنقل على أوتار يعطي كل منها نغماً مختلفاً.

أخذت حياة تنمو وتكبر وراحت الأسئلة تنهار عليها وهو يرافقها، أحياناً يناقضها وأحياناً يسايرها . تردعه فينهزم أو بالأحرى يلعب دور المنهزم وسرعان ما تعود إليه وتسترضيه. أصبحت لا تقوى على فراقه طويلاً ونسيانه بات صعباً ولم يعد حضوره تابعاً للآلية السابقة ـــ التذكر والنسيان ـــ بل أصبح يرافق حياة باستمرار ويكون حاضراً حتى حين تكون هي مع الآخرين. أصبحت تحمله كالمرأة الحامل، تتنقل معه أينما توجهت. ولا ننسى أنه على الرغم من تغير شكله، ظل يتميز بتلك الابتسامة الساحرة . في هذه المرحلة بدأت حياة تسميه المبتسم، وهكذا باتت له هوية، لم يعد تائهاً، وشكله أخذ يتّضح ويثبت . إنه الآن وكلما

استحضرته يأتي على صورة أبيها . بقدر ما كانت تنمو وتنضج في مراهقتها، بقدر ما كانت الصورة تقترب من الأصل.

— 27 —

لكن هل كانت الصورة تأخذ دور الأب فعلاً؟ نعم ولا، إذ إن الصورة كانت تقوم بالدور الذي تريده حياة من أبيها وليس الدور الذي يقوم به هو فعلاً. غير أن هذا الدور لم يكن واضح المعالم فحياة نفسها ما عادت تعرف فعلاً ماذا تريد من والدها . لقد أصبح المثال والحبيب والمربي والرادع والمشجع و ... هنا لا بد من ذكر أنماط مختلفة لحضور المبتسم المتنوع : إنه أولاً المحرّض على ممارسة الممنوعات . إنه العشيق المحرم. إنه المشجع على اليأس والإحباط. كيف كان يتم كل ذلك؟

حين حاضت حياة للمرة الأولى، وكانت أمها قد شرحت لها مسبقاً كل التفاصيل، لم تفاجأ، بل شعرت أنها مختلفة؛ لقد أصبحت إنسى . هنا بدأ والدها يأخذ حيزاً أكبر في حياتها. أدرك أنها أصبحت إنسى وإنسى تُعشق وتَعشق. هل هو الذي كان يشعر بذلك أم أنها هي التي أسقطت رغبتها العشقية عليه؟ لا أحد يدري إذ إن الالتباس هنا وارد . لكن عملية الإسقاط تلك لم تكن مباشرة بل مورست على المبتسم الذي لم يكن يردعه رادع. تتمدد حياة في سريرها ليلاً فيحضر ويبدأ بدغدغة ثدييها بيد ويمد يده الثانية ليطال أماكن أخرى من جسدها المستسلم للذة . تتركه يفعل، فيتشجع ويرفع عنها ملابسها وهي لا تمانع . يخلع ثيابه، يلتصق بها ويزيد من مداعبة الأماكن الحساسة من جسدها . تهتاج حياة وتمارس معه الحب وتصحو مغتاظة منه، وترفسه فيبتعد عنها لأنه هو أيضاً يكون قد أشبع نهمه منها . يبتعد عنها وهو يبتسم، فتلعنه وتصيح في داخلها : إنها المرة الأخيرة التي أسمح لك بالدنو من جسدي . يختفي

خلف ابتسامته ويتلاشى فيها بحيث لا تعود حياة ترى إلا تلك الابتسامة من دون وجه حتى يأخذها النعاس وترحل إلى عالم الأحلام.

— 28 —

العملية أخذت تتكرر كل مساء، لكن حياة كانت ترفض في وعيها أن يكون والدها هو الفاعل تحت صورة المبتسم المنفذ الفعلي . هذا الرفض دفع ها إلى البحث عن بديل . لم يطل الوقت، وجدته . إنه والد صديقتها. لكن حب هذا البديل لم يكن حباً محرماً ولا هو ظل كالمبتسم. أغرمت به فعلاً، لكن غرامها هذا بات صامتاً، لم تجسر على البوح به لأحد. والد صديقتها هو طبعاً رجل متزوج ويكبرها سناً . كل هذه الأمور لم تردع حياة ولم تساعدها على كبح مشاعرها التي كان المبتسم يشجعها على التمتع بها.

تزور صديقتها وتلتقي به . يقبلها. تشعر برغبة غريبة بامتلاكه. تقمع نفسها وترمي برغباتها في سلة اللاوعي الذي يستفيق في حالات معينة ووفقاً لآليات محددة. تعود إلى البيت، تدخل غرفتها في آخر النهار وتلجأ إلى فراشها . حين تلقي برأسها على الوسادة لا يكون ذلك لمحاولة النوم بل للاسترخاء والإفساح في المجال أمام أحلام اليقظة وتداعي الأفكار والصور التي تأتي أحياناً بشكل منتظم ومنطقي وأحياناً أخرى بشكل عشوائي لا نفهم له آلية . تغمض عينيها كي لا يعود الخارج يؤثر بها وتسرح في أجواء منها الغريب ومنها الأليف. ها هي صورة والدها وصورة والد صديقتها وطبعاً صورة المبتسم التي تتقمص الصورتين معاً. يدنو منها، يبدأ بمداعبتها ويمارس معها ما تسميه محرماً . تخرج من الحالة لتغرق في الشعور بعقدة الذنب التي كلما حاولت التخلص منها وقعت فيها من جديد بسبب تكرار الآلية السابقة . كانت تشعر بالذنب لأنها كانت

تستمتع بما تمارسه مع ذاتها، هذه المتعة هي التي تجرها من جديد إلى ما تندم على فعله بعد الانتهاء منه.

— 29 —

كانوا كعادتهم يذهبون إلى الجبل للاصطياف . يجلسون بعد الظهر في الحديقة ويؤم دارتهم الأهل والأصحاب والجيران . يشربون المرطبات والقهوة وينفثون دخان السجائر ويأكلون الفاكهة و ...يتحدثون بكل الأمور العالمية والمحلية، وهو أمر أصبح من السهل الخوض فيه بسبب سهولة الاتصالات والتلفاز الذي يدخل العالم كله إلى بيتك والأنترنت الذي أصبح في م تناول الجميع . تتشعب الأحاديث وتطال الكرة الأرضية كلها، وأحيانا تخرج منها إلى الفضاء الخارجي. لكن الحالة لم تكن باتجاه واحد بل كانت الزيارات متبادلة، وأحياناً كثيرة يذهب والدا حياة إلى

زيارة من سبق وزارهم أو للقيام بتهنئة أحدهم بزواج أو بولادة أو... في هذا السياق غادر أهل حياة يوماً لمناسبة معينة. جلست حياة وحدها في الحديقة وكما هو متوقع حضر المبتسم. دنا منها، لم يتكلم، بل مد يده إلى علبة السجائر، رفعها، أخرج من فتحتها سيجارة وقدمها إلى حياة. فوجئت حياة بالأمر وحاولت أن تتمنع، لكنه وضع السيجارة بين شفتيه، أش علها وقدمها من جديد إليها . شعرت كأن والدها هو الذي يقدمها لها ومن دون تردد أخذتها من يده.

لم تستطع وصف ما حدث معها حين لامست شفتاها السيجارة، شعرت كأنها تقبل ثغرَ عشيق متيّمةً به، انتعشت وسحبت الدخان المشبع بالنيكوتين إلى فمها وداخل رئتيها وشعرت بنوع من ال خدر، خدر لذيذ جعلها تستعجل في سحب الدخان من جديد . ابتسمت لظلها الذي كان لا يزال جالساً يراقب ردة فعلها . فرح بها وشجعها على المتابعة هي التي لم تكن بحاجة إلى

أي تشجيع والتي كانت تمج السيجارة بنهم . حين احترقت السيجارة بالكامل، رمتها بعيداً وقالت:

— وإن علم والداي بما فعلت؟

— كيف يعلمان؟ اغسلي فمك واستعيني بــ«علكة» بطعم النعناع وينتهي الموضوع . لقد أصبحت كبيرة وباستطاعتك أن تستقلي عن إرادة أهلك، عليك أن تكوّني شخصيتك الخاصة المختلفة عنهم و....

تركته يتكلم وأصغت لما دار في داخلها: «إنه على حق، عليّ أن أبني ذاتي وأكوّن نفسي كما أريد، لقد تعبت من قواعد التهذيب التي يتعلق بها والداي والتي يمارسانها أحياناً من دون اقتناع ...» كانت تؤسس لتمردها وهو ينظر إليها فرحاً، ورغب في أن يقدم لها سيجارة ثانية لكنه لم يفعل، خاف أن تصاب بالدوار وتكره السيجارة التي كان مصمماً على جعل حياة تدمن

عليها. اكتفى بسيجارة واحدة في البداية كي يضمن استمرارها وإمكانية إعادة تجربتها مرة أخرى في الظرف الذي يراه مناسباً . هكذا أصبح يحمل في جيبه دائماً علبة سجائر أينما توجه مع حياة . وهكذا أيضاً أصبحت حياة تدخن كلما أُتيحت لها الفرصة . اطمأن المبتسم لما فعله لأنه كان يدرك جيداً مفعول السيجارة على المرء . إنها أمتع الطرق المؤدية إلى الانتحار، صحيح أنه بطيء لكنه حتماً لا يفشل.

— 30 —

عاد الأهل مساء ذلك اليوم وكانت حياة قد غسلت فمها ومضغت العلكة بالنعناع كما نصحها المبتسم الذي توارى عن النظر، غاب وهو مسرور لأنه وضع الحجر الأساس لمهمة طويلة الأمد لكنها فعالة جداً . لم يلاحظ والدا حياة أي شيء على الرغم من أنها قبلتهما كالعادة .

هما لم يلاحظا أي تغير، أما هي فقد شعرت لأول مرة في حياتها أنها مختلفة ومستقلة، والأغرب من ذلك هو أنها شعرت بشيء مميز نحو والدها، شعرت به رجلاً يحرك أحاسيسها. لكنها أبعدت هذا الشعور بسرعة عن خاطرها. أبعدته، لكن الإبعاد ليس عملية إلغاء ولذلك ذهبت تلك المشاعر إلى حيث ترقد بسلام لتستيقظ في فترات معينة وتُسقط على شخص آخر بفعل آلية الانزياح الدفاعية.

كيف تم ذلك؟ في سن السادسة عشرة من عمرها أصبحت حياة، في لاوعيها، تبحث عن صورة أبيها وقد وجدتها بطريقة ملتبسة. دخل عليهم، يوماً أحد أصحاب والدها وكان رجلاً وسيماً تعرفه حياة جيداً من قبل. دخل عليهم وابتسم لحياة كعادته. لكن ابتسامته لها هذه المرة كانت ابتسامةً ساحرةً كابتسامة ظلها، وفي لحظة سريعة تمت عملية الانزياح والإسقاط . ردت حياة الابتسامة لكنها ابتسامة خرجت هذه المرة من اضطراب جسدها

وهي تفكر : ‹‹هل يبتسم لي كإنسى أو كابنة صديقه؟ لماذا أشعر الآن أنني إنسى ولماذا أشعر أن ابتسامته مختلفة؟››.

اقترب منها وقبلها كالعادة أيضاً فارتعش جسدها بشكل لم تفهمه وغزت وجهها موجة من الاحمرار لكنها زالت بسرعة. لم تكن تنتبه إليه في السابق، ما هذا الذي يحدث لها؟ لم تفهم . لكن حين رحل في آخر السهرة، دخلت حياة غرفتها وحضر أمامها إنسها الثاني الذي سألته عن سبب تغير مشاعرها تجاه صديق أبيها . أجابها:

ـــ إنه رجل وسيم وأظن أنه يبادلك المشاعر إياها. أنا متأكد أنه يأتي لرؤيتك وهو حتماً معجب بجمالك.

ارتاحت حياة لما سمعته وأمضت تلك الليلة وهي تحلم بلمساته وقبلاته ونظراته وبعض كلماته التي أولتها بما يتفق ومشاعرها الجديدة.

— 31 —

انتظرته في اليوم التالي وأتى كأنهما على موعد . اضطربت لدى رؤيته وارتعش جسدها . ارتبكت وما عادت تعرف كيف تتصرف. دخلت إلى غرفتها، وقفت أمام المرآة، نظرت إلى صورتها وكان ظلها إلى جانبها ينظر معها إلى صورتها في المرآة ويبتسم . أخذ المشط وسرح لها شعرها وطلب منها أن ترتدي قميصاً شفافاً يظهر، بطريقة مثيرة، بعضاً من جسدها.

عادت إلى الصالون وجلست قبالته وهي تحدق به. أتت أمها لاستقبال الضيف الصديق، قبلته كالعادة لأنه صديق زوجها الحميم وصديق العائلة كلها . لكن حياة استاءت هذه المرة من طريقة استقبال أمها له، استاءت وغارت لأنها أصبحت تريده لها وحدها هي التي فهمت من ظلها أن صديق والدها يأتي فقط لرؤيتها هي.

ـــ هل نشرب القهوة من يدك اليوم؟ قالت الأم لحياة.

ـــ لا، لا أريد، اصنعيها أنت.

ـــ هذا الجيل لا يطاق، إنه كسول . أجابت الأم متوجهة إلى الصديق.

ـــ اتركيها، لا أريد قهوة.

كان ينظر إلى حياة ويبتسم، ينظر إلى ما يظهر من أعلى ثدييها ويضطرب؛ وتابع : «اتركيها، إنها صبية جميلة ولا يليق بها شغل المطبخ».

ـــ ستنزعها بدلالك لها. إنها لا تقوم بأي عمل في البيت. سأحضر القهوة، بالإذن . قالت الأم وهي تخرج من الصالون.

غابت الأم وتركتهما . كانت حياة مسمرة مكانها تنظر إلى الضيف وتراقب حركاته ونظراته وتنتظر كلماته التي بدأت على الشكل التالي:

ـــ كيف حال المدرسة؟ لقد شارفت على نهاية المرحلة الثانوية، ماذا ستدرسين لاحقاً؟

ـــ لا أدري حتى الآن. بماذا تنصحني؟

ـــ لا أستطيع أن أنصحك، اتبعي ميلك، ماذا تحبين؟

كانت، في تلك اللحظة تحبه هو وتميل إليه هو. هل تبوح له بمشاعرها؟ لا، إنها فضيحة. عليه هو أن يبوح لها بحبه أولاً وحينذاك تتجاوب معه و... مع رائد.

ـ 32 ـــ

ـــ يا له من اسم جميل، قالت لظلها، هل يحبني؟ كانت نظراته إلي تقول ذلك . لكن هل يحبني كابنة صديقه أو...؟

ـــ يحبك فعلاً، أجاب الظل، ألم تلاحظي ذلك؟ كنت معك ورأيت كل شيء . كاد يفترسك بعينيه ولولا

وجود أمك المزعج، لكان باح لك بحبه . حاولي مرة ثانية الانفراد به وستتحققين مما أقوله لك.

واختلطت الصور أمامها، إنه رائد ووالدها وظلها، ثلاثة رجال في تهويم واحد، أيهم تعشق فعلاً؟ والدها؟ حتماً لا، فهذا أمر مرعب . إنه حتماً هو، رائد الذي تعشق. ألغت صورة والدها وبقيت في ذهنها اثنتان، صورة رائد وصورة المبتسم . لكن الصورتين توحدتا بالابتسامة، لم يبق منهما إلا تلك الابتسامة الساحرة التي تجعل حياة تنفذ كل ما يطلبه منها صاحبها، إذ تجعلها عاجزة عن المقاومة. لماذا يبتسمان لها هكذا؟

ـــ الابتسامة هي من صفاتي الأساسية، قال ظلها، إنها بالأحرى هويتي . أما هو، فابتسامته هذه جديدة، وهي تنبع الآن من أعماقه العاشقة.

عادت حياة إلى ذاتها تتأمل بما يحدث لها : «لم ألاحظ هذه الابتسامة عنده من قبل فعلاً، لم أنتبه إلى نظراته الشهوانية. هل كانت دائماً هكذا أم أنها تغيرت

فعلاً؟ ألاحظ الإعجاب في عينيه . هل لاحظت أمي كل ذلك؟».

— 33 —

— سيرافقك «عمو» رائد اليوم مساءً من المدرسة، والدك طلب منه ذلك لأنه سيتأخر في عمله . قالت لها أمها صبيحة ذات يوم.

غمر الفرح قلب حياة، ستجلس بالقرب منه في السيارة، سيبوح لها بحبه، سيقومان بنزهة قبل أن يوصلها إلى البيت، س ... لم تتابع الدروس ذلك اليوم . كان ذهنها شارداً لأنها كانت تحلم باللقاء، تحلم بسماع كلمات جميلة، تحلم بنظرات وربما بقبلات غير تلك التي اعتادت عليها منه، تحلم بلمسة يديه، تحلم وتحلم وتحلم.

حين خرجت من المدرسة أصبح الحلم حقيقة، كان ينتظرها في الخارج، كان قد ترك سيارته ووقف على باب المدرسة . رأته، التقت نظراتهما، ابتسم وارتعد جسدها كما يرتعد حين يرى ابتسامة ظلها الساحرة . انجذبت إليه وكادت تتعثر في مشيتها : «كم هو وسيم». قالت لنفسها وهي تتعثر. وصلت إليه، قبلها وهو يضمها إلى صدره. كادت أن تطير، أن تذوب . طوق خصرها بذراعه وقطعا الطريق إلى حيث سيارته . فتح لها الباب فصعدت إلى السيارة وهي في شبه حلم . جلس على المقعد الثاني، نظر إليها وقال بشبه تنهيدة : «يا إلهي كم أصبحت جميلة»، وتابع بعد صمت قصير : «أنت الآن شابة رائعة، كم أحسد والدك ». ثم مد يده، مسد شعرها وأدار محرك السيارة وانطلقا . لكنه تابع: «أوصلك إلى البيت أم تقبلين دعوتي لشرب القهوة في أحد المقاهي؟ ما زال الوقت باكراً».

ـــ كما تريد، أجابت وكانت كلها رغبة في مرافقته إلى أي مكان قبل عودتها إلى البيت، كلها رغبة

بالانفراد به كما نصحها ظلها، لكي تعبر ل ه عن مشاعرها، طبعاً بعد أن تكون قد سمعت منه ما يشجعها على ذلك.

ـــ أدعوك إلى تناول الحلوى في مقهى ... على شاطئ البحر، فما رأيك، هل توافقين؟

ـــ فكرة رائعة.

ترجلا من السيارة، أحاط كتفيها بذراعه وسارا معاً. كان جسدها يرتعش وتتمنى أن يعتصرها أكثر، لكنه لم يفعل على الرغم من أنه كان مثلها يرغب في ذلك وجسده يرتعش مثل جسدها . لم يفعل لأنه رجل ناضج ومحنك ويعرف كيف ينتظر اللحظات المناسبة.

لم يجلسا حول الطاولة التي اختارها في إحدى زوايا المقهى، وجهاً لوجه، بل، بعد أن أخذت مكانها، جلس بالقرب منها ولامس جسده جسدها . اضطربت، طبعاً، وشعر هو باضطرابها، لكنه تجاهل الأمر وسألها:

ـــ أي حلوى تفضلين؟

ـــ الحلوى المفضلة عندي هي «التارت بالفريز».

ـــ سأطلب أنا أيضاً مثلك.

نادى النادل وطلب منه ما اختارا وساد الصمت بينهما للحظة قبل أن يقول:

ـــ هل تعرفين، لم ألاحظ يوماً أنك بهذا الجمال . إنك تفوقين أمك جمالاً وهي سيدة جميلة جداً.

ـــ وماذا عن جمال خالتي؟

— 34 —

وقع عليه السؤال كالصاعقة . لم يكن يريد أن يفتح موضوع الخالة. كانت أم حياة تحاول، في تلك الفترة أن تزوجه من أختها وكانا، أحياناً يخرجان معاً ويسهران معاً وكان هو يدعوها إلى العشاء أو الغداء أو... كل ذلك

بمباركة والدي حياة. والخالة، هند، كانت تحبه وتخطط للزواج به وهي آنسة تناسبه عمراً ومركزاً وما إلى ذلك من الشروط الاجتماعية المتعارف عليها في صفقات من هذا النوع . هو أيضاً كان مقتنعاً بالفكرة ويخطط لتحقيقها. من أين أتته حياة؟ كيف ظهرت فجأة وحركت كل مشاعره هو الذي كان، حتى ذلك الوقت يعاملها كطفلة، يدللها، يضعها على ركبتيه كدمية جميلة . كيف تحول هذا الشعور البريء إلى شهوة؟ هل أن تحوُّل حياة إلى فتاة ناضجة نضرة هو الذي أحدث فيه هذا التغيير؟ لكن إلى أي مدى باستطاعته المغامرة مع هذا الشعور الجديد؟

ضمها إليه، قبّل جبهتها وقال : «خالتك هي أيضاً جميلة، لكنك أنت أجمل منها ». ابتسمت ولم تجب وساد الصمت من جديد . أتى النادل وضع الحلوى على الطاولة ورحل.

ـــ هيا فلنأكل، قال وهو يرفع ذراعه عن كتفيها.

كانت تود ألا يفعل لكنها أخذت الملعقة وباشرت بالطعام لأنها ما عادت تعرف كيف تتصرف ولا ماذا تقول. انتهيا من تناول الحلوى، مد يده إلى جيبه وسحب منها علبة سجائر . أخرج منها سيجارة، وضعها بين شفتيه وأشعلها.

ــــ هل تقدم لي سيجارة؟ سألته.

ــــ هل تدخنين؟

ــــ أحياناً، لكن لا أريد أن يعلم أهلي بذلك.

ــــ اطمئني لن أقول لهما وأنت أيضاً لا تقولي لخالتك أنني دعوتك إلى المقهى.

ـ 35 ــ

«لماذا لا أقول لها؟ هل تغار مني؟» يبدو أنها فعلاً بدأت تغار من حياة وقد لمّحت إلى رائد بذلك . كانت

دائماً تلتقي به في بيت أختها وأصبحت مؤخراً تطلب منه أن يلتقيا في أماكن أخرى . ما عادت ترغب في أن يتردد رائد كثيراً إلى بيت صهرها. هل تلاحظ تغيراً ما عند رائد؟

ـــ لماذا تأخرتما؟ سألت الأم، حين عادا إلى البيت، انشغل بالي عليكما.

هل تشك بشيء؟

ـــ عجقة سير خانقة وغير عادية، أجاب رائد بسرعة، ثم إن حياة كانت بحاجة إلى المرور بإحدى المكتبات لتبتاع بعض الأغراض، فرافقتها.

انتهى الأمر هنا. لكن رائد بقي معهما ولم يغادر.

ـــ هل صاحبنا سيتأخر؟ سأل متوجهاً إلى الأم.

ـــ لا أظن، فلنتصل به ونتأكد.

اتصلت بزوجها الذي أبلغها أنه لن يتأخر وطلب منها أن تجعل رائد ينتظره . لم يكن رائد يتمنى سوى ذلك فجلس ولم يطل انتظاره إذ أتى والد حياة بسرعة.

ـــ نتناول العشاء معاً، ما رأيك يا رائد؟ سألت الأم.

نظر رائد إلى حياة وقرأ في عينيها ما هو راغب به وأجاب: «لا مانع لدي، سأتناول العشاء معكم».

ـــ إذاً فلنتصل بأختي هند لتشاركنا العشاء.

ــ 36 ــ

اغتاظت حياة من اقتراح والدتها، هو أيضاً لم يكن مسروراً وأتى تعبيره عن عدم الرضا بأن قال: «لا تزعجيها، فأنا لن أطيل المكوث، عليّ القيام ببعض الأعمال الضرورية».

لكن الخالة أتت من دون أن تدعى، أتت كأن شيئاً ما حركها ودفعها للتأكد من ظنونها التي ولدت مؤخراً . أتت الخالة ودخلت حياة إلى غرفتها بعد رحيله، وقفت

أمام المرآة تتفحص تفاصيل وجهها وها هو إلى جانبها ينظر إليها ويبتسم.

ـــ إنه رجل وسيم حقاً، لا تخافي من مشاعرك تجاهه، تابعي. قال لها.

ـــ لكنه من عمر والدي وهو صديق خالتي.

ـــ أما بدأت تحبينه؟

ـــ لست أدري، ربما.

ـــ أعلم أنك بدأت، لا تخافي، هو أيضاً يعشقك . ألا تلاحظين كل تصرفاته معك؟ ألا تلاحظين نظر اته إليك؟ وأنا أيضاً ألاحظ نظراتك إليه، لا تستطيعان إخفاء الأمر عنّي.

ـــ وما رأيك؟

ـــ رأيي؟ اتبعي مشاعرك واتركي الأمور تجري....

ـــ إنْ تزوج من خالتي فسوف يؤلمني ذلك كثيراً.

ـــ ربما تركها من أجلك أنت.

هنا انتاب حياة شعوران متناقضان ؛ هي تحب خالتها وتريدها أن تت زوج، لكن لماذا جعلهما القدر تغرمان بشخص واحد؟ إنه في الواقع يناسب خالتها أكثر مما يناسبها هي: «إنه من جيل والدي».

ـــ السن لا علاقة لها بالحب . قال المبتسم كأنه سمع ما يدور في تفكير حياة.

ـ 37 ــ

لماذا كان المبتسم يشجعها على متابعة تلك التجربة؟ هل كان يعلم بما ستؤول إليه الأمور؟ هل كان يخطط لشيء ما؟

خلعت حياة ثياب المدرسة وفي العادة لم تكن تفعل ذلك إ لاّ للخلود إلى النوم . خلعت ثياب المدرسة،

أخرجت من الخزانة فستاناً جميلاً يبرز مفاتن جسدها الشاب والذي لا زال في طور التكون والاكتمال. ارتدت الفستان من دون أي تردد و نظرت إلى نفسها عبر المرآة، ثم حلت شعرها المعقود في أعلى رأسها، سرّحته ونشرت بعض مساحيق التجميل الخفيفة على وجهها وعادت إليهم، إليه.

حين رآها لم يتمالك نفسه وقال بكل عفوية متوجهاً إلى هند: «هل تلاحظين كم أن حياة تزداد جمالاً؟».

— هي دائماً جميلة صغيرتي حياة أجابت. لكنها لم تكن مسرورة إطلاقاً من الملاحظة.

كانت هند تجلس إلى جانب رائد . اتخذت حياة مكاناً لها قبالته وأخذا يتبادلان النظرات المعبرة . هي تحدق به بشكل واضح، وهو يسترق النظر إليها خائفاً من انكشاف أمره وبخاصة أمام هند التي كانت تحاول السيطرة على نفسها ك ي تظهر طبيعية . هل كان رائد يخطط لمغامرة ما مع حياة من دون أن يغير ذلك برنامجه مع الخالة؟ هذا ما فكرت به حياة في تلك

السهرة وقد استاءت جداً، فهي تحبه وتريده لها وحدها مما دفعها إلى القيام ببعض الحركات التي تحمل في طياتها بعضاً من المحن والإغراء، مما دفع هند إلى الاستعجال في الانصراف طالبة من رائد أن يرافقها إلى البيت لأنها أتت في سيارة عمومية.

— 38 —

خرجا معاً وتركا حياة تكظم غيظها الذي لم تجسر على إظهاره. لكن، بعد رحيلهما رفضت أن تساعد أمها في تنظيف الطاولة والأواني كالعادة مدعية أنها متعبة جداً وتريد النوم. دخلت غرفتها، كانت حزينة وغاضبة وثائرة ومهتاجة و ... وهي تردد : «إنه الآن معها سينساني وكل ما لاحظته ليس إلا من صنع خيالي وأوهامي، هو لا يحبني كإنسى بل يحبني كابنة صديقه أو ربما كابنته . أنا لا أريد هذا النوع من الحب، إنه

يحرك كل مشاعري ونظراته تبث الرعشة في جسدي. إنه العشق وليس الحب البريء . هو الآن معها يتبادلان القبل واللمسات والـ...

ــــ لا تخافي، سيعود، ثابري ولا تيأسي، ستنالين ما ترغبينه منه، قالها مبتسماً، سأجعل خالتك تموت من الغيرة، أنت تتفوقين عليها في كل المجالات، لن يصمد طويلاً معها.

ــــ لم يعرني انتباه اً ونحن على الطاولة، لم يبادلني النظرة كلما رنوت إليه، بل كان يقدم لها الطعام ويسايرها.

ــــ كلها مظاهر، سترين.

ـ 39 ــــ

في اليوم الثاني، حين عادت من المدرسة مع أبيها كانت تتمنى أن يأتي رائد ويمضي السهرة معهم من

دون أن ترافقه هند . لكنه أتى برفقة خالتها . لم تتحمل حياة رؤيتهما معاً، فتركتهم ودخلت غرفتها بحجة إتمام فروضها المدرسية. التجأت إلى غرفتها لتفكر بطريقة لتنفرد به وليس للفروض . ظهر المبتسم ومعه الحل : «افتحي كتاب الرياضيات وناديه لمساعدتك في حل مسألة صعبة».

دخل الغرفة مع حياة، جلس بالقرب منها محاولاً قراءة المسألة التي قدمتها له . هو يقرأ وهي تنظر إليه وتحلم بأن يضمها إليه ويقبلها . رفع رأسه عن كتاب الرياضيات، تأمل في وجهها، ابتسم وسألها:

ـــ أين ستمضون الصيف هذه السنة؟

ـــ في الضيعة، كالعادة . لكني ما عدت أحب الصعود إلى الجبل، أرغب في قضاء العطلة الصيفية على شاطئ البحر. سأقوم بالاشتراك في أحد المسابح لكن لست أدري أي واحد أختار . كانت تعلم أن رائد يملك شاليه في مجمّع الرمال.

ـــ لا داعٍ للاشتراكات، تعلمين جيداً أنني أملك شاليه كبيراً . لقد زرتموني هناك مرات عديدة، ولي الحق بدعوة من أشاء إلى المسبح . سأطلب لك بطاقة تستطيعين الدخول بها إلى المسبح ساعة تشائين.

«اقبلي من دون تردد». أسر لها المبتسم.

ـــ حقاً، كم أنت رائع.

ـــ إن أردت أعطيك مفتاح الشاليه . توقف قليلاً لأن هند أيضاً لديها مفتاح للشاليه وحياة تعلم ذلك. توقف قليلاً ثم تابع : خالتك ترتاد البحر بعد الظهر، بعد أن تعود من عملها، تستطيعين الاستفادة من الشاليه قبل الظهر وحتى بعد الظهر حين تأتي خالتك، لكن لا تخبريها أنني سأعطيك المفتاح.

ـــ لن أخبرها، طبعاً، كما أنك أنت لم تخبر والدي أنني أدخن، واحدة بواحدة، اتفقنا.

ـ 40 ـــ

غمرها الفرح وبدأت تفكر بكيفية إقناع والدها بعدم تمضية الصيف في الضيعة كالعادة . انتبه هو إلى أن مكوثهما معاً قد طال، فوقف واستأذن بالخروج . تركته يفعل وهي تقول ضاحكة : «شكراً لك على مساعدتي في حل المسألة الرياضية الصعبة ». ضمها إليه ضمة سريعة وانصرف . لكنها لحقت به وهي شبه منتشية فرحاً بهذا التواطؤ بينهما. جلس في مكانه وقال:

ــــ لقد اقترب الصيف، ماذا ستفعلون هذه السنة؟

ــــ الصيفية في الضيعة كالعادة، لا يعلو على مناخ ضيعتنا مناخ. قال والد حياة.

ــــ لا، أريد أن نبقى هنا هذه السنة ونمضي الصيف على شاطئ البحر، ضجرت من الضيعة، ليس لي فيها أي رفيقة، أرغب في الاستفادة من الشمس واكتساب اللون الجميل الذي أحسد رفيقاتي عليه و..

ــــ ثم إن الحياة في الجبل متعبة جداً، قالت الأم مقاطعة ابنتها وتابعت متوجهة إلى زوجها : ما رأيك لو جربنا، هذه السنة، البحر.

ـــ لا مانع لدي، لكن علينا تدبير الأمر باكراً وأن نستأجر شاليه أو كابين أو نشترك أو...

ـــ سنفعل، الأمر سهل، المهم هو القرار . أجابت الأم بفرح لأنها كانت دائماً ترافق زوجها إلى الضيعة مسايرة له وليس حباً بالضيعة.

ـــ تعلمون أنني أمتلك شاليه في الرمال . لدي بطاقتا دعوة مفتوحتان تتيحان لي دعوة من أشاء وباستطاعة من أدعوه أن يدعو بدوره من يشاء . بطاقة منهما م ع هند وسأعطي الثانية إلى حياة وينتهي الموضوع، لا اشتراكات ولا تعب البحث عن مكان آخر. تعرفون المسبح وأظن أنكم لا تمانعون.

استاءت هند من العرض وسارعت إلى القول : «أدعوهم أنا، لا ضرورة للبطاقة الثانية».

ـــ أنت تذهبين إلى العمل قبل الظهر وتعلمين جيداً أن قوانين المسبح تفرض وجود الداعي مع المدعوين. إن كان لديهم بطاقة خاصة يستطيعون دخول

المسبح على راحتهم، وأنت تكونين متحررة من الالتزام بهم. هكذا افضل على ما أظن.

ـــ لا حاجة لكل هذا الإزعاج، سنشترك في مسبح آخر وينتهي الموضوع، ما المشكلة؟ قال والد حياة.

ـــ لا إزعاج على الإطلاق، الأمر سهل جداً.

ـــ هذا المسبح هو أفضل مسابح المنطقة وهو قريب من البيت، ثم إن رفيقاتي في المدرسة كلهن يذهبن إليه. قالت حياة بوحي خاطف من المبتسم.

ـــ انتهى الموضوع، قال رائد، لا إزعاج ولا بلوط، غداً أُحضر البطاقة . ثم توجه إلى حياة وتابع : أعطني صورة شمسية.

ـــ 41 ـــ

انتهت المدرسة وبدأوا يترددون إلى البحر في مسبح الرمال، وحياة أصبحت مداومة بشكل مستمر

بحيث لم تعد تلازم البيت إلا أيام حيضها الذي كان مؤلماً. أحياناً كثيرة كانت تذهب وحدها في الصباح الباكر، لماذا؟ باكراً تكون معه من دون رقيب . يلتقيان، يسبحان قليلاً ثم يدخلان إلى الشاليه وهما بثياب السباحة، أي شبه عاريين، يقدم لها المشروب، يجلسها على ركبته ويبدأ في مداعبة شعرها ومن ثم ثدييها قبل أن يلتقي ثغراهما بقبلة تطول وتطول إلى أن تصبح حياة في شبه تلاشٍ كلي، وقبول كلي لكل ما سيتبع.

ـــ هل ما زلت عذراء؟ سألها يوماً.

ـــ ما هذا السؤال وكيف تجرؤ على طرحه؟

ـــ أعلم ذلك، صمت قليلاً ثم تابع: لن أؤذيك... لا تخافي... نستطيع أن نشبع شهوتنا وحبنا بطرق مختلفة وهي كثيرة.

اعتادت حياة على هذا النمط من العلاقة مع رائد وبدأت تكره خالتها ولا تطيق وجودها وهو يسايرها ويلبي رغباتها، إلا أنه لم يتمكن منها ولم يستطع أغراءها بعلاقة كاملة إلا بعد أن سهل الأمور أمامها

بقوله: «لا يحتاج الأمر إلا إلى قطبتين عند الطبيب وينتهي الموضوع وتعودين عذراء جاهزة للزواج . لي صديق، طبيب، مشهور في هذا المضمار». احتارت في أمرها، هل تقبل معه؟ «بكل تأكيد» أجابها المبتسم، حين سألته. لماذا شجعها وإلى أي هاوية يريد دفعها؟ لكنها لم ترضخ وظلت على موقفها . ورائد استمر معها معللاً النفس أنه سيصل إلى حيث يريد.

— 42 —

تعرَّف الأهلُ إلى أصحاب جدد في ذلك المسبح دعوهم يوماً إلى مشاركتهم الغداء. قبل أهل حياة الدعوة وكانت م وجهة إلى رائد وهند أيضاً . في ذلك اليوم حدثت أمور لم تستطع هند تحملها وهذا ما فجر الوضع. بعد أيام على الدعوة أتت هند إلى بيت أختها، كانت مصممة على طرح الموضوع وحله.

أحضرت أم حياة القهوة وجلست مع أختها في الصالون ولم يكن أحد غيرهما في البيت . نسيت هند القهوة، كانت شاردة تحضّر في ذهنها كيفية الدخول في الموضوع.

ـــ اشربي قهوتك قبل أن تبرد. قالت أم حياة.

ـــ هل يمكن ذلك؟ قالتها كأنها تخرج من حوار عميق مع ذاتها. رشفت قليلاً من القهوة وأختها تراقبها . ثم استدركت وقالت كأنها تجيب عن سؤال طرح عليها : «لا شيء، فقط بعض التعب والهموم العادية اليومية».

حين قالت ذلك شعرت، فعلاً، بالتعب وطلبت من أختها أن تسمح لها بالاستلقاء قليلاً علّها ترتاح . دخلا غرفة الضيوف، استلقت هند على السرير وأغمضت عينيها. جلست أم حياة على كنبة قبالتها وهي تتساءل عما يحدث لأختها. كانت تنظر إليها، لاحظت أن عيني هند مغمضتان بقوة وشفتيها مضغوطتان وجبينها معقود بتوتر: «إنها لا تنام ولا شك أنها تفكر بأمر ما يزعجها ولا تريد البوح به، أنا أختها وعلي مساعدتها».

ـــــ هل غفوت؟

ـــــ لا، لكني أحاول.

ـــــ ما بك ولماذا هذا التوتر البادي على وجهك؟

ـــــ مشكلتي أن كل شيء يظهر على وجه ي، حتى أتفه المشاكل التافهة. لا شيء يقلقني، إنه التعب فقط.

ـــــ هل تعبك هذا هو تعب جسدي؟

ـــــ يعني.

ـــــ إذاً تخبئين عني أمراً ما.

ـــــ آه لو تدرين، إني أخبئه حتى عن حالي، قالت بانفعال شديد ثم انفجرت بالبكاء.

نهضت أم حياة من مكانها وجلست على حافة السرير محاولة التخفيف عنها:

ـــــ لا شيء يستحق بكاءك، تكلمي وفرجي عن نفسك.

ـــ مش معقول، مش معقول.

ـــ شو في احكي.

ـــ شو بدي قول؟ صمتت قليلاً ثم تابعت بتقطع : تصرفات رائد وحياة مش عاجبتني.

ـــ حياة ابنتي؟

ـــ نعم. قالتها بمرارة.

ـــ شو يعني مش عاجبتك؟ هل تشكّين بعلاقة بينهما؟

ـــ ما في شي ثابت وأكيد في يدي، لكني مش مرتاحة.

ـــ عمر حياة ست عشرة سنة وعمره في الخمسين، يعني أنه من عمر أبيها، فماذا تتخيلين؟

ـــ إنه أكبر من زوجك. ماذا يريد منها؟

ـــ أرجوك هدئي أعصابك وتكلمي، ما عدت مراهقة، قولي ما عندك ولنحل الموضوع، لعلك على

خطأ، وأنا متأكدة أنك على خطأ . ه ل تغارين من طفلة؟ من حياة؟

ـــ أتمنى أن أكون على خطأ، لو صحت ظنوني فالضربة قاضية ... لا أملك برهاناً قاطعاً، لكن كل الأمور الصغيرة تدل على علاقة ما بينهما، حتى أنني أشعر أن حياة ما عادت تتحملني ولا تطيق وجودي ولا....

ـــ كيف تقولين ذلك؟ حياة تحبك وأحياناً أغار من حبها لك، ثم إن رائد يعاملها كابنته.

ـــ لماذا ذهبت حياة إلى البحر يوم دعونا أصحابنا إلى الغداء وهي لم تكن قادرة على السباحة بسبب حيضها كما تعلمين. ثم لماذا تأخر رائد في ملاقاتنا على البسين؟ لقد طلبت منه أن ينتظرنا قبل الساعة العاشرة ولم يأت قبل الساعة الثانية عشرة والنصف، أين كان؟ وتعلمين أننا بحثنا عنه في المسبح كله ولم نجده ولم نجد أيضاً حياة، فأين كانا؟ ألم تلاحظي أن مجيء حياة أتى مباشرة بعد مجيء رائد؟ وسمعته يقول لها : «إذاً عدت

البارحة في ساعة متأخرة إلى البيت ». من أين عرف ذلك لو لم يكن معها في مكان ما ونحن نبحث عنهما؟ ألم تلاحظي أن حياة رفضت مرافقتنا إلى الغداء بحجة أنها غير جائعة وأن رائد تردد هو أيضاً في مرافقتنا؟ ألم تلاحظي انفعالي حين قلت له : «اترك حياة مع أصحابها» وكيف أجابني أنه هو أيضاً من أصحابها؟ لم أتوقف عند إجابته وتابعت طريقي معكم ثم تبعنا وقال إنه سيمر على الشاليه ليستحم قبل موافاتنا. ألم تلاحظي أن حياة وصلت إلى حيث كنا بعد وصول رائد بقليل؟ فإن كانت غير جائعة كما ادعت، لماذا أتت؟

ـــ كل ذلك لعب أولاد، قالت أم حياة بعد صمت طويل، حقاً إنك ما تزالين مراهقة وتتصرفين كالأطفال.

ـــ طيب، حين هممنا بالخروج من عند الأصحاب ألم تلاحظي كيف كانت حياة تداعب شعر رائد بمحفظتها الصغيرة وكيف كانت تدوس على قدميه و...

ـــ أووف، إنها طفلة، وهو يتقبل منها كل صبيانيتها، أين المشكلة؟

ـــ سأتابع ؛ عندما غادرنا أصحابنا، حاولت أن أخرج قبلكما أنت وزوجك لأن رائد وحياة كانا قد سبقانا. لكن لسوء الحظ أو لحسنه لست أدري، حين وصلت بالقرب من المصعد تذكرت أنني نسيت منشفتي عند الأصحاب فعدت إلى حيث كنتم ما زلتم تتابعون حديث المجاملات الوداعية مع المضيفين .. أخذت المنشفة وعدت مسرعة باتجاه رائد وحياة . حينها رأيت منظراً لم يعجبني على الإطلاق، وحتى الآن حين أتذكره، يفور دمي من جديد.

ـــ وماذا رأيت؟ سألت الأم بقلق.

ـــ رأيت رائد وذراعه على كتفي حياة وهما في شبه عناق. عندما رآني سحب ذراعه عن كتفيها من دون أن يغير موقعه بالقرب منها وحاول الكلام بصوت عالٍ كأنه يتابع حديثاً معها . حينها كدت أنفجر، لكن قدومكما أسكتني وبخاصة وجود زوجك . كل ما فعلته هو أن أدرت وجهي نحو المصعد وتركتهما ورائي إلى أن وصلتما وغادرنا.

ــــ متأكدة أنت، أم أنك تتخيلين؟

ــــ بكل مرارة أقول إنني متأكدة ولا أتخيل .

وسأتابع لأخرج كل ما في قلبي : في تلك الليلة كنتِ قد دعوت بعض الأصحاب إلى تناول العشاء معكم في البيت وأتى رائد، ألم تلاحظي أنني لم أعره اهتماماً ولا حتى النظر إليه بينما كانت حياة مرحة تلازمه أينما جلس وتوجه كأنها تريد إفهامي أنه لها و...

ــــ أظن أنك تضخمين الأمور، فهو يعرفها منذ ولدت وكان دائماً يلاعبها ويرفعها بين ذراعيه ويرميها عالياً ويجلسها في حضنه ويقبلها و....

ــــ هذا مقبول حين كانت طفلة أما الآن فهو غير مقبول على الإطلاق، وسأتابع : دخلت في تلك السهرة مرة إلى الحمام وحين خرجت منه وجدت رائد وحياة يتكلمان بصوت منخفض، ثم استأذن رائد وغادر، حتى من دون أن يستودعنا، انصرف بسرعة من دون أن نعلم لماذا.

ــــ ربما لاحظ عدم اهتمامك به، لكن تابعي، فأنا حتى الآن لم أقتنع بشكوكك. لكنها أصرت على المتابعة لأن بعض الشكوك بدأت تنبت في رأسها.

ــــ هل اتصل بكم رائد هاتفياً في ذلك اليوم؟

ــــ نعم، لقد اتصل مرتين.

ــــ من تكلم معه؟

ــــ أول مرة حياة.

ــــ ثم سبقتكم إلى البحر ، أليس كذلك؟ لقد اتفق معها، أنا متأكدة. أين كانا ساعة وصولنا؟ ألا يشكل كل ذلك دليلاً على صحة شكوكي؟ثم ألم تلاحظي كيف أن حياة أصبحت تتجنب النظر إلي، هي التي كانت تظل في حضني؟

كانت الأم تلاحظ، لكنها لم ترد أن تفسر الأمور بأبعد من السلوك العادي وقالت:

ـــ أرى أنك تضخمين الأمور، فحياة تحبك جداً كما قلت لك وقد قالت، إنك كنت مستاءة يوم الدعوة تلك لأن رائد قال أمام الأصحاب إنه كان متزوجاً.

ـــ وهذا دليل آخر على تواطئهما.

ـــ كيف؟

ـــ في اليوم التالي سألني رائد لماذا كنت مستاءة وتابع: هل غضبت لأنني صرحت بأنني كنت متزوجاً؟ كيف وجدا السبب نفسه لاستيائي إن لم يكونا اتفقا على ذلك؟ وأكثر من ذلك، فهو لم يقل لي إنه اتصل بكم في ذلك اليوم حين سألته عن الأمر .كيف تريدينني أن أفسر وأقبل كل تلك الأكاذيب؟ أتحسبينني مسرورة باكتشاف كل هذا؟ ثم لماذا إصرار حياة على ذلك المسبح دون سواه، لماذا أعطاها رائد البطاقة لماذا .؟.. ألا يشكل كل هذا دليلاً؟ ونظراتهما وهمسهما و ... ما عدت أتحمل فليتركني وليخرج من حياتي. منذ سنة تقريباً وأنا ألاحظ أموراً، كنت في البداية لا أهتم لها، أما الآن فما عاد

باستطاعتي التحمل. حين كنا نذهب إلى الشاليه كانت حياة تصر على مرافقتنا والمكوث معنا كل الوقت. كنت في البداية ألاطفها إلى أن طفح الكيل. من يدري إن كانا يلتقيان كل يوم قبل الظهر ومن يدري ماذا يفعلان. على كل حال بدأت أسمع لغطاً في المسبح حول الموضوع.

ـــ لا، لا أسمح لك بهذا الكلام، فحياة فتاة مهذبة ولا تتصرف كما تظنين.

ـــ مهذبة، أعلم ذلك، لكن الأمور، أحياناً تفلت من أيدينا. المهم هو أنني لست مرتاحة وأردت أن ألفت نظرك لأن ما ألاحظه يسيء إلى حياة أكثر مما يسيء لي. تذكري أنه أكبر سناً من أبيها.

ـــ أين ذهبت ظنونك؟ إنها ما زالت طفلة و...

ـــ إن كانت لا تزال طفلة كما تدعين فلتعاشر الأطفال من سنها ولتتركنا بأمان. لكنها ما عادت طفلة، هي في السادسة عشرة من عمرها وهو فوق الخمسين وهما عمران يلتقيان جداً في موضوع الغرام والعشق . هي تحاول أن تبحث في لاوعيها عن صورة الأب

فوجدتها في رائد ولهذا السبب بدأت بإغوائه . ولا أظن أن رجلاً في سن رائد لا تدغدغه تلك الإغراءات التي تقوم بها حياة، فهو حتماً يستجيب ويرغب في مغامرة مع فتاة في هذا العمر وبخاصة أنها هي التي ترمي بحالها عليه. صمتت قليلاً ثم قالت : أما الآن وقد صار لديك كل المعلومات، دعيني أنصرف إلى بيتي لأرتاح.

— 43 —

رحلت هند وبقيت الأم غارقة في ذاتها تفكر بما سمعت وهي تنتظر قدوم حياة . كانت الشكوك تعج في رأسها. هي أيضاً لاحظت بعضاً مما قالته هند، لكنها حتى الآن كانت تحاول أن تتعامى عنها . أما بعد أن سمعت ما سمعته فما عادت تستطيع التعامي . ستكلم حياة وستكلم رائد . عليه أن يتزوج بهند ويحسم

الموضوع. كانت تريد أن تعالج الأمور من دون أن يعلم بها زوجها.

عادت حياة إلى البيت متأخرة وقد سبقها والدها إليه وهو جالس مع زوجته ينتظرانها . لكن كل منهما كان ينتظرها لغرض. هو ليطمئن إلى عودتها بالسلامة وهي لتفاتحها بأمر رائد، لكنها ظلت صامتة إلى أن أوى الأب إلى النوم ودخلت حياة إلى غرفتها.

دخلت حياة إلى غرفتها كالعادة كي تجالسه وتسمع نصائحه. تمددت على السرير وجلس بالقرب منها.

ــــ تصرفات أمي لا تعجبني ووجهها متجهم كأنها تخفي أمراً ما.

ــــ إنها تحدس بما بينكما.

ــــ وماذا أفعل؟

ــــ إن سألتْك، تنكرين بكل بساطة وتتابعين لقاءاتك به وبخاصة أنك الآن تتمتعين معه بشكل شبه كامل. تابعي، سيتزوج بك حتماً.

ــــ أصبحت الأمور معقدة . لا أدري كيف سأعالجها بعد أن تورطت بأبعد مما كنت أريد . لكنه يحبني فعلاً وسيترك خالتي من أجلي . لكن هل يحبني فعلاً أو أنه يتسلى معي كما تقول لي إحدى صديقاتي؟

ــــ إنه يحبك فعلاً وإلا لما عمق علاقته بك على هذا الشكل ونسي خالتك.

ــ 44 ــــ

دخلت عليها أمها وهي تقول : «لا تنامي، أريد أن أكلمك بموضوع مهم». عرفت حياة بماذا ستكلمها أمها، لكنها حاولت أن تَظهر مفاجأة وسألت أمها من دون تردد: «ما الأمر؟ أمن شيء يزعجك؟ أخبريني».

ـــ نعم، هنا ك أمر يزعجني ويزعجني جداً وسأذهب مباشرة إلى صلب الموضوع : ما علاقتك برائد؟

ـــ «عمو» رائد؟ ماذا تقصدين؟ إنه كأبي و...

ـــ عليه إذاً أن يتزوج بهند، لأنها مستاءة جداً من تسويفاته التي ما عادت تجد لها مبرراً.

أخفت حياة غضبها وقالت : «هو حر ولا نستطيع إرغامه على القيام بأي شيء، ثم لو أنه يحبها فعلاً لكان أقدم على الزواج لكني لا أظنه يحبها كما تعتقد».

ـــ وما أدراك أنت؟ هل صرح لك بذلك؟ على كل حال لن تذهبي وحدك إلى البحر بعد اليوم، تذهبين حين أستطيع مرافقتك فقط ولا أريد نقاشاً في الموضوع.

قالت ذلك وانصرفت تاركة حياة لغضبها الذي لم يتمكن المبتسم من تهدئته . لكنه أقنعها بضرورة إعلام رائد بالأمر كي يسرع ويتزوج بها . سيرغم على ذلك، لقد أعطته نفسها وكل حبها ولا يجوز أن يتركها.

— 45 —

في أول لقاء بين الأم ورائد سألته:

— أين أصبحت مع هند؟ أما حان الوقت لنفرح منكما بعد؟

— لمَ العجلة؟ لدينا كل الوقت.

— لا، الوقت يمر وبدأت الناس تلوك الأخبار و... إن كنت مصمماً على الزواج، فما المانع من القيام به بسرعة؟ وضعك جيد ولديك بيت وشاليه وكل ما هو مطلوب لهذه الخطوة.

ـــ لكني مضطر إلى السفر، لقد عرض علي عمل في قطر.

ـــ ممتاز، تتزوجان وترحلان معاً.

ـــ أفضل أن أستطلع الوضع أولاً ثم أعود ونتزوج.

فهمت الأم أنه يتهرب، صمتت قليلاً ثم تابعت:

ـــ مجيئك باستمرار إلى بيتنا أصبح... إن لم... إن لم تكن مصمماً على الزواج بأختي، فمن الأفضل أن...

ـــ فهمت. دعيني أفكر. قال ذلك وانصرف.

لم تعلم حياة بما دار بين أمها و رائد، لكن هذا الأخير التقى بها خارج البيت وأبلغها أن أفضل طريقة للزواج بها هو أن تسافر معه إلى خارج البلاد لأنه مضطر إلى السفر.

ـــ لماذا لم تخبرني من قبل أنك ستغادر البلاد ولماذا نبتت هذه السفرة الآن؟

ـــ عرض علي عمل مغرٍ في إحدى الدول العربية ولا أستطيع رفضه، أعرف أنك لا تجرؤين على

القيام بما أطلبه منك الآن، ولهذا السبب سأسافر وحدي وتلحقين بي بعد أن تنهي دراستك الثانوية، أي في نهاية السنة القادمة، الوقت سيمر بسرعة، سأبقى على اتصال بك من هناك و..

ـــ لا تكمل، قالتها وانفجرت بالبكاء لأنها أدركت أنه يتهرب منها . «إنك نذل، نذل، أنا متأكدة أنك قلت الكلام إياه إلى خالتي أيضاً لتتخلص من الاثنتين في وقت واحد».

ـــ لو قلت ذلك لهند لكانت رافقتني في سفري . لم أبلغها، سأرحل من دون أن أعلمها. وإلى أن يحين موعد سفري وهو قريب لن أزوركم في البيت، سنلتقي في الشاليه و...

ـــ لا تكمل . لقد فهمت كل شيء . اغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك بعد الآن.

ـــ سأوصلك إلى البيت.

ـــ لا أريد، اتركني وأنا سأتدبر أمري.

ــــ كما تريدين، سأتركك لأنك الآن مستاءة، لكن فكري بما قلته لك.

ـ 46 ــ

تركها ورحل. رحل وشعرت أنها تهبط في هاوية بلا قاع، وبدأت تلوم نفسها وتتساءل ماذا سيحل بها هي التي وثقت به وتركته يعبث بجسدها ويشبع به شهواته «لكن الحمد لله أنني لم أستسلم له كما كان يريد، كيف جرؤ على ذلك؟ الكلب ! يا للفضيحة لو فعلت، لكني فهمت قصده حين سهل الأمور أمامي وكلمني عن الطبيب صديقه. كم كنت غبية لو سمعت نصيحة المبتسم الذي كان يشجعني».

كل تلك الأسئلة كانت تدور في رأسها وهي متوجهة إلى البيت. وللمرة الأولى كانت وحدها من دون

أن يحضر المبتسم الذي تركها لعذابها إلى أن أوت إلى فراشها في تلك الليلة من دون أن تكلم أحداً مدعية أنها تعاني من صداع أليم . لكنها لم تستطع النوم واستدعت ظلهاا الذي استغربت عدم حضوره كالعادة من دون دعوة. أتاها خجلاً، لكنه مبتسماً . أمسكته من كتفيه وأخذت توبخه: «لماذا شجعتني على الاستسلام له؟ ها هو الآن يتركني ويهرب، لو سمعت كلامك لتركني أتحمل وحدي الفضيحة . ماذا كنت سأفعل الآن؟ . لماذا دفعتني دفعاً إلى أحضانه؟ أما كنت تعلم بنواياه؟ لماذا لم تردعني عن قبول مداعباته التي تخطت الحدود وأنت تعرف أنه سيتركني؟».

— من أين لي أن أعلم؟ لكنه كان يعلم وما تشجيعه لحياة إلا لكي يوصلها إلى حيث هي الآن، كان يرغب في أن تغرق قي اليأس وتهبط بين ذراعيه لأنها لن تكون، مهما طال الزمن لسواه.

— 47 —

بالفعل رحل رائد تاركاً الخالة وحياة معاً . هند شتمته وأفرغت حقدها علية بالكلام والشتائم، أما حياة فلم تقل كلمة واحدة، انزوت على نفسها وأخذت تغرق في اليأس لأنها وعلى الرغم مما فعله معها كانت قد أحبته فعلاً. لقد كان أول حب في حياتها. أصبحت تخرج كل يوم إلى شاطئ البحر، لتجلس وحدها وتفكر بما حدث بينها وبين رائد وتغرق في الخيبة . لكنه لم يتركها لحالها. كلما خلت لذاتها كان قبالتها وهو يبتسم، طبعاً.

— لماذا تركني ورحل؟ ماذا سأفعل بعده؟ ماذا سأفعل بعد أن منحته كل حبي وأملي و ...؟ لقد حطم قلبي وجسدي. كيف أستمر في العيش بعد هذه الخيبة؟ لن أقدر على الحب من بعده، ثم لماذا الحب وما معنى هذه الحياة؟ إنها حقاً سخيفة ولا تستأهل أن نعيشها.

انتعش الظل لسماعها وقال : «الحياة كلها هكذا يا عزيزتي، كلها خيبات ولا تستأهل أن تُعاش فعلاً. أفضل حل هو أن نتخلّص منها. أن نقهرها ونرتاح».

ـــ ما العمل؟

لم يجبها بل دعاها إلى السير معه . سارا معاً إلى أن وصلا فوق صخرة عالية جداً تشرف مباشرة على البحر. وقفت حياة على حافة الصخرة ووقف بالقرب منها. أمام هذا المنظر الرائع نسيت حياة ظلها واستغرقت في تأمل ذلك الأزرق المنبسط أمامها . انتبه أن حياة ما عادت تراه، فقفز إلى الماء حيث اختفى للحظة ثم ظهر . رأته وأخذت تتأمل وجهه المبتسم . سمرت نظرها عليه . أخذ الوجه يكبر ويكبر إلى أن احتل المساحة كلها . أصبح البحر من تحتها وجهاً مبتسماً، تلك الابتسامة التي لا تستطيع مقاومتها . همت بالقفز، لكن سرعان ما تحول ا لوجه المبتسم إلى وجه رائد وتحولت الابتسامة الساحرة إلى ابتسامة شامتة لئيمة. توقفت عن القفز وهي تردد: «لن أذهب إليك أيها

الخائن». رجعت إلى الوراء وتسمرت مكانها إلى أن رأته بالقرب منها . عاد إليها وهو مدرك أن الوقت لم يحن بعد، فهو يريدها أن تأتيه من دون مقاوم ة، يريدها أن ترنساب فيه كما ينساب النعاس في جسد منهك . لم تنضج بعد للتمتع بها.

جلس بالقرب منها، قدم لها سيجارة وقال : «إنسي رائد، أنت في بداية الطريق، اتكلي علي، ستحظين بأفضل منه، أما الآن فدخني سيجارة، إنها وحدها فارجة الهموم».

بالفعل أصبحت السيجارة رفيقة حياة الدائمة، وإن نسيتها مرة، استعجل في تقديمها لها . يقدم لها المتعة الآنية وينتظر بصبر النتيجة . لن يستعجل الأمور فالنتيجة مضمونة وإن تأخرت.

— 48 —

بعد مرور أشهر قليلة على رحيل رائد، نسيت حياة فكرة الانتحار وبدأت تتقبل الحياة من جديد . أنهت المرحلة الثانوية و أصبحت شابة جميلة ومحط أنظار الأصحاب والأقارب. كل من كان لديه ابن في مثل سنها أو أكبر منها بقليل، بات يطمح بأن يزوجه بها . كانوا يستمزجون أمها بالموضوع أحياناً تلميحاً وأحياناً تصريحاً، وهي تجيبهم بكل فخر واعتزاز : «هي تختار من تريد، لا أحد يزوج أحداً في أيام نا هذه». إلى أن أتاها أحد أقاربهم والذي كان صديقاً للعائلة:

ـــ ما رأيك لو زوجنا ابني عماد من حياة. سينهي الجامعة هذه السنة ويتخرج طبيباً . نزوجهما ويسافران معاً كي يتابع تخصصه في أميركا أو فرنسا أو...؟

ـــ الرأي هو رأي حياة، سأسألها . من جهتي لا مانع لدي، عماد شاب جيد و...

ـــ تعرفين أن حالتنا المادية ممتازة، وابنتك ستكون مدللة وسنحبها كما نحب حبيب قلبي ووحيدي

عماد. إن كنت موافقة على العرض فباستطاعتك إقناع حياة به.

— سأحاول. أجابت وهي تتمنى أن تقبل حياة بعماد زوجاً لها.

— 49 —

لم تكن المحاولة صعبة . اقتنعت حياة بسرعة وساعدها في ذلك ظلها وخالتها التي نشأ بينها وبين حياة نوع من التواطؤ بعد رحيل رائد . جمعتهما المصيبة الواحدة. لكن هند لعنت الزواج وصممت أن تعيش وحدها حرة من كل قيد أو التزام إلاّ من حبها لأختها وأولادها. شجعت حياة على الزواج من عماد : «هذا شاب يليق بك وليس ذلك الوغد الذي كان من عمر أبيك». وشجعها المبتسم قائلاً:

ـــ هذا الشاب أو غيره، ما الفرق؟ كلهم متساوون، والزواج هو هو مهما تنوعت أشكاله . قال ذلك لحياة وهو يعتقد أن الزواج بداية النهاية وأمنيته أن تبدأ تلك النهاية بأسرع ما يمكن.

ـــ أقبل بعماد. أجابت أمها بعد أيام قليلة.

فرحت الأم بطواعية ونضج ابنتها لأن لعماد مستقبلاً جيداً . فما إن ينهي تخصصه في الطب حتى يفتح له والده عيادة فخمة ويدخله، بواسطة نفوذه، أهم المستشفيات. إنه فعلاً العريس المناسب . أما حياة، من جهتها، فلم تقبل بعماد لكل تلك المقومات التي تدخل في حسابات أمها، بل لأن شخصيته هي النقيض التام لشخصية رائد وقد اعتقدت أنها بواسطته ستنسى نهائياً حبها الأول الذي كانت ما تزال تعاني من خيباته..

ـ 50 ـــ

لم يطل الأمر إذ تمت الخطوبة بسرعة وتبعها الزواج حيث أقيم حفل استقبال كبير تألقت فيه حياة بكل جمالها وأناقتها وشبابها. نسيت كلياً ظلها خلال الحفلة، لم تره وهو لم يتطفل ويفرض نفسه . صبر لأنه يعلم أن لكل شيء نهاية . انتهت الحفلة وذهب العروسان إلى الفندق لتمضية الليلة قبل سفرهما في رحلة شهر العسل.

فتح عماد باب الغرفة، حمل حياة بين ذراعيه ودخلا، وضعها على السرير وهو يقبلها، ثم أخذ يعريها ويتعرى هو أيضاً إلى أن أصبحا جسدين عاريين متلاصقين.

يبدو أن المبتسم لم يعد باستطاعته التحمل أكثر، وما كاد عماد يحاول الدخول في حياة حتى ظهر هو على الشاشة واحتل كل المساحة بشكل لم تعد ترى حياة سواه. ملأ نظرها لدرجة أنها ما عادت تعرف إن كان عماد هو الذي يفترعها أم أنه المبتسم. صرخت من الألم وتوقف عماد قليلاً ثم عاد إلى العمل يرافقه المبتسم إلى أن تمت العملية التي حولت حياة إلى إنسى . لقد فتح

الباب الذي سيدخل منه المبتسم ساعة يشاء من دون اعتراض أو أعذار . أصبح الخط سالكاً لإغواء حياة ودفعها إلى إشبلع كل شهوانيتها.

ذهبا في شهر العسل وذهب معهما . يغيب طول الوقت عنهما ولا يحضر إلا وقت ممارسة الحب بينهما. يحضر وتختلط صورته بصورة الأب وبصورة عماد وبصورة رائد. تختلط الصور في رأس حياة لدرجة أنها لا تعود تعرف مع من منها تمارس الجنس . تختلط الأمور في رأسها وعم اد جاد في عمله محاولاً إيصال حياة إلى النشوة التي لم تتحقق دائماً . من جهته هو كان ينتشي في كل مرة، ويغط في نوم عميق . أما هي فتبقى لوقت طويل مستيقظة تحاول ترتيب أفكارها ومشاعرها وغالباً ما كانت تغط في النوم قبل أن تحل أياً من الإشكالات التي كان المبتسم يساع دها في طرحها حول ممارسة الحب والإشباع والنشوة وغيرها.

بين هلالين

حين انتهيت من كتابة القسم الأول انتابتني رهبة من المتابعة، فتوقفت لفترة عاودت بعدها المحاولة . لكن القلم حرن ولم يستجب لرغبتي . حاولت مرات عديدة وهو على صموده لا يتزحزح، نشف نهائياً . رميته من يدي واستسلمت لمعاندته لكني عشت في دوامة من المحاولات والفشل ؛ كلما حملت القلم وقاربت الورقة البيضاء راودتني رغبة في الهروب، فأختلق الأعذار

لنفسي وأترك الكتابة إلى اهتمامات أخرى بعيدة كل البعد عن كل ما له علاقة بها وأتلهى هكذا كل النهار وأفتعل تنظيم ا لسهرات مع الأصحاب، كل ذلك لأن قلمي ما عاد يلبي رغبتي . لكن في المساء، وكل مساء، عندما كنت آوي إلى فراشي كانت تعج الأفكار في رأسي وتنبسط أحداث الرواية أمامي وأغفو وكلي ثقة أنني في الصباح سأتابع العمل . يأتي الصباح وتتبخر الأفكار تاركة مكانها رغبة عارمة بالهرو ب. أهرب والقلق يفتك بكل كياني . كل يوم أقول : «غداً سأتابع». لكن هذا الغد لم يأت . صحيح أنه «كتب على ظهورنا : غداً».

بعد فترة الهروب هذا، نسيت الرواية وأخذت أبحث عن أسباب القلم الحرون . الرؤية جاهزة في رأسي وعبثاً التمكن من تدوينها، لماذا؟ استعرضت جميع الأسباب المقنعة وغير المقنعة فلم أجد سبباً واحداً لذلك الهروب سوى متعة الكسل التي كلما طال أمدها كلما قويت واستبدت. لكن هذا العذر لم يقنعني كلياً لأنني

لم أمارس الكسل في كل الأمور، بل على العكس كنت أبذل جهوداً كبيرة في مجالات أخرى ولا أتعب . وظل السؤال: لماذا الهروب فقط من الكتابة؟ هنا طرحت على نفسي أسئلة عديدة حول موضوعة الكتابة ؛ الذكورية منها والإنسوية وما إلى ذلك مما كنت قد عالجته في دراسات سابقة، حتى أنه تبادر إلى ذهني السؤال حول جدوى الكتابة ذاتها ؛ لماذا نكتب ولمن نكتب وماذا نكتب و .... أسئلة وأسئلة تدور في رأ سي ليلاً نهاراً والقلم ينظر إلي ويبتسم بشماتة هازئاً مني ومن تساؤلاتي، صامداً في عناده وحرونه.

مرت أسابيع وأنا على هذه الحال حتى أن النوم الذي كان ملجئي الممتع للهروب قد جافاني وبدأت أقضي لياليَ بكاملها من دون نوم. في إحدى ليالي الأرق تلك فاجأني صوت إنسى يقول: «ألا تعلمين لماذا توقفت عن الكتابة؟ الأمر بسيط جداً وهو أن دورك كراوية قد انتهى». ذعرت من كلامها وبحثت عن مصدر الصوت وإذ بي أراها تنظر إليّ وتبتسم كأنها تتحداني. خفت حقاً

من قولها وتلعثم لساني وأنا أسألها : «من أنت وماذا تقصدين بقولك أنني أصبحت عاجزة عن الكتابة؟ »

ضحكت بصوت عالٍ وتابعت : «تعرفينني جيداً، لن أتركك ترسمين سيرة حياتي كما تريدين، لقد لزمت الصمت حتى الآن وأنا أراقبك من دون تدخل، لكنك ابتعدت عن الحقيقة ولهذا السبب سآخذ دورك، سأكتب سيرة حياتي كما كانت فعلاً وليس كما ترسمينها لي.سأبدأ بتصحيح بعض الأخطاء ثم أتابع، اسمحي لي بالقلم».

كان طلبها أمراً ووجدت نفسي أسلم القلم إلى حياة وأتحول إلى مراقب فقط.

تصويب

في القسم الأول من هذه الرواية والذي أتى على لسان الراوية أحداث كثيرة كانت صحيحة، لكن هناك أموراً لم تكن تطابق الواقع . أعتبر أن كل ما يتعلق بالطفولة هو مقبول لأنني لا أذكره، أما كل ما يتصل منها بمرحلة الدراسة وبخاصة مرحلة المراهقة، فهو

يرزح تحت وطأة الإسقاطات إن لم أقل الكذب . كل ما كنت أقوم به من أعمال تخريبية تجاه نفسي وتجاه الغير في فترة الحضانة والدراسة الأولى بإشارة طبعاً من أناي الآخر والذي جعلتني الراوية أناديه المبتسم، كان يعود إلى رغبة عميقة عندي بالعودة إلى البيت والبحث عن الأمان الذي كنت أفتقده في الخارج . الآن وبعد التحليل أجد أن السبب كان هذا تحديداً . لكن في حينه ما كنت مدركة لذلك ولهذا السبب لن أناقش الراوية في ما أوردت من تحليلات وإسقاطات على سلوكي.

أما مرحلة المراهقة فأذكرها جيداً وتحتمل الكثير من التصويبات وهي تصويبات أساسية : أغرمت برائد وصديقي المبتسم لم يمانع، بل شجعني ودفعني دفعاً إلى أحضانه، أغرمت به حتى الجنون وهو أغرم بي بعد أن كان مغرماً بخالتي هند؛ ولا أدري لماذا تكتمت الر اوية عما حدث فعلاً بيننا . هل تكتمت أو أنها حولت الواقع لكي ينسجم مع أخلاقياتها وحساباتها التربوية التقليدية؟

المهم هو أنها لم تُصدق في ما روت ولن أحاكم نواياها لكني سأعود إلى نصها لتصحيحه وفقاً لواقع الحال:

في تلك المرحلة حين أغرمت برائد، وفي ذلك الصيف بالتحديد حين أعطاني مفتاح الشاليه على البحر تجاوزنا ما أخبرته الراوية وتخطت علاقتنا حدود القبل المثيرة وممارسة الجنس بالطريقة التي روتها. كان ذلك يوم الأحد الذي ذكرته الراوية حين أتيت باكراً إلى البحر. يومها ذهبت مباشرة إلى الشاليه حيث كان رائد ينتظرني كما اتفقنا حين اتصل بي صباحاً . لكننا لم نمكث في الشاليه بل أخذني إلى شاليه أخرى تعود لأحد أصدقائه. هناك قبلني بشهوانية كبيرة وأثار كل جسدي، ثم عراني وأخذ يداعب جسدي في أماكن معينة حتى انتشيت. وفي تلك اللحظة اختلطت صورة رائد بصورة المبتسم، أصبحا وجهاً واحداً . بعد ذلك أراد أن يمارس الجنس معي بشكل كامل وهو يطمئنني أننا سوف نتزوج. رفضت، فاقتنع ومارسنا ما كنا نمارسه سابقاً . لكن حين أفرغ سائله على أسفل بطني شعرت بإثارة

عارمة واستسلمت لمداعباته وحصل ما كنت قد رفضت حصوله بداية. دخلني ومزق عذريتي وأفرغ في داخلي. كنت كل ذلك الوقت أرى المبتسم في المرآة إلى جانب السرير وهو شبه منتشٍ من الفرح . حين انتهينا غسلت الدم الذي سال مني وارتديت ثيابي واضعة لفة من الكلينكس بين فخذي . بعد وقت قصير عدت إلى ذاتي وندمت على ما فعلت واجتاحتني موجة من الغضب العارم، لكنه هدأني وكرر وعوده لي بالز واج وبأننا سنكون سعيدين جداً و ... حين انتبهنا إلى الوقت كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة، فسارعنا إلى النزول إلى شاطئ البحر حيث كانوا بانتظارنا.

ألم تلاحظ الراوية النبيهة أنني لم أكن مرتدية ثياب البحر؟ ألم تتساءل لماذا؟ مع أن خالتي سألتني لماذا لم أرتد المايوه وأجبتها، على مسمع الراوية بأنني مريضة وردت خالتي بعصبية : «هل من الضروري أن تأتي إلى البحر إن كنت مريضة؟».

لا أروي هذه الحادثة عبثاً، أرويها لأنها مرتبطة بحادثة أخرى وصفتها الراوية من دون أن تفهم دواعيها وعللتها بشكل غير مقنع تماماً، وهي محاولة الانتحار والعدول عنها. حين ذهبت إلى شاطئ البحر في ذلك اليوم بعد رحيل رائد، لم أكن يائسة من خيبة الحب بل كنت ساخطة على رائد ويائسة من الحياة بسبب الفضيحة التي زرعها في بطني.

بعد رحيل رائد بأسبوعين، انتظرت العادة الشهرية، لم تأت. ذعرت وانطويت على ذاتي أتساءل كيف ينبغي علي أن أتصرف وكيف ستكون حياتي إذا اكتشف أمري. اسودت الدنيا في وجهي وغرقت في اليأس وأصبح المبتسم يرافقني أينما كنت، حتى لو كنت مع آخرين. أصبح ماثلاً أمامي ويرقد إلى جانبي في السرير. ظل فترة صامتاً لا يتكلم. لكنني في إحدى الليالي انفجرت بالبكاء، فضمني بين ذراعيه ووشوش في أذني: «لا تخافي سنجد الحل».

في اليوم التالي ذهبت برفقته إلى شاطئ البحر، وهنا حدث ما تكلمت عنه الراوية . سبقني إلى الصخرة العالية ولحقت به . وقفنا على حافتها، أدار وجهي نحو وجهه وقال : «سنرمي بنفسينا في البحر وينتهي كل شيء».

ـــ أليس من طريقة ثانية للخروج من هذه الورطة؟

ـــ كل الطرائق الأخرى ستؤدي إلى فضيحة لا تتحملينها، ثم إنك ستظلين من دون زواج بعد أن يعرف الناس بأمرك، من الأفضل أن تدفني سرك معك . لا تخافي سأقفز قبلك وأتلقاك بين ذراعي ونرحل معاً.

لم ينتظر جوابي، قفز، اختفى للحظة تحت الماء ثم ظهر وجهه وشعّت تلك الابتسامة الساحرة التي أعجز عن مقاومتها. هممت بالقفز وإذ بي أسمع صوت خالتي هند يناديني ويقول : «انتبهي سيقتلك رائد مرتين ». تسمرت مكاني والتفتّ إلى الوراء، لكني لم أجد أحداً . استدرت من جديد نحو البحر وإذ بي أرى وجه رائد

وهو يقهقه بشماتة. ملأ الفضاءَ صوت ضحكه، ما عدت أسمع غيره. أقفلت أذني بيدي وتجمدت مكاني ولست أدري بأي آلية قررت عدم الاستجابة للمبتسم الذي ما إن أخذت هذا القرار حتى حضر إلى جانبي وهو يقول : «أفهم خوفك، لكن في المرة الثانية ستكونين أكثر شجاعة».

عدنا معاً إلى البيت، لكنني أهملته وطلبت منه الابتعاد عني لأنني قادرة على تدبير أموري وحدي. لم يعاند، انسحب وتركني أتخبط بأفكاري السوداء. كان فقط ينظر إلي ويبتسم من دون كلام كأنه يعلم بما سأقوم به. لكن ماذا سأفعل والأيام تمر والفضيحة لا بد آتية؟ كنت أتساءل لماذا أنقذتني خالتي من الانتحار؟ لا بد أنها تعرف شيئاً ما، لماذا لا أفاتحها بالموضوع؟ فإن أنقذتني من الانتحار فهي حتماً ستساعدني في حل مشكلتي. ترددت أياماً عديدة قبل أن أقرر البوح لها بكل ما حصل بيني وبين رائد. زرتها في إحدى الأمسيات وكانت وحدها في البيت. استغربت، بداية، زيارتي لكني

شعرت أنه ا حدست بما جئت من أجله   . رحبت بي وتابعت: «سنتناول العشاء معاً». لقد أدركتْ أن الجلسة ستطول.

دخلتْ المطبخ وأحضرتْ بسرعة عشاءً خفيفاً أتت به على صينية إلى الصالون.

ـــ هل عندك كحول؟ سألتها.

استغربت الأمر لكنها سألتني بدورها   : «ماذا تفضلين؟».

ـــ أي شيء.

لم تتردد و قدمت لي كأساً من الوسكي، جلست بالقرب مني وصمتت. بدأت بالشرب بشكل نهم من دون أكل. لم تقل كلمة واحدة، كانت فقط تنظر إلي وتراقبني. بعد دقائق غير قليلة قالت:

ـــ هيا، كلي.

ـــ لست جائعة. قلتها وانفجرت بالبكاء.

ضمتني إلى صدرها وهي تقول بصوت منخفض : «ما المشكلة؟ تكلمي، هل أنت على خلاف مع أمك؟».

لم أجب، كان صوتي يختنق من البكاء . أبعدتني عنها، مسحت دموعي وسألت من جديد : «لماذا هذا الحزن؟ هل أصيب أحد بمكروه؟ هل...

ـــ لا، المشكلة عندي أنا.

ـــ هيا، أخبريني.

ـــ أنا حامل.

لطمت وجهها وصرخت : «ماذا تقولين؟ تجرأ عليك أيضاً هذا النذل ؟». صمتت قليلاً ثم تابعت : «هل أنت متأكدة؟ ربما هناك خطأ ما، ربما...

ـــ لا أدري، لكنني شبه متأكدة لأن العادة الشهرية لم تأت هذا الشهر والآن قد مر على تاريخها أكثر من أسبوعين.

صمتت وهي تهز برأسها ثم قالت : «علينا التأكد أولاً». وأخبرتني بدورها أنها أجهضت مرة و هي

تعرف طبيباً تثق به وتابعت : «نزوره أولاً لنتأكد من الحمل ثم نفكر بالموضوع».

ـــ نفكر؟ يجب أن أجهض بأسرع وقت.
ـــ طبعاً، طبعاً.

لم تضف شيئاً. ضمتني إليها من جديد فيما شعرتُ بأنني أرمي بحملي عليها. ومنذ ذلك الحين ولد نوع من التواطؤ الصامت بيننا. لم أقل لها أن لا تخبر أحداً، كنت متأكدة من ذلك، ستحفظ سري وقد حفظته مدى حياتها . لكن هذا السر بيننا جعلها أقرب مخلوق إلى ذاتي، أصبحت أعز علي من أمي، وبخاصة أنها لم تتزوج ولم تنجب.

زرنا الطبيب وهو رجل في الأربعين من عمره تقريباً ويبدو محتالاً . تأكدنا من الحمل وتمت عملية الإجهاض بسرعة قبل بداية المدرسة التي عدت إليها لمتابعة تحصيلي الثانوي.

حين انتهت تلك المرحلة وقبل دخولي الجامعة، طلب يدي للزواج الطبيب الذي تكلمت عنه الراوية في القسم الأول. لكن موضوع الزواج طرح أمامي مشكلة جديدة وهي أنني لست عذراء . وهنا أيضاً ساعدتني خالتي وأجريت عملية التقطيب التي ردتني إلى العذرية عند طبيب جديد اسمه سمير، قالت إنها تعرفه من قبل . بعد العملية مباشرة سألته:

ــــ إن تزوجتَ من فتاة سبق وأجريتْ لها عملية من هذا النوع فهل تكتشف ذلك؟

ــــ طبعاً، لكن الإنسان العادي لا يمكنه أن يكتشف شيئاً وتتم الأمور كما لو أنه تزوج من فتاة لم يمسها أحد قبله، وقد أجريت الكثير من هذه العمليات الناجحة. لكني لا أحبذها، لأنها لا تلغي الواقع، بل تخفيه فقط . وأنا مع الحرية الجنسية للفتاة كما للصبي، ولن أتوقف دقيقة واحدة عند عذرية أو لا عذرية من سأتزوج بها . إن أحببتها أقبلها مع كل ماضيها قبلي كما هي ستقبلني مع كل ماضيّ.

لم أعلق على كلامه لكن حين عدت إلى البيت واجهت والدتي برفضي للزواج من الطبيب ابن قريبها، ففوجئت ونهرتني:

ـــ هل أنت مجنونة؟ إنه نصيب ممتاز وسوف يرث ثروة طائلة وستعيشين معه في نعيم، كيف ترفضين النعمة؟ هل أنت مغرمة بشخص آخر؟

ـــ لست مغرمة بأحد، لكنني لا أحبه وأريد متابعة دروسي ودخول الجامعة.

ـــ ماذا ينقصه كي يعجبك؟ هل الوسامة وكل البنات يركضن وراءه؟ هل المال؟ هل الشباب؟ هل المركز؟ ماذا؟ ردي. سأخبر أباك.

لم أجبها . وحين أعلمت والدي بما قررت أجابها بكل هدوء : «اتركيها، هي التي ستتزوج، لا أنت ولا أنا، إنها حياتها وهي حرة بها ». ارتحت لكلام والدي وهكذا انتهى موضوع الطبيب الذي نصّبته الراوية زوجاً لي كما رأينا.

ارتحت من فكرة الزواج وقررت أن ألتحق بكلية الطب. خضعت لمباراة فزت بها وبدأت الدراسة . لكن في نهاية السنة الأولى أتى من يطلبن ي للزواج مجدداً؛ شاب في الثلاثين من عمره والابن الوحيد لرجل أعمال ثري جداً . فكرت بالموضوع وأتاني الجواب من المبتسم:

ــــ لماذا الطب وغيره؟ تزوجي وارمي حملك على غيرك. إنه ثري وسيؤمن لك تلبية كل نزواتك، لا تترددي.

أتى جوابه هذا مطابقاً لرأي أمي وحتى خالتي . فقط والدي ظل متردداً، لكنه اقتنع أخيراً وتزوجت من المدعو عماد وقد تمت الأمور كما وصفتها سابقاً الراوية.

لكن قبل أن أتابع سيرة حياتي، لا بد من الحديث قليلاً مع الراوية لتصويب بعض الأمور الأساسية:

ــــ لماذا أغفلت أسماء والدي وأخي.

ــــ لم أر ضرورة لذلك . لماذا لم تعترضي على عدم إعطاء المبتسم هو أيضاً اسماً؟

ــــ أنا أطلقت عليه اسم المبتسم وأنت تبنيت هذه التسمية. وسأستمر بتسميته على هذا النحو. أطلقت عليه هذا الاسم لأخرجه من حيز النكرة الذي رميته فيه بتسميتك إياه «الظل». أما بالنسبة لأهلي فأرى من الضروري أن يعرفوا بأسمائهم وأسماؤهم جميلة . والدتي تدعى هلا . والدي يدعى رضا . وأخي يدعى وسيم. وعلى ذكر وسيم، لماذا أهملته كلياً وتعرفين أنه لعب دوراً مهماً في القسم الأول؟

ــــ دوره لم يكن فعالاً ولهذا السبب أهملته.

ــــ أهملته كما أهملت الأسماء لأنك تعودت على كتابة السيرة حيث تركزين على شخصية واحدة جاعلة من الآخرين شبه أشخاص يدورون في فلكها . لكن دور وسيم كان مهماً جداً، فهو الذي كان يرافقني إلى البحر صبيحة كل يوم في ذلك الصيف المشؤوم . وهذا ما كان يطمئن والدتي ويجعلها ترفض كل ما فاتحتها به هند .

صحيح أنه كان يرافقني لكن رائد نجح في تسجيله في إحدى الفرق الرياضية حيث كان يمضي ساعات في لعب كرة السلة والتنس وغيرها مما سمح لنا بالقيام بما كنا نقوم به، وقد نجحتِ في وصف قسم منه مغْفلة المهم. وأكثر من ذلك، لقد زورت الحقيقة وجعلتني أتزوج من الطبيب، كأنك في ذلك تريدين إخفاء الحقيقة. لقد تصرفت كالنعامة . هل أنت من الغباء لدرجة أنك تعتقدين أن إخفاء الحقيقة، يلغيها كواقع؟

ـــ ما كنت أعلم كل ما حدث بينك وبين رائد.

ـــ لا تعلمين أو ترفضين؟ والفرق شاسع بين الحالتين. أنا متأكدة أنك تعلمين، ولهذا السبب محاولتي الانتحار والعدول عنه كما رويتها لم تكن مقنعة، وهذا ما دفعني إلى التدخل . وبما أن من يكذب مرة يفقد ثقة الآخرين به، فسأتابع أنا قصتي كما عشتها في الواقع من دون أقنعة ولا إسقاطات ولا تجميل وتدوير زوايا . اتركيني أروي ما مررت به، فالواقع يفوق الخيال غنى وتركيباً ومصادفات.

ـــ أنت أدرى بحالك مني، سأستمع إليك، ومن ثم أكتب ما سمعت.

ـــ لا أثق بك . أنا سأكتب، وأنت تقرئين لاحقاً . هكذا أضعك أمام الأمر الواقع بحيث تعجزين عن التدخل لتشويه وتغيير ما ترينه غير مناسب لرؤيتك أنت.

ـــ كما تريدين . لقد سلمتك القلم . اكتبي مباشرة بدل أن تصححي ما أكتب . سأكتفي بدور المراقب من بعيد.

ـــ لا أريد مر اقبة. أمنحك إجازة طويلة . استريحي أو قومي بعمل آخر.

ـــ سأسافر في كتبي وأترك لك القلم لتكتبي ما تريدين. لن تريني بعد الآن.

الفصل الثاني

— 1 —

عدنا من شهر العسل إلى بيتنا في بيروت . كنت لا أحب السكن في العاصمة، لكن عمل عماد في شركة أبيه هو الذي فـرض علينا ذلك . لم أناقش الموضوع، كان شبه بديهي. نسيت الأمر وأخذت أهتم بترتيب البيت

وأنظم أوقاتي وفقاً لساعات عمل عماد الطويلة في الخارج وفي السفر . لم يطل الوقت إذ اكتشفت أنني حامل. فرح الجميع للخبر ولا سيما والدا عماد اللذان كانا ينتظران الحفيد على أحر من ا لجمر. أتى الحمل منقذاً لي من دوامة الفراغ التي رماني فيها الزواج .كنت أستيقظ باكراً مع عماد، نتناول الفطور الذي تعدّه لنا الخادمة ثم يغادر عماد البيت وأعود أنا إلى النوم حتى الساعة العاشرة تقريباً . أستيقظ من جديد أهتم بنفسي محاولة التبرج وارتداء أجمل الملاب س التي كان يصممها لي أحد أهم مصممي الأزياء في العاصمة . كنت في ذلك العمل أنهمك ساعات أمام المرآة حيث يلازمني المبتسم دوماً، وأحيانا كثيرة كان يدور بيننا حديث طويل يقنعني خلاله أن أفضل وسيلة لتمضية الوقت هو لقاء الأصدقاء وشرب القهوة وتدخين السجائر، وكنت ألبي رغبته لأنها كانت تتوافق مع رغبتي. أتصل بصديقة أو أزور والدتي وفي أغلب الأحيان أتصل بخالتي هند التي أتواعد معها على

برنامجٍ لبعد الظهر حين تنتهي من عملها . تأتي ونخرج معاً إلى الأسواق أو نزور بعض الأصدقاء أو...

— 2 —

لم تطل هذه المرحلة إذ بدأ حملي . حين أخبرت به خالتي، فرحت جداً وقبّلتني، على عكس ما فعلته في المرة الأولى . لم تنتظر، اتصلت بوالدتي وأخبرتها بالأمر، وحين أتى عماد،كانت هي من بادر إلى إخباره . لم ألاحظ أن عماد سُرّ كما كنت أتوقع . كل ما علّق به هو: «هل صحيح ما تقوله هند؟ إنه أمر سار، سيفرح به والداي». أما من اغتاظ جداً فكان المبتسم الذي حاول إقناعي بالإجهاض لأنني مازلت، في نظره، صغيرة على تحمل المسؤولية ولأنني لم أستفد كفاية من الحياة بعد. كدت أقتنع بقوله لكن فرح الجميع من حولي جعلني أخذله وأرضخ لما فعلته الطبيعة.

فترة الحمل الأولى لم تكن سهلة. لم أعد قادرة على تناول أي طعام من دون الشعور بالغثيان والتقيؤ . كلما تقيأت أراه أمامي يقول مبتسماً : «ألم أنصحك بالإجهاض؟ لو سمعت كلامي لما كنت تتعذبين هكذا ». لم يكتف بذلك بل كان حاضراً كلما حاولت الاستراحة كما نصحني الطبيب . يحضر ليحرض رغبتي بالخروج، فأنهض وأقوم بمشاريع مختلفة لم تكن تخطر ببالي من قبل.

— 3 —

بعد مرور شهرين على الحمل بدأت أنزف قليلاً . حين رأيت الدم أول مرة انتابني شعوران متناقضان ؛ أولاً الخوف وثانياً الفرح، ومثل أمامي بابتسامته العريضة الساحرة : «الآن ستتحررين من جديد، أنصحك بعدم زيارة الطبيب وأن لا تخبري أحداً

بالموضوع. ستجهضين من دون مساعدته، ألم أقل لك إنك ما زلت صغيرة على الحمل؟ تمتعي بحياتك، ثم ما جدوى الإنجاب؟ أنت أهم من كل من سوف تلدين ». اقتنعت بكلامه وصارحت خالتي بما يحدث لي طالبة منها مساعدتي . لكنها رفضت كلياً كلامي واتصلت بالطبيب لتخبره بما يحصل معي وأرغمتني على زيارته. بعد المعاينة نصحني بالراحة شبه التامة وأقنعني بمتابعة الحمل لأن الجنين بحالة جيدة والإجهاض المتعمّد هو جريمة. وشدد بشكل خاص على أن أتوقف نهائياً عن التدخين.

اقتنعت بكلام الطبيب، لكن كلامه هذا أيقظ عندي شعوراً بالذنب بالنسبة ل لإجهاض الأول الذي قمت به قبل زواجي من عماد وبدأت أسائل نفسي : «هل ما يحدث معي الآن هو عقاب من الله على ما قمت به سابقاً؟». لكن المبتسم الذي تضاعف حضوره إلى جانبي كان يبدّد شعوري بالذنب مثابراً على إقناعي بعدم الإصغاء إلى نصائح الطبيب. أما والدتي، فقد باتت شبه

مقيمة معنا لمساعدتي على الراحة التامة. كانت تأتي كل صباح ولا تتركني إلا بعد مجيء خالتي التي تتسلم المهمة عنها. وأحياناً كثيرة كانت أم عماد من يزورني لتطمئن إلى حالتي.

— 4 —

توقف النزف بعد فترة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه لكنني بدأت أشعر بنفور من عماد ولم أعد أسمح له بمقاربتي متحجّجة بالمحافظة على الجنين . تحمّل نفوري منه في البداية، لكنه بعد أقلّ من شهر بدأ يخرج وحده مع أصحابه ويعود ثملاً ويزداد نفوري منه إلى أن ساءت الأمور بيننا لدرجة أنه بات ينام في غرفة الضيوف تاركاً المجال للمبتسم الذي أصبح رفيقي الدائم في السرير كل مساء. يتمدد بالقرب مني، يلفني بذراعيه ويوشوش في أذني كلمات وكلمات إلى أن أغفو لأستيقظ

مذعورة من أحلامي ؛ فمرّة أحلم أنني ولدت أفعى ومرّة أنني أنزف من جديد وأحياناً أحلم أنني ولدت مسخاً و ... أستيقظ مرعوبة وأرى ابتسامته تشع في ذلك الظلام الذي يلفّ الغرفة . أشعل النور فيختفي، أتلمّس جسدي، أتأكد من سلامتي وأعود إلى النوم فيهمس في أذني : «ربما تحقّق الحلم، لا أحد يدري، أفضل ما يناسبك الآن هو أن تدخّني سيجارة لتفرّجي عن نفسك». أسمع كلامه لأنني أصبحت مغرمة بالسيجارة إلى درجة الهوس . أخرج إلى الشرفة، يجلس بالقرب مني وندخّن معاً عدداً من السجائر قبل أن آوي إلى فراشي برفقته من جديد . وهكذا كنت أتنقّل كل ليلة بين الذعر والنوم القلق والتجوال خلال النهار مع خالتي بين محال ألبسة الأطفال لتحضير جهاز الطفل وقد علمنا أنه صبي، إلى أن حان وقت الولادة ونقلت إلى ال مستشفى حيث كان الطبيب ينتظرني.

— 5 —

أدخلوني غرفة التحضير وعاين الطبيب وضعي:

ــــ الوضع جيد، قال.

ــــ لكني أشعر بألم رهيب في بطني بين وقت وآخر، قلت له.

ــــ إنه الطلق، وعليك أن تضغطي نحو الأسفل كلما أحسست بطلقة، أجاب الطبيب.

كان الطلق في البداية متقطّعاً يتكرّر كل ربع ساعة تقريباً. وفي كل مرة كنت أحاول الضغط نحو الأسفل كان المبتسم يضغط بدوره على عنقي ويمنعني من الشد. كنت أشعر بالاختناق وعوض الضغط نحو الأسفل، أصرخ بصوت عالٍ: «سأختنق».

نادى الطبيب إحدى الممرضات، شرح لها الوضع وأعطاها التعليمات اللازمة وانصرف لأن وقت الولادة

لم يحن بعد . كانت والدتي بالقرب مني، تمسح العرق عن وجهي وتطمئنني قائلة : «إنها الولادة يا حبيبتي، ستنسين كل ذلك حين ترين الطفل ». وأسمع المبتسم يوشوشني: «وأحياناً كثيرة تموت الأم في الولادة أو يأتي الطفل ميتاً ». تأتي الطلقة التالية وأعجز عن الضغط نحو الأسفل وأصرخ من الألم.

بعد قليل تقلّص الوقت بين الطلقات، لم أعد أتحمل وعلا صراخي، فنادوا الطبيب الذي أقبل مسرعاً:

ـــ سندخلها غرفة التوليد، لقد حان الوقت.

دخلت معي أمي وعماد . استلقيت بوضعية معينة وأنا أصرخ من الألم الذي ازداد لدرجة لم أعد أشعر معها بأي شيء وكأنني فقدت وعيي، لم يبق في مخيلتي إلا صورة المبتسم. غاب العالم وبقي هو يتراءى أمامي. لم أدر كم مرّ من الوقت قبل أن أسمع صراخ الطفل وصوت الطبيب يقول : «مبروك، طفل مثل الذهب ». تيقّظت حواسي ورأيت الطبيب يرفع بيده طفلاً ملطّخاً

بالدم. أردت أن أصرخ : لمَ الطفل م جروح، لكن قواي خانتني. ورحت في شبه غيبوبة.

— 6 —

لا أدري كم مرّ من الوقت قبل أن أجد نفسي في غرفتي في المستشفى وإلى جانبي أمي وخالتي وعماد، وبعد قليل أتى والدي وأخي وسيم ووالدا عماد . كل من دخل الغرفة منهم كان يقترب مني، يقبلني ويقول : «مبروك والحمد لله على ا لسلامة». خلال ذلك كان المبتسم يوشوش في أذني : «ربما مات الطفل، لماذا أخفوه». وأراني أردّد كالببغاء وراءه : «لماذا أخفوه؟ أريد أن أراه». تقترب أمي مني، تمسّد شعري وتقول : «إنهم يغسلونه ويحضّرونه قبل أن يأتوا به إليك ولن يكون ذلك قبل ساعات معينة». أطمئن لقولها وأهدأ.

بعد ساعات قليلة، كرّرت من جديد ما سمعته من المبتسم الذي ما عدت أراه وكأنه وقف وراء سريري : «أين هو؟ إنكم تكذبون».

ـــ لا يا حبيبتي لقد رأيناه في غرفة الأطفال. إنهم يحاولون إطعامه، سيأتون به إليك، لا تخافي، قال عماد.

ـــ كيف هو ومن يشبه؟

ـــ صورة عنك، أجابت والدتي، إنه طفل رائع.

امتعضت والدة عماد وقالت : «عيناه مثل عيني عماد، لكن لون بشرته مثل حياة ». لم تستوقفني تلك التعليقات، لكني اطمأننت إلى أن الطفل بخير.

ـ 7 ـــ

بعد طول انتظار أتت ممرضة وطلبت من الجميع الخروج لأنها ستأتي بالطفل ومن الأفضل أن تكون الغرفة هادئة. خرجوا جميعاً وبقي المبتسم الذي قال :

«ربما استبدلوا به طفلاً آخر ...» لم أتابع ما قاله لأن الطفل قد أصبح بالقرب مني في سرير صغير . نظرت إليه وغاب المبتسم نهائياً وأشرقت الغرفة بنور هائل كأن الشمس قد بزغت من إحدى زواياها . رفعت الممرضة الطفل ووضعته إلى جان بي في السرير . لم أجرؤ على لمسه، لكنها رفعته من جديد ووضعته في حضني. أردت اعتصاره وضمه إلى قلبي لكن الخوف عليه شلّني وعجزت عن رفعه إلى قلبي . ابتسمت الممرضة وقالت سأتركه معك لبعض الوقت ويستطيع الآخرون الدخول، لكن كل واحد منهم على حدة.

دخل عماد أولاً، قبّلني على جبهتي وقبّل الطفل على جبهته وانصرف بسرعة لا أدري لماذا . دخلت والدتي بعده وتبعها الآخرون كلّ بدوره وتتالت التعليقات حول من يشبه وجيه الصغير . لم نتّفق مسبقاً على تسميته لكنه كان أمراً محسوماً بالنسبة إلى الجميع، الطفل يحمل اسم جده لوالده. فعماد هو وحيد والديه ولا مجال للجدل في موضوع التسمية . كنت أفضّل اسماً

آخر لكن الواقع كان أقوى من إرادتي، وهكذا لم يبقَ الطفل لحظة واحدة من دون اسم، ولد ومعه اسمه . لم أحاول مناقشة الموضوع، إذ كفاني أن رأيت الطفل بخير وكامل التكوين وقد نسيت فعلاً، بعدها، كل ما شعرت به من ألم خلال الولادة.

— 8 —

أمضيت أياماً قليلة في المستشفى زارني خلالها العديد من الأهل والأصحاب وامتلأت الغرفة بالورود من كل الأصناف . السلّة الأولى كانت من عماد وهي التي زيّنت الغرفة قبل وصولي إليها. تعافيت وعدت إلى البيت. أقلّني إليه عماد برفقة والدتي ووجيه ا لصغير. غريب ذلك الشعور الذي تملّكني حين دخلت البيت من جديد ؛ شعرت أنه أصبح لوجيه ولوجيه وحده دون أحد سواه، وهو أمر صحيح إذ رُتّب كل شيء في البيت بما

يتلاءم مع وجود وجيه الصغير الذي احتلّ غرفته الزرقاء المزينة بكل ما يخطر على البال، وقد ساهمت في ذلك خالتي ه ند التي أمضت الوقت السابق مشغولة بتحضير الغرفة وتجهيزها بكل ما يلزم.

عدنا إلى البيت ولازمتني فيه والدتي كي تساعدني على الاعتناء بالطفل الذي أصبح محور وجودي ووجودها معاً. أصبحت أمضي فيه كل أوقاتي وبخاصة أنني أصررت على تغذية ابني من حليبي . كان يأخذ حلمة ثديي بين شفتيه الصغيرتين ويبدأ بالمص فأشعر بلذة عارمة. لكنه سرعان ما كان يتعب ويترك الحلمة، فأعاود الكرة من جديد وأمضي كل مرة زهاء الساعة في إرضاعه.

— 9 —

في البداية، تقبل عماد وجود والدتي، لكن بعد أسبوع على مكوثها معنا، بدأ يسمعني كلاماً مثل: «لنأت بممرضة للعناية بوجيه، أمك تعبت معه وأحياناً لا تنام، من الأفضل أن تعود إلى بيتها ». لم أرتح لكلامه الذي كان يقوله بنبرة لا تعجبني وأصررت على وجود أمي إلى جانبي لأنني ما كنت أطمئن لأي شخص غيرها بالقرب من طفلي الصغير . لكن من أغرم بشكل خاص بوجيه كانت خالتي التي أصبحت تأ تي من عملها مباشرة إلى بيتنا وهي محمّلة بالهدايا. ضاق صدر عماد بهما معاً وبي أيضاً لأنني لم أعد أهتم به إطلاقاً، نسيته فعلاً وأصبح وجيه محور حياتي الوحيد . ضاق صدره وانفجر يوماً بصوت عالٍ : «هذا البيت تحوّل إلى كرخانة وأصبحتُ غريباً فيه، ألم تتعلّمي بعد الاه تمام بطفلك؟ أم أنك ستتكلين على أمك وخالتك طيلة الوقت؟ أين أصبحت أنا؟ هل ما زلت موجوداً؟».

لم يعد موجوداً بالفعل، لكنني تمالكت أعصابي وأجبته بكل هدوء: «أنت رب البيت، هل يعقل أن تغار

من طفل صغير عاجز وهو ابنك؟ » كان يغار فعلاً وقد ثبت لي ذلك من كلام أمه التي قالت لي يوماً : «عماد ولد وحيد كما تعرفين وقد تعود أن يكون مركز العالم كله وموضوع اهتمام الجميع وهو يشعر الآن كأنه مهمل، عليك الانتباه إلى ذلك وإلا ساءت الأوضاع».

استدركت الموضوع وحاولت مسايرة عماد . وكتمتْ والدتي غيظها واستياءها واستمرت تلازمني، فقد كنت لا أزال بحاجة إليها . لكنها أصبحت تتجنّب عماد وتبقى، حين يعود إلى البيت، جالسة في غرفة وجيه. أما هو فقد أبدى لها القليل من الاحترام مما دفعني إلى النفور منه وكرهه.

— 10 —

مضى الشهر الأول . خلاله تعلمت الاعتناء بـ«وجّوه» كما بات الجميع ينادونه، وعادت والدتي إلى

بيتها. لكن الوضع الجديد لم يغير كثيراً من سلوك عماد الذي بدا لي كأنه لا يحب وجيه كما ينبغي، كان كمن يشعر أنه فقد موقعه كابن مدلّل، أو كأن أحداً أتى لينازعه الأهمية أو يحتل مكانه، على عكس والده، السيد وجيه الذي كان يعبّر عن غبطته بشكل واضح، وعلى خلاف زوجته، حماتي، التي كانت تحاول أن توحي لي بأن عماد، طفلاً، كان أجمل من وجّوه الذي بدأ يميل تدريجياً إلى الشبه بخاله وسيم أكثر فأكثر.

لم يغير عماد من نمط حياته السابق سوى مدة قصيرة إثر عودتي إلى البيت مع الطفل، مكث معنا أياماً قليلة، بعدها عاود نشاطه الروتيني. كان يترك البيت كل صباح ليذهب إلى شركة أبيه ولا يعود إلا مساءً . لكنه استردّ مكانه قربي في السرير ليلاً وعادت الأمور الجنسية بيننا إلى سابق عهدها . في هذه المرحلة بدأت أشعر كأنه يغتصبني كلما مارسنا الحب . أما المبتسم الذي غاب في المرحلة السابقة، فقد عاد ليشاركني حياتي، ومشاركته الجديدة أتت من خلال تعلقي بوجّوه

الذي حوّلني إلى كتلة وساوس. كلما دخلت غرفتي للنوم يحضر المبتسم ليقول لي إن وجيه يختنق في سريره، فأنهض مسرعة وأركض إلى غرفة الطفل لأتفقّد تنفسه وأتأكد أنه لا زال حياً . أتأكد وأعود إلى حيث كنت والقلق يغمر قلبي.

كان عماد يراقب سلوكي ويهزأ مني ومن وساوسي غير المبررة. لكني لم أعره انتباهاً وأصغيت إلى وشوشات المبتسم الذي نصحني بنقل سرير الطفل إلى غرفتنا. نقلته وهدأ قلقي عليه، لكن استيقاظ وجّوه ليلاً وبكاءه أحيانا كثيرة، دفعا بعماد إلى التوتّر الذي حدا به إلى الاستقلال مجدداً في غرفة الضيوف، الأمر الذي جعله يكره الطفل الذي أخذني منه. هذا الكره بدأ صامتاً ثم أخذ في التعبير عن ذاته حين كان ينفجر مردداً بنبرة منفعلة: «لم يعد لي وجود، أصبحت نكرة في هذا البيت، الأمر ما عاد يطاق». كنت أتحمل صراخه بصمت مما زاد من توتري إلى درجة جف معها حليبي ولجأت إلى استعمال الرضاعة لتغذية وجّوه. لكن جفاف الحليب في

ثديي حررني من الامتناع عن التدخين الذي عدت إليه بنهم لا يوصف . أصبحت، كلما سنحت الفرصة، أي على عدد الدقائق، أسحب سيجارة وأتلذذ بتدخينها . وإن نسيت ذلك حضر المبتسم ليذكرني، يقدم لي السيجارة، فنجلس معاً وندخن حتى نرتوي . استعادة التدخين لم ترق لعماد الذي بدأ يتذمر ويعبر عن اشمئزازه من رائحة البيت وبخاصة من رائحة فمي.

— 11 —

ساء الوضع جداً بيننا فساعدني المبتسم في أخذ طفلي واللجوء إلى بيت أهلي حيث استقبلتنا والدتي بالترحاب لأنها ما عادت تحب عماد بعد أن أساء معاملتها خلال إقامتها معنا لتساعدني على الاعتناء بوجيه. أما والدي وبعد أن علم بسبب لجوئي إليهم استاء من الأمر واتصل بعماد ودعاه إلى العشاء. أتى عماد في

المساء وتعاتبنا ثم ساعدنا والدي في الاتفاق على اتباع نمط حياة جديد وعدت مع عماد ووجيه إلى البيت.

غير أن الحياة لم تعد كما في السابق، إذ أصبحت أترك البيت صباحاً، بعد ذهاب عماد إلى عمله وأصطحب وجّوه إلى بيت أهلي حيث أمضي الوقت إلى حين عودته. هذا الوضع الجديد جعل والدتي وخالتي هند تتعلقان بشكل هستيري بوجّوه الذي استأثر بكل اهتماماتهما. بالمقابل لم يتغير موقف عماد من ابنه ولم يعره أي اهتمام. استشرت المبتسم في الأمر وأكد لي أن عماد لا يحب وجّوه «لا بل يكرهه». ازداد نفوري من زوجي وصرخت به يوماً: «أتظن أنني أتيت بوجّوه من بيت أهلي؟ إنه ابنك، لماذا لا تحبه؟».

ــــ كيف لا أحبه، أجاب متلعثماً، إنه ابني، أعرف ذلك، لكنه أخذك مني، لقد أهملتني كلياً حتى إنني لم أعد أستطيع ممارسة الحب معك كما أرغب، إنك تتهربين مني، ألاحظ ذلك بوضوح حتى ولو رضخت أحياناً لرغبتي.

صحيح كنت أتهرب منه لأنه بات لا يعني لي شيئاً، لم أعد أرى فيه إلا مساوئه التي كان المبتسم يساعدني على تضخيمها، حتى أنه بدأ يحتل مكانه ونحن نمارس الجنس. كلما ولجني عماد، رأيت المبتسم أمامي، رأيته هو الذي يفترعني، فأشعر بالخيانة وبالذنب. لكن الأمر أصبح خارج إرادتي وحضور المبتسم بشكل دائم أمامي وتحريضه لي على الابتعاد عن عماد وضعاني في حالة توتر فانطويت على ذاتي وقلّت شهيتي وأصبحت السيجارة غذائي الوحيد. انهرت كلياً ونقلت إلى المستشفى وبعده إلى بيت أهلي حيث اهتمت والدتي بي وبابني شهراً كاملاً، خلاله لم تفارقني هند لحظة واحدة . أما المبتسم فكان مغتبطاً يلبي كل رغباتي ويرقد بالقرب مني كل ليلة، فألفه جسدي الذي أصبح يشعر بالبرد كلما ابتعد عنه.

— 12 —

خلال إقامتي في بيت أهلي كان عماد يزورني مستعجلاً رجوعي إلى البيت . كان والداه أيضاً يزورانني وبخاصة من أجل وجّوه الذي طالبا بأخذه إلى بيتهما للاهتمام به . لكني أصررت على بقائه بالقرب مني بالرغم من امتعاض السيدة حماتي . أما وجيه الجد فكان طيباً جداً ويحاول دائماً، إصلاح الأمور مع والدي لتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي بيني وبين عماد.

عدت إلى بيتي تحت نظرات المبتسم المستاءة وبقي وجّوه بعهدة أمي وخالتي اللتين اهتمتا به أحسن اهتمام وقد شاركهما في ذلك وسيم الذي أصبح، هو أيضاً شديد التعلق به . أفرح هذا الحل عماد وحاول استرجاعي إليه. شعرت أن غياب وجّوه عن البيت بعث الحياة في عروق عماد الذي عاد إلى سابق عهده من الاهتمام بي ودعوتي إلى السهرات وغيرها مما كنا نقوم به قبل الولادة . لكن المبتسم كان دائم التدخّل : «كيف تصدقين أنه يحبك وهو يكره ابنك؟» لم أكن بحاجة إلى وساوس المبتسم لكي أشكك في ذلك . وكلما فكرت في

الأمر زاد كرهي لعماد، وبقدر ما يزداد كرهي له كنت أزداد ابتعاداً عنه.

— 13 —

استمر الوضع على ما هو عليه طوال تلك السنة بعد ولادة وجيه الذي أصبح مقيماً بشكل دائم في بيت جده رضا . لقد تحول إلى فرد منهم لا يستغنون عن وجوده. وهو بدوره أصبح شديد التعلق بوالدتي وخالتي لدرجة أنه لم يعد قادراً على النوم وحده في سريره . كنت أحياناً أحاول المجيء به إلى بيتنا، فيبكي ويرفض مرافقتي إلا إذا أتت معنا إحداهن. وفي المساء لا ينام إلا إذا بقيت بالقرب منه، وإلا استمر بالبكاء والصراخ إلى أن أعيده إلى بيت أهلي حيث يرتاح ويعود إلى اللعب والضحك من جديد. هل كان يشعر بكره والده له؟ «بكل تأكيد». أجابني المبتسم من ركنه في زاوية غرفتي.

تزايد كرهي لعماد وأخذت أبتعد عنه أكثر فأكثر وكلما حاول الاقتراب مني تحججت بالصداع أو غيره. استاء من هذه الحالة وأصبح يتهمني بأنني لست قادرة على تربية طفل واحد وبأنني اتكالية أرمي بمسؤوليتي على غيري. أحيانا كثيرة كان يعبر عن رأيه بالصراخ حيث تجتاحه موجة من الهستيريا ويبدأ بقذف المنافض وكل ما يقع تحت يده إلى الأرض فيتحطم وتدب الفوضى في ا لبيت والمبتسم يصرخ في فمي : «ارحل عني ما عدتَ تطاق».

أهرب إلى غرفتي أقفل الباب من الداخل ويتابع المبتسم كلامه : «طلّقيه، ماذا يربطك به؟ إنه يكرهك ويكره ابنك وأهلك. لماذا تستمرين معه؟ طباعه لا تطاق وقد يصبح مؤذياً . أنقذي نفسك من هذه الجحيم، أنقذي نفسك قبل أن يقع ما لا تحمد عقباه ». استهوتني الفكرة وقررت طلب الطلاق لكنني لم أقدم عليه لأن والدي وقف ضد الفكرة وأقنعني أن الطلاق يسيء إلى الطفل : «لو كنت ما زلت من دون أولاد لما ترددت لحظة في

مساعدتك على الطلاق، لكن فكري بوجّوه وبحاجته إلى أب يرعاه».

ـــ لكنه الآن يعيش من دون أب.

ـــ الأمر لا يستمر هكذا، سوف يعود وجّوه إلى البيت ويكبر معك ومع أبيه.

لم يكن موقف والدتي كموقف والدي، كانت هي أيضاً ترغب في طلاقي من عماد لكنها ما كانت لتتدخل بل تتركني أقرر وحدي. لكنني عجزت عن اتخاذ القرار واستمرت حياتي متأرجحة بين القبول والرفض، فأحياناً أنسى حالي وأنسجم مع وضعي وأحياناً أخرى أثور وأتمرد. أصبحت وحيدة أدور في دوامة من اليأس والفراغ الكامل وقد أصبح المبتسم جليسي الوحيد . أنطوي على ذاتي فيندس بالقرب مني ويتلو علي مزاميره:

ـــ لماذا لا تعيشين حياتك كما تريدين؟

ـــ كيف تريدني أن أعيش؟

ـــ إنك لا تحبين عماد، أعلم ذلك ولا تستطيعين النكران. فما عليك إلا أن تعشقي غيره . غالبية النساء يعشن هكذا، زوج في العلن وعشيق في السر، وإلا لما استمرت واحدة منهن مع زوجها.

ـــ أعشق؟ وماذا يحل بوجّوه؟

ـــ لا يتغير عليه شيء، فقط تصبحين أكثر توازناً وهذا يرتد إيجابياً عليه.

ـــ هل أنت تريد حقاً خير وجّوه؟ أعرفك وأعرف ألاعيبك.

ـــ افعلي ما تريدين لكنني متأكد أن الأمر سيتحقق يوماً ما ولن يكون بعيداً . لا تستطيع الإنسى أن تعيش من دون حب وبخاصة الحب الممنوع . أما الآن فما عليك سوى التدخين، فرّاج الهموم. هيا فلندخن.

ندخن بنهم وتمت لئ المنافض بأعقاب السجائر والمبتسم يفرغها باستمرار كي يجعلني أجهل كم من السجائر أحرقت وكم من الدخان القاتل دخل رئتي. يعود عماد من عمله، يدخل علينا فيتكهرب جو البيت ويختفي المبتسم. هو لا يختفي كلياً بل يتحول إلى ظل يرافق عماد أينما توجه . أنظر إلى من كان زوج ي وأرى تكشيرته وإلى جانبه ابتسامة الظل فيزداد كرهي له وتعلقي بالظل ولا أرتاح إلا حين يدخل عماد غرفة النوم، غرفتنا. أتناساه وأجلس مع المبتسم على الشرفة، أدخن عدداً من السجائر قبل أن أسمع صوته : «ماذا تفعلين؟ ألا تريدين النوم؟ »كنت أحياناً أجيبه : «لست نعسانة، ماذا تريد؟ » وأنا أعلم ماذا يريد . يقفز من سريره ويأتي حافي القدمين ومنكوش الشعر ليصرخ بوجهي: «أنت زوجتي أم ماذا؟ » أصمت ويردد سؤاله إلى أن أصرخ بدوري : «ليتني لم أكن زوجتك ». فيمسكني من يدي ويجرني إلى الفراش وأضطر إلى ممارسة الجنس معه كي أسكته وأرتاح. بعد المضاجعة

أعود وأخرج إلى الشرفة وأجد المبتسم في انتظاري، يقدم لي سيجارة ما إن أنتهي من تدخينها حتى أسمع صوت شخير عماد الذي يشبه نهيق الحمار . أطمئن وأتابع السهرة مع صديقي المبتسم حتى ساعة متأخرة قبل أن آوي إلى فراشي بالقرب من عماد . أغفو ولا أستيقظ إلا بعد رحيل زوجي إلى عمله.

يترك عماد البيت فأستيقظ وأهتم بنفسي بكل كسل وأذهب إلى بيت أهلي لرؤية وجّوه الذي كان يفرح بقدومي. لكنه استمر على عناده، يرفض باستمرار العودة معي، مساءً، إلى البيت . أتركه حيث هو وأعود وحدي لمواجهة الواقع الذي بات لا يطاق.

— 14 —

تتالت الأيام ولم يتغير شيء من الحالة التي نحن عليها. تعاقبت الأيام والشهور حتى أكمل وجوه السنة الثانية من عمره. خلال تلك المرحلة كان أخي وسيم قد أنهى دراسته الثانوية والتحق بكلية الطب في الجامعة اليسوعية في بيروت وبسبب وجوده شبه المستمر في العاصمة، بات كثير التردد على منزلي وغالباً ما كان ينام عندي. لم يستأ عماد من تواجد وسيم معنا، ربما وجد فيه منقذاً للجو السائد بيننا . كنا نلتقي في المساء ويخبرنا وسيم أخباراً مسلية قبل أن يتركنا ويدخل غرفة الضيوف التي أصبحت غرفته . هذا التغير كسر الجليد بيني وبين عماد ولم يطل الوقت أكثر من شهرين لأكتشف أنني حامل من جديد.

حين أخبرت عماد بالأمر، أبدى الفرح وقال: «هذا أفضل عمل تقومين به بدل أن تضيعي وقتك بالكسل والتسكع والتهرب من المسؤولية. هكذا ستهتمين بحياتنا من جديد وآمل أن يكون المولود المنتظر بنتاً، فأنا لا أحب الصبيان». استغربت الأمر لكني فرحت به لأنني

أنا بدوري كنت أرغب بأن أرزق ببنت ولو كنت في داخلي رافضة لفكرة الحمل أصلاً . رفضت الحمل وشجعني المبتسم على ذلك ونصحني بالإجهاض . ناقشته طويلاً وكاد يقنعني، لكن الفرح الذي غمر كل الأهل، أهلي وأهل عماد على السواء، كما حصل في السابق، جعلني أغير رأيي وأقبل بالوضع الجديد.

بعد الشهر الرابع من الحمل أعلمني الطبيب بعد أن عاينني، أن الطفل بخير وهو أنثى . فرحت بالخبر وشاركني الجميع هذا الفرح إلا أم عماد التي كانت ترغب بصبي وعبرت عن رأيها : «كنت أفضل طفلاً ذكراً، ربما كان لنا حظ فيه أكثر من الأول الذي صادرته عائلة زوجتك الست حياة».

لم يعلق أحد منا على كلام أم عماد. لكن عماد الذي صمت أمام أمه واجهني لاحقاً بقوله : «هل سمعت كلام أمي؟ ألم تفهمي أنها مغتاظة من إهمالك لابنك ». هنا لم أستطع السكوت وأجبته: «إهمالي أنا أم إهمالك أنت؟ ألم تر نفسك كيف تعاملت مع والدتي حين أتت لتساعدني

على العناية بوجّوه، ألم تلاحظ كرهك له هذا الطفل البريء؟ ثم لمَ لا يرغب في المجيء إلى هنا؟ إنه طفل ويتصرف بكل عفوية . فلو شعر بأمان هنا لما كان يمضي الوقت بالبكاء كي أعيده إلى حضن جدته وحضن خالتي التي كرست له كل وقتها».

ـــ إنك تختلقين أسباباً على هواك وكل ذلك لتبرير إهمالك واستهتارك بواجباتك . على كل حال أنا لا أعتبره ابني، بل غريمي، لقد أخذك مني، لم أعد موجوداً بالنسبة لك.

حينها، ما عدت قادرة على التحمل وصرخت به : «أنت أغبى مما كنت أتصور وكلامك يجعلني أحتقرك وأحتقر الطريقة التي ربيت بها، فلو عرفت الست المصون أمك كيف تربيك، لما كنت على هذه الدرجة من الأنانية وحب الذات المرضي ». أجابني بصوت عالٍ وعلا صوتي وتشاجرنا لأول مرة بشكل عنيف وصريح ومباشر . لكنه حسم الموضوع ودخل غرفة

الضيوف. انصرف ليتركني مع المبتسم الذي شعت ابتسامته كشهب من نور.

ـــ الآن ستتج هضين، فهذا التوتر في جسدك وأعصابك سيؤدي حتماً إلى الإجهاض وهذا ما كنت تريدينه.

ـــ اصمت أيها المعتوه، لن أجهض . قلت ذلك وتمددت على الكنبة، فما كان منه إلا أن أخذ علبة السجائر وقدم لي منها واحدة. أخذتها من يده وأشعلتها.

ـــ 15 ـــ

بعد أن استمتعت بالتدخين وأنا مستل قية، غفوت مكاني وغاب عني المبتسم . غفوت لا أدري كم من الوقت لكني حين استيقظت، رأيت عماد منحنياً عليّ يطلب مني الانتقال إلى غرفة النوم . كان لطيفاً جداً وحاول الاعتذار على سلوكه السابق. قبّلني، ثم أخذ يدي

وقبلها وهو يتمتم : «انتهى كل شيء، أنا أحبك ولا أستطيع العيش من دونك». استغربت الأمر لكني عدت معه إلى غرفة النوم حيث مرت تلك الليلة بهدوء . لاحقاً اعتدت على سلوكه هذا المتقلب بين الهيجان والندم وكان يتم على الشكل التالي : كلما مرّت أيام قليلة من الهدوء النسبي بيننا يفتعل عماد مشكلة ويتهمني بكل الاتهامات البذيئة، يتشنج، يهتاج ويفرغ غضبه وهو يصرخ بأعلى صوته . لا أعود أتمالك نفسي وأصرخ بدوري ونتشاجر وأحياناً يصل به الأمر إلى العنف ثم يهدأ بعد قليل ويحاول مراضاتي كطفل صغير . لكن الملاحظ هو أن شجاراتنا كلها كانت تدور حول موضوع وجّ وه، كان عماد يتخبط بين شعورين متناقضين تجاه ابنه الذي كان يحبه ويكرهه في الوقت نفسه. تزداد درجة الكره عنده بآلية معينة ما كنت أفهمها، فيغضب من نفسه ويفرغ غضبه بالشجار والصراخ، ثم يندم على فعلته ويصالحني. أما في الواقع

فلم تصطلح علاقته بابنه، فوجّوه بات يخافه ولا يأمن لوجوده.

اعتدت هذا النمط من العيش المتقلب لكني أدمنت عليه بمرارة. أما رفيقي المبتسم فلم يعجبه الأمر وكلما جلسنا معاً شجعني على الطلاق . وهكذا كلما تشاجرنا أروح أهدد عماد بتركه وأكون جادة في تهديدي . لكنه يهدأ ويطلب مني المعذرة، فأشفق عليه وأنسى موضوع الطلاق. لكن وتيرة شجاراتنا كانت سريعة جداً بحيث لا يمضي يومان أو ثلاثة إلا ونكون قد هَبَّرْنا بعضنا من جديد. هكذا مرت الأيام إلى أن ولدت الطفلة التي لم نتفق على تسميتها في البداية : كنت أصر على تسميتها باسم أمي، هلا، أما عماد فكان يصر على تسميتها باسم أمه راغدة. تدخل والدي وحسم الموضوع على الشكل التالي إذ قال: «نجمع بين الاسمين، نأخذ حرفاً من اسم راغدة ونصله بالقسم الثاني من اسم هلا ونحصل على أجمل اسم وهو رلا ». وافقت على اقتراحه ووافقت والدتي، أما والدة عماد فقد امتعضت وهنا تدخل وجيه

الجد وأقنع زوجته برأي والدي . حسم الأمر وثبت اسم طفلتي التي اعترف الجميع بجمالها وشبهها الجميع، إلا الست راغدة، بخالتي هند التي كانت سيدة جميلة جداً ولو أن حظها بالزواج لم يكن وفيراً كجمالها.

— 16 —

اهتممت أنا برلا وبقي وجيه في بيت جده، يزورنا برفقة أهلي ويعود معهم. أما عماد فقد تعلق بابنته كثيراً وبدأت أشعر كأنه يأخذها مني. لم أنزعج من الأمر بل فرحت بعلاقة عماد برلا وبتعلقه الشديد بها وفي الوقت نفسه كنت مستاءة من علاقته بوجيه التي لم تتحسن أبداً، بل ساءت أكثر من قبل لأن عماد، بتدليله المفرط لرلا وبإهماله المفرط أيضاً لوجيه، كان يثير غيرة هذا الأخير ويؤلمني لأنني كنت أشعر بألم ابني الصامت . هذا الوضع دفع بوجّوه إلى الهرب أكثر فأكثر من البيت

ليلجأ إلى حيث يجد الحنان الكامل في أحضان الست هلا وهند وبين وسيم وجده رضا . لكن تعلق هند بوجيه كان مختلفاً كأنها تمارس معه الأمومة التي حرمت منها . أصبح وجّوه طفلها المدلل الذي لا ترفض له أمراً وهو بدوره كان يلجأ إليها في كل ما يرغب. هكذا كان الوقت يمر ونحن على حالنا من شجار ومصالحة تدور كلها حول العلاقة السيئة بين الأب وابنه . كنت أحياناً أتمنى الموت لعماد كي أنقذ ابني من الجحيم الذي كنت أراه يتخبط فيه. كنت مدركة لتأثير هذا الوضع على وجّوه لاحقاً، لكنني فشلت بإصلاحه على الرغم من كل محاولاتي. كل ذلك كان يساهم في توسيع الهوة بيني وبين عماد. تمرّ الأيام وأرى الهوة تكبر وتكبر.

— 17 —

بعد ولادة رلا بأقل من سنتين ساءت أحوال شركة وجيه الجد وشارفت على الإفلاس، وتوتر وضع عماد وأصبحت حالته لا تطاق إذ بات شديد الانفعال ودائم الاستنفار للشجار واختلاق مواضيع الخلاف . تدهور الوضع بيننا وشارفنا على الطلاق بشكل جدي هذه المرة، لكن تدخل والدي من جديد هو الذي أصلح الأمور: «لا تتركيه في حالة الشدة التي يمر بها، عليك مساندته وتفهّمه. ثم إن لديك الآن ولدين، فكري برأسك لا بمشاعرك». كنت أصغي إلى آرائه لكن المبتسم الذي كان يشاركني معاناتي وهو الشاهد على كل ما أمر به، كان يشجعني على الطلاق وكلما رضخت لنصائح والدي مثل أمامي ليقول : «اتركيه وإلا ساءت صحتك وكنت أنت الخاسر الوحيد، لماذا التضحية في حالة لا أمل منها؟ هل سيتغير عماد؟ بالطبع لا . لماذا تهدرين حياتك وشبابك في علاقة ستؤدي بك إلى الهلاك؟».

— 18 —

بالفعل، بعد وقت غير طويل انهارت صحتي ولم أعد أرغب بالطعام إطلاقاً، لا أقتات إلا بالسجائر التي كان المبتسم يصر على تقديمها لي وألتهمها بنهم كبير وأنا مسحورة بابتسامته المشـ عة التي أصبحت النور الوحيد في حياتي . ساءت صحتي وانشغل بال أهلي فتدخل والدي ونقلني إلى المستشفى حيث أجريت لي فحوصات عامة وتبين أنني أشكو من فقرٍ في الدم بنسبة عالية مما اضطرني للبقاء في المستشفى لمدة طويلة، عدت بعدها إلى بيت أهلي لمتابعة العلاج تحت إشرافهم ولكي تؤمن لي والدتي التغذية الضرورية لمثل تلك الحالات وقد منعني الطبيب من التدخين نهائياً . لكنني لم أمتثل واستمررت بالتدخين كلما التقيت المبتسم الذي لم يفوت فرصة إلا وقدم لي خلالها سيجارة أو أكثر فألبي

رغبته ورغبتي معاً بحماسة شديدة . تحولت حقاً إلى مدمنة على التدخين، أشعر به كأنه غذائي الوحيد.

تعافيت بعد شهر وعدت إلى بيتي لأجد عماد يتخبط في مأزق إفلاس شركة أبيه، هذا الإفلاس الذي تحول إلى واقع خلال وقت قصير، مما دفع بعماد إلى حافة الانهيار وأصيب باكتئاب اضطر إلى معالجته بنوع من المسكنات والمخدرات التي أخذ يعتاد عليها مع مرور الزمن.

— 19 —

تسارعت الأمور لكننا تجاوزنا الصدمة واشترى أحد أصدقاء وجيه الشركة وأصبح عماد موظفاً فيها . لكن وضعنا المادي تدهور وقررنا بيع بيتنا الكبير وشراء بيت متوسط الحجم وعلى قد الحال، كما يقال . اخترت البيت الجديد بجوار بيت أهلي ووافق ع ماد لأن

أسعار البيوت في تلك المنطقة كانت رخيصة . الغريب في الأمر أن المبتسم قد اختفى من حياتي تلك المرحلة التي شعرت خلالها بدينامية كبيرة وبإرادة لتخطي الحدث وذلك بتشجيع من والدي الذي كان يهوّن علي قائلاً: «كل الناس يمرون بصعود وهبوط والذكي هو الذي يعرف كيف يدير أموره في الأوقات الصعبة، في مرحلة الهبوط، لا الصعود ». كان يشجعني على اتخاذ قراراتي وفي أحد الأيام طرح علي إمكانية العمل لمساعدة زوجي في إعالة أولادي. فكرت بالأمر وسألت نفسي: «ما الذي أستطيع القيام به في مجال العمل وأنا لا أحمل إلا الشهادة الثانوية؟ » فكرت طويلاً في الموضوع وعزّ علي أن أعمل سكرتيرة في إحدى المؤسسات كما عرض علي في حينه . كنت قد بدأت دراسة الطب قبل زواجي لكن فكرة متابعة هذه الدراسة باتت مستحيلة نظراً لطول الوقت الذي تتطلبه تلك المتابعة. ولم أكن أحب إلا هذا المجال المتعلق بصحة الإنسان. كنت مولعة بهذا الحقل من العلم، ورسا خياري

على دراسة التمريض بعد أن علمت أن الجامعة اليسوعية قد فتحت معهداً خاصاً لتدريس هذا الفن.

اتخذت قراري الذي شجعني على المضي فيه والدي وسجلت نفسي في ذلك المعهد على الرغم من اعتراض عماد الذي كان يستخف بدور الممرضة وبمقامها الاجتماعي. ودار نقاش بين والدي ووالدتي حول الموضوع ردّد خلاله والدي قناعاته حول ضرورة أن تكون الإنسى صاحبة مهنة وأن تعمل حتى بعد زواجها لأن لا أحدٌ يدري كيف تدور الأيام وها هي «قد دارت بعماد وأبيه وستضطر حياة للعمل ». كان مقتنعاً بأهمية العمل للإنسى لأن ذل ك يكسبها استقلالاً مادياً يجعل منها سيدة نفسها وقراراتها «تماماً كهند التي ليست بحاجة إلى أي شخص . استقلالها المادي يمنحها حرية لا تتمتع بها أي من اللواتي لا يعملن».

— 20 —

لكن دراستي تلك طرحت أمامي مشاكل عديدة أهمها وضع ولدي وجيه ورلا . الأول كان قد دخل المدرسة منذ سنة، أما الثانية فكانت في بداية السنة الثالثة من عمرها وتحتاج إلى عناية خاصة.

ـــ لا تقلقي، قال والدي، سنهتم بالموضوع، أنا الآن متقاعد ولدي كل الوقت للاهتمام بوجّوه ومدرسته وأمك ستستلم أمر العناية برلا . تحرري من الموضوع واحصري نشاطك في دروسك. أنسيت أنك نلت الجائزة الأولى في لبنان في مباراة الإسعافات الأولية التي أجريت وأنت في الصف الخامس تكميلي؟ أنت مهيأة لهذا الميدان وتحبينه، ستنجحين فيه أنا متأكد . اتكلي علي وعلى أمك . ثم إن هند تعشق أولادك وستساهم حتماً في مساعدتنا، لا بل سيفرحها ذلك.

شكرت والديّ على تضحيتهما وما كدت أنتهي من تنظيم أموري حتى ظهر المبتسم مجدداً . كنت قد اشتقت إليه هو الذي أصبحت أراه ناضجاً كوالدي، حتى أن شكله اقترب من شكل أبي . أتاني واستقبلته بلهفة، لكنه

قال: «لقد اخترت أسخف مهنة، هل تعتقدين أن التمريض وحتى الطب يغيران أي شيء في ما هو مكتوب؟».

ـــ ماذا تعني؟ ألا تؤمن بالطب والعلوم الطبية؟ ألا ترى كم تطور هذا العلم وتقدم في مساعدة المرضى.

ـــ يساعد في إطالة العمر والعذاب فقط، أما النهاية؟ هل نجح الطب في إنقاذ أحد من الموت؟ اعلمي يا حبيبتي أن الطبيعة سوت الأمور بشكل جيد ومنحت الإنسان حياة محدودة قبل أن تسترده، وهي فاعلة عاجلاً أو آجلاً كما ترين . فما الفرق بين أن يعيش المرء خمسين أو ستين أو سبعين ...سنة؟ الفرق هو كمية العذاب التي يعاني منها مع طول زمن حياته . بالنهاية أبقى أنا الوحيد المنتصر.

ـــ ماذا تعني؟

ـــ ستفهمين عندما يحين الوقت . أما الآن فافعلي ما تشائين.

— 21 —

قال ذلك واختفى، وأنا بدوري لم أتوقف عند كلامه ذاك لأنني كنت مشغولة بتأمين أمور الأولاد وأمور عماد وأموري الجديدة وقد أصبحت حياتي منظمة على الشكل التالي: أستيقظ باكراً مع عماد، أوقظ رلا، نحضّر أنفسنا وننتقل معاً في سيارة عماد إلى بيت أهلي حيث أسلم رلا إلى جدتها، أقبّل وجّوه وأدردش معه قليلاً وأعود إلى عماد، فيوصلني إلى معهد التمريض ويذهب هو إلى عمله . أتابع كل المحاضرات بمسؤولية عالية، أتناول سندويشاً للغداء وأستمر في المعهد إلى أن يأتي عماد فنمر معاً على بيت أهلي حيث نتناول العشاء قبل أن نعود إلى بيتنا ومعنا رلا.

هذا الوضع المبرمج بشكل آلي لم يرق كثيراً لعماد الذي بدأ، بعد فترة قصيرة، يتذمر من إيصالي إلى بيت أهلي وإلى المعهد واضطراره، أحياناً، إلى انتظاري

وقتاً طويلاً لمرافقتي إلى البيت و ... توتر الوضع بيننا وأصبحت حالته لا تطاق، ومن جديد أنقذ والدي الوضع إذ فاجأني، يوماً، بأنه اشترى لي سيارة ليحرر عماد من «استعباده» كما كان يردد. كيف أكافئ هذا الأب الذي لم يوفر شيئاً في مساعدتي؟ كيف أكافئ السيد رضا رضي الله عنه؟ وكيف أكافئ والدتي وخالتي اللتين كرستا كل الوقت للاهتمام بأولادي؟

لكن الوض ع الجديد الذي حرر عماد من «الاستعباد» لم يغير من توتره الذي ازداد بسبب تحرري أنا منه. على أن الوضع الجديد ساهم في حسم أمور كان يمكن ألا تحسم لو استمررنا في وضعنا السابق، ومن أهم هذه الأمور هو الإنجاب . لقد حسم الأمر واكتفينا، من دون أن نناقش الموضوع، بوجّوه ورلا اللذين أصبحا محور كل حياتي وهدف كل نشاطي واندفاعي لتحقيق الأفضل. أما عماد فأصبحت علاقتي به تزداد سوءاً، تنفجر أحياناً وألجأ إلى بيت أهلي وتهدأ

أحياناً أخرى فأعود إلى البيت لمتابعة الروتين الذي بدأت أعتاده.

— 22 —

مضت سنتان على هذه الحال وأنا أجاهد كي أؤمن لأولادي أحسن المدارس وأجمل الملابس وكل ما يحتاجان إليه كي لا أغير لهما نمط حياتهما السابق . كنت أحرم نفسي من أشياء كثيرة لكي يظلا أجمل طفلين في الدنيا . هذا الواقع الذي كان والدي يساعدني على تحقيقه، أغاظ عماد الذي أصبح أنانياً بشكل مرضي ومتوتراً بشكل دائم. وما كان يزيد في توتره هو أنني ما عدت أهتم به كالسابق لأنني ما عدت قادرة على التمثيل. حتى أن علاقتنا الجنسية أصبحت شبه منقطعة مما يدفعه أحياناً إلى الهيجان العصبي والصراخ :

«أتظنين أنني من خشب؟ أنا إنسان ولي حاجات، أم

تريدين أن ألبّيها خارج البيت مع إنس ى أخرى؟» كنت قد أصبحت، في ذلك الوقت، بعيدة كل البعد عنه، فأجيبه: «أشبع حاجاتك حيثما تريد ومع من تريد، فأنا منهكة ولا يهمّني بعد الآن سوى أولادي».

كنا نتشاجر والمبتسم، في الزاوية، ينظر إلينا ويهز برأسه كأن متعته الوحيدة هي الخراب، خراب كل ما هو قائم . ينسحب عماد إلى غرفته، يأخذ جرعة من المهدئات ويغط في النوم وأجلس برفقة المبتسم ونسهر إلى وقت متقدم من الليل ونحن ندخن وندردش . كان هدف المبتسم من كل تلك الدردشات هو إقناعي بلا جدوى التمريض. وحين يرى ثباتي أمام آرائه ينتقل إلى موضوع آخر يعرف أنه نقطة ضعفي ويحاول أن يزرع في قلبي الوسواس على سلامة أولادي وبخاصة سلامة وجّوه البعيد عن نظري . أحياناً كثيرة كنت أستجيب وأتأثر بكلامه وأتصل بوالدتي، حتى في وقت متأخر، كي أطمئن على ابني ويرد والدي على الهاتف ويخفف من قلقي: «وجّوه في أيادٍ أمينة، نحافظ عليه برموش

عيوننا وأمك قد نسيت حتى ابنها وسيم وهي تكرس كل وقتها لتلبية حاجات وجّوه الذي هو ابنها المدلل وابننا جميعاً». أطمئن إلى سلامة وجوه وأركض إلى غرفة رلا، أراقب نومها وتنفسها قبل أن آوي إلى فراشي . أحياناً كثيرة كان المبتسم يرافقني ويرقد إلى جانبي وهو يحدثني إلى أن يغلبني النع اس بعد ساعات من الكلام، فأغط في نوم متقطع إلى أن يأتي الصباح وأعاود الكرة من جديد. لكن في تلك المرحلة لاحظت أن المبتسم قد ازداد شباباً ونضارة وفي أحد حواراتنا سألته : «ماذا تفعل كي لا تشيخ؟ بل على العكس، كلما مر الوقت كلما ازددت شباباً». عرضت ابتسامته وأجاب: «الفرق بيني وبينك هو مفهوم الزمن، فهو عندك وعند أمثالك يسير إلى الأمام أما عندي أنا فهو يسير إلى الوراء لأنني المؤجل دائماً.

ـــ كيف ذلك وأنت ظلي وأنا اكتشفتك وكان بإمكاني ألا أفعل؟

ـــ أنا فعلاً ظلك وأكثر، لكنك عاجزة عن فهم آلية الظلال.

ـــ ماذا تقصد؟

ـــ ستفهمين هذه الآلية لاحقاً، ستفهمينها حتماً. أما الآن فدخني سيجارة وانسي الموضوع.

ـــ لماذا إصرارك الدائم على السيجارة؟

ـــ أنا لا أصر أبداً بل ألبي رغبتك فقط، فلو لم أقدمها لك لكنت قدمتها لي، لا تنكري.

أضحك لكلامه الصادق، لكنه لا يضحك ولم أره مرة واحدة يقهقه، فقط تلك الابتسامة الساحرة التي لا تفارق وجهه مهما تقلبت الظروف ومهما اختلفت مواضيع الحوارات بيننا.

ـ 23 ــ

في نهاية السنة الثالثة التي مرت كسابقاتها، تخرّجت بدرجة ممتازة وكنت عميدة الدورة في المعهد وهي الدورة الأولى للممرضين في لبنان . انتهت تلك المرحلة لتبدأ مر حلة جديدة من حياتي هي مرحلة العمل. سهّل لي موقعي الأول بين المتخرجين (كان في الدورة بعض الذكور) إيجاد العمل، مباشرة بعد تخرجي، في المستشفى الحكومي وهو مستشفى قائم في ضاحية بيروت الشرقية التي تسمى الكرنتينا . باشرت العمل وتسلمت مباشرة إدارة شؤون الممرضين فيه لأنهم كانوا كلهم متدربين وليسوا خريجي معهد متخصص. بسرعة، نظمت العمل وأصبحت المشرفة والمسؤولة عن كل القطاع الذي من دونه لا يعمل أي مستشفى مهما علا شأنه . نجحت جداً في عملي لأنني كنت أحبه فعلاً واستحوذت على إعجاب الجميع، ووجودي الفعلي وجدية عملي، غيرا كل سيا سة المستشفى الذي أصبح يستقطب أهم الأطباء وفي كل الاختصاصات. والمهم هو أنني بدأت أتقاضى مرتباً

محترماً، فاشتريت سيارة جديدة وزدت من إنفاقي على ولديّ. والأهم من كل ذلك هو أنني بدأت أشعر بنوع من الاستقلالية لم أكن أتمتع بها من قبل.

— 24 —

أما عماد فقد بقي على حاله من الصعود والهبوط، وموجات غضبه كانت كلها تنصبّ على وجّوه كأنه كان يقوم بعملية انزياح وتحويل في الموضوع ؛ فعوض أن يصب غضبه علي أنا لأنني أنا من كان يغيظه بنجاحاتي وتقدير الجميع لعملي، كان يصبه على وجيه، نقطة ضعفي. كان يستثيرني وينجح في إغضابي لأنني كنت أستنفر كالنمرة كلما فتح فاه مجرحاً بوجّوه وأهلي معاً. كل ذلك كان يزيد من الشرخ بيننا، واتساع الشرخ بيننا يؤدي بدوره إلى ازدياد توتر عماد، وتوتره وغضبه يزيدان بدورهما من اتساع الشرخ بيننا . هكذا

أصبحنا ندور في حلقة مفرغة لا أخرج منها إلا في محيط عملي الذي استحوذ على كل اهتمامي ونشاطي . أصبح عملي وأولادي سببي وجودي ومحركي كل قراراتي.

أما المبتسم فقد قلّت زياراته لي في تلك المرحلة . كان فقط يعانقني قبل النوم وأحياناً كثيرة كنت أغفو بين ذراعيه حيث الكوابيس كانت تشكل كل أحلامي وأستيقظ مبللة بالعرق وأغفو من جديد لأ دخل كابوساً آخر حتى يأتي الصباح، فأنسحب من بين ذراعيه وأنساه طوال النهار . هكذا أصبحت نهاراتي سعيدة ونشيطة ولياليّ تعيسة، سوداء . لكني صمدت وانغمست أكثر فأكثر في العمل وبخاصة أن العمل كان يغذي نرجسيتي ويرفع من معنوياتي بسبب تقدير الجميع له.

— 25 —

بعد مرور   سنة على وجودي في إدارة قسم التمريض في المستشفى الحكومي، تركّز عملي وانتظم وثبت موقعي وعدد الأطباء المشهورين الوافدين إلى المستشفى يزداد يوماً بعد يوم وبخاصة من كان منهم برفقة الطلاب الذين وصلوا إلى السنوات الأخيرة من دراسة الطب. يأتي الأستاذ الطبيب ومعه عدد من أطباء المستقبل ويجولون على المرضى . في هذا الإطار أتى أخي وسيم للتدرّب، لكنه أتى مع من لم أكن أتوقع مجيئه إطلاقاً، لقد أتى برفقة وإشراف الطبيب سمير الذي أعاد لي عذريتي منذ سنين قبل زواجي من عماد. حين رأيت الدكتور سمير تجمدت مكاني إذ رأيت المبتسم يمثل أمامي وامتزجت صورته بصورة والدي، لكنه اختفى بسرعة. أما الدكتور فقد دنا مني، وضع ذراعه على كتفي وقال:

ــــ لقد سمعت عن نجاحك في إدارة قسم التمريض وأنا فخور بك جداً، هيا رافقينا في جولتنا لمعاينة النساء اللواتي أجريت لهن عمليات نسائية.

لم أتلفظ بكلمة ورأيت نفسي أسير معهم من دون تفكير. سرت معهم وهو لا زال يضع ذراعه على كتفي كأنه يضمني إليه . شعرت بدفء غريب يلف جسدي ووددت أن يستمر في وضعيته تلك، لا بل وددت أن يعتصرني أكثر، لكنه، حين دخلنا غرفة المرضى، سحب ذراعه عن كتفي وبدأ يشرح للطلاب المرافقين له حالة كل مريضة وما هي العملية التي أجريت لها وأي علاج يجب أن تتابع . كان يشرح للطلاب ويسترق النظر إلي ونظراتي مسمرة به، لا أسمع حتى ماذا يقول.

— 26 —

طفنا على عدد من الغرف وفي النهاية قال سمير : «ألا تدعيننا لشرب القهوة؟ » وأتى جوابي مختصراً إذ قلت: «بكل سرور ». ناديت إحدى العا ملات في

المستشفى وطلبت منها ركوة من القهوة وتوجهت معهم إلى القاعة المعدّة لاستراحة الأطباء . جلس الطلاب حول طاولة كبيرة وبقيت واقفة، فأشار لي بيده أن أجلس بالقرب منه. جلست وكل جسدي متيقظ. أخذ يدي الممدودة أمامي على الطاولة، حدق بي جيداً وقال : «ما زلت جميلة جداً، لا بل أنت الآن أجمل من قبل، هاتِ أخبريني أين أصبحت وما هو وضعك الحالي».

— أولاً، شكراً على الإطراء، قلت بداية، ثم أخبرته أنني تزوجت وأنني أم لولدين وأسهبت في الكلام عن وجّوه ورلا . كان صامتاً ينظر إلي من دون تعليق، بينما كان الطلاب يتمازحون فيما بينهم . كنت أخبره عن حالي وألاحظ الشيب الذي بدأ يغزو شعره والذي أكسبه هيبة وجاذبية . بعد قليل انتبهت إلى نفسي وعملي، فقطعت حديثي ونظرت إلى ساعة يدي ثم نهضت من مكاني قائلة : «الآن أعتذر، عليّ متابعة العمل وإلا دبت الفوضى».

ـــ رافقتك السلامة. إلى الغد. قال ذلك وهو يشد على يدي.

خرجت من الغرفة وأنا أسمعه يردد: «إلى الغد، أراك غداً». خرجت من الغرفة مضطربة وتساءلت: «كيف أخبرته كل شيء عن حالي ولم أسأله عن حاله؟ ما هذا الانجذاب الذي شعرت به تجاهه؟ إنه حقاً وسيم جداً...». لم أكمل مساءلتي إذ نادتني إحدى الممرضات وانشغلت من جديد بأمور المستشفى. لكن صورته رافقتني طوال النهار.

ـ 27 ــ

في المساء، حين رأيت وسيم في بيت أهلي، سألته عن الدكتور سمير فأخبرني أنه لا زال من دون زواج «لكنه زير نساء» وأنهم، كطلاب يحبونه جداً لأنه، وعلى الرغم من فارق السن بينهم وفارق المكانة أيضاً،

يعاملهم كأصدقاء «لكنه يعرفك كما لاحظت، فهل التقيت به سابقاً؟».

ـــ منذ أكثر من عشر سنوات التقينا مرة في سهرة عند الأصحاب.

لم يعلق على كلامي وعدت إلى البيت برفقة رلا التي أصبحت في السادسة من عمرها . جلست إلى جانبي في السيارة وأخذت تخبرني عن المدرسة والمعلمة و ... كانت تخبرني وأنا شاردة أفكر بهذه الصدفة وبما فعلته بي.

دخلنا البيت وكان عماد ينتظرنا . استقبلنا بابتسامة عريضة، على غير عادته. لكني أصبحت أعرف تقلبات سلوكه جيداً ؛ فهو حين يريد ممارسة الجنس معي، يحاول ملاطفتي وكنت أستجيب لرغبته أحياناً كثيرة كي أتفادى الشجار. لبيت رغبته تلك الليلة كي أتحرر منه بسرعة وأعود إلى ذاتي . لكنني هذه المرة وخلال ممارستنا الجنس لم أره كما في السابق حيث تختلط صورته بصورة المبتسم، هذه المرة اختلطت صورته

بصورة الدكتور سمير، كان هذا الأخير هو من أمارس الجنس معه وليس عماد . كيف اجتاح سمير عالمي وهواماتي؟ لست أدري.

تركني عماد وعاد إلى غرفته كما لو استقرت الأمور بيننا منذ فترة طويلة، وعدت إلى سريري بعد زيارة الحمام والاغتسال. ارتميت على الفراش لأستعيد كل ما مررت به في ذلك النهار . تلك الاستعادة ردتني إلى زمن زيارتي الأولى إلى عيادة الدكتور سمير وكنت يومها برفقة خالتي هند . استوقفني بشكل خاص ما سمعته منه في ذلك اليوم حول التحرر الجنسي . هل هو متحرر فعلاً، أم أنه كان يعرض عضلاته أمامي؟ لكن لِمَ عرض العضلات وأنا لا أعني له شيئاً؟ هنا اندس المبتسم بالقرب مني ليقول : «قال ذلك في حينه لأنه أعجب بك وما قاله لم يكن إلا محاولة لإغوائك كأن القدر بلقائه من جديد قد رُسم منذ تلك اللحظة».

ـــ ماذا تقصد بهذا الكلام؟

ـــ أقصد أنه سيغير كل حياتك، معه ستجدين طعماً مختلفاً للحياة.

ـــ معه؟ تقصد الدكتور سمير؟

ـــ طبعاً أقصده هو.

ـــ ماذا تقول وأنا على ما عليه من ارتباط وزواج ومسؤولية و....

ـــ لا تكذبي، لقد لاحظت اضطرابك ونظراتك إليه وسمعت دقات قلبك المتسارعة حين رأيتِه.

ـــ أين كنت أنت؟ لم أرك.

ـــ أنا ظلك الذي لا يفارقك أبداً حتى ولو لم تريني، لا يفوتني تفصيل من حياتك مهما صغر أو توارى.

ـــ لقد أصبحت إنسى عاقلة ولا أنجرّ وراء ميولي ورغباتي. همي الوحيد هو أولادي ولا تهزني كل المغريات الخارجية.

ـــ ليس للعقل دور هنا، وللقلب أسباب لا يفهمها العقل، ألا تعرفين ذلك؟

ـــــ اصمت لقد تأخر الوقت، أريد أن أغفو لأستيقظ باكراً للعمل.

ـــــ تعالي بين ذراعي، لا أحد يحبك مثلي.

ـ 28 ــــ

لم أجبه، ابتلعت حبة منوم وغفوت عل   ى ذراعه ولأول مرة لم تحاصرني الكوابيس. غفوت بشكل عميق واستيقظت مرتاحة . حضرت نفسي وتأنقت أكثر من العادة. تناولت القهوة مع عماد الذي أثنى على تأنقي، وتبادلنا القبل قبل أن نفترق كل إلى عمله. ما قمنا به هذا الصباح لم يحدث بيننا إلا قليلاً سابقاً . أوصلت رلا إلى بيت جدها وأمضيت بعض الوقت مع وجّوه الذي أصبح شاباً مميزاً ووسيماً. ضممته إلى قلبي واستمعت إلى ما يريد قبل أن أذهب إلى المستشفى وكلي نشاط.

دخلت غرفتي، ارتديت المريول الأبيض ووزعت العمل على زملائي كالعادة . لكن شيئاً في داخلي كان يضج بالاندفاع وقد لاحظ الجميع تغيري وأحدهم عبّر عن ملاحظته قائلاً: «ما هذا النشاط اليوم سيدة حياة؟ ». حين سمعت كلامه انتبهت إلى نفسي وأجبته بكل جدية : «هيا إلى العمل، المرضى ينتظروننا ». كنت في الواقع أنتظر مجيئه.

في تمام الساعة العاشرة وقبل موعده بساعة كاملة، فاجأني . رأيته بالقرب مني و هو يربت على كتفي، قال : «صباح الخير يا أجمل ممرضة رأتها عيناي».

ــــ لماذا أنت وحدك، أين الطلاب؟

ــــ إنهم آتون الساعة الحادية عشرة، كما اتفقنا في الأمس.

ــــ و.....

ـــ أنا أتيت باكراً كي ألقي نظرة على ملفات المرضى قبل جولتنا عليهم. هيا أعطني الملفات.

دخلت معه إلى ال غرفة حيث تحفظ الملفات، أخرجت عدداً منها، وضعتها على الطاولة أمامه وهممت بالخروج . أمسكني من يدي وأجلسني بالقرب منه قائلاً: «لا تذهبي، أريد مراجعة هذه الملفات معك، ربما احتجت إلى بعض التوضيحات ». لم أمانع، كنت كالآلة بين يديه أنفذ ما يطلبه مني من دون تفكير.

ـــ ألا تطلبين القهوة؟

طلبتها وجلست أراقبه وهو يفتح الملفات ويقلبها . لم ينظر إلي ولم يطلب أي توضيح . حين انتهى وكانت القهوة قد وصلت، أعاد الملفات إلى مكانها وعاد إلى مكانه بالقرب مني . بدأنا شرب القهوة بصمت، لكنه صمت لم يدم طويلاً إذ كسره قائلاً: «ما هذه الصدفة؟ لم أكن أتوقع رؤيتك مجدداً على الرغم من أن صورتك لم تفارق خيالي يوماً ». حولت نظري عنه وشعرت أن دقات قلبي تزداد، كنت أسمعها تطن في أذني وخفت من

انفضاح أمري، حاولت الإجابة بأي كلام، لكني عجزت عن ذلك، فتابع آخذاً يدي : «إنه القدر. لقد غيرتِ حياتي منذ رأيتك مع خالتك. منذ ذلك الوقت وأنا ابحث عنك في كل النساء اللواتي عرفت ». ووجدت نفسي أجيبه بشكل أبله: «وقد عرفت الكثير، كما نمي إلي».

ـــ أكثر مما تتصورين، لم أترك إنسى جميلة إلا وحاولت التقرب منها، لكني حتى الآن لم أجد ما أبحث عنه فيهن إلى أن عدت ورأيتك البارحة . حين رأيتك أدركت أنني أمضيت عمري أبحث عنك . أما الآن وقد وجدتك فلن أتركك تفلتين من يدي مجدداً.

ـــ لكن تعرف أنني...

ـــ أعرف كل شيء عنك ولا حاجة للكلام . إنها المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالحب.

ـــ وبهذه السرعة؟

ـــ لا، فهذه السرعة التي تتكلمين عنها ليست إلا لحظة تحقق الحلم الذي راودني طوال حياتي.

— 29 —

سمعنا ضجة في الخارج، فقال بسرعة : «نتناول الغداء معاً اليوم ». لم ينتظر جوابي، بل تابع : «هيا رافقينا، لقد أتوا . نهض من مكانه وتوجه نحو الباب، فتحه ورأيت وسيم يتقدم رفاقه الذين تجمعوا حول الدكتور سمير . حياهم ورفع يد ه باتجاهي وهو يقول : «هيا رافقينا وأرجوك أن تجلبي الملفات معك».

أخرجت الملفات من مكانها مجدداً وتبعتهم من دون أن أتابع ما يقولون . كنت غارقة في ذاتي أتساءل : «ماذا يحدث معي؟ ما هذا الضجيج الذي أسمعه في داخلي؟» وسمعت المبتسم يقول : «هل صدقتني الآن؟ ألم أقل لك ف ي الأمس إنه سيغير حياتك . أنت أيضاً معجبة به على الرغم من مكابرتك». لم أجبه، بل أجبت نفسي: «صحيح إنني ...» وسمعته يقول : «لقد انتهت الزيارات، أدعوكم جميعاً إلى الغداء ». علت أصوات

الطلاب بالهرج وصفقوا، لكنه تابع : «جميعاً يعني جميعاً، سترافقنا الست حياة».

ـــ لا شكراً، لدي عمل ولا أستطيع مغادرة المستشفى.

ـــ لكن لديك فرصة لتناول الغداء على ما أعتقد، هيا سترافقيننا.

لست أدري كيف قبلت الدعوة ورأيت نفسي أخلع المريول الأبيض وأسلم العمل إلى إحدى الممرضات لأنقاد وراءه.

ـــ تعالي معي، قال وسيم، لا تأخذي سيارتك.

ـــ لا، تذهب معي أنا، أجاب سمير وهو يفتح باب سيارته ويدعوني للدخول وقد تابع، متوجهاً إلى الطلاب: «نلتقي في مطعم...الساعة الواحدة تماماً».

جلست بالقرب منه، لا أدري ماذا يحصل معي ولمحت المبتسم من بعيد وهو يلوح لي بيده . حولت نظري عنه إلى الدكتور سمير، فشعرت أنه متوتر يقود

سيارته بنوع من العصبية ولم أجد ما أقوله سوى الآتي : «أكانت ضرورية هذه الدعوة؟ » ضحك بانفعال وقال : «أكثر من ضرورية، اليوم دعوت الجميع كرمى لعينيك ولعدم إحراجك، أما لاحقاً فسنكون وحدنا».

ـــ ما هذه الثقة بالنفس؟ من قال لكَ إنني سألبي دعواتك؟

ـــ عيناك، وأنا أفهم لغة العيون.

ـــ ولذا يسمونك زير نساء.

ـــ تشدني الإنسى وقد عاشرت الكثيرات، لكني لم أشعر يوماً بما أشعر به الآن . حين رأيتك مجدداً فُتحت صفحة بيضاء في ملف حياتي.

ـــ لتُطْوَى كما طويت سابقاتها . لن أسمح لك أن تحولني إلى صفحة من صفحات كتاب حياتك.

ـــ وهو كذلك، ستملئين كل الصفحات الباقية.

ـــ أليس هذا ما تردده لكل إنسى تريد إغواءها؟

ـــ لم أقلها لأي إنسى، صدقيني . أخذ يدي، قبلها وتابع: «سترين».

وشوش المبتسم في أذني : «ما تقولينه، ربما كان الحقيقة، لكن ما المانع من القيام بمغامرة معه وبخاصة أنك غير سعيدة مع عماد؟».

ـــ اصمت، لا أريد نصائحك.

ـــ مع من تتكلمين؟ سألني سمير.

ـــ لا شيء، لقد فكرت بموضوع آخر.

ـــ على كل حال لن أستعجل الأمور، سأراعي ظروفك، اطمئني.

ظللت صامتة إلى أن وصلنا إلى المطعم حيث تناولنا الغداء وأعادني الدكتور سمير إلى مقر عملي . لكن في طريق الإياب لم يتكلم كما في طريق الذ هاب، بل اكتفى بالتعليق على ما حدث أثناء الغداء . كان مرحاً ومليئاً بالحيوية. كنت مضطربة ومسكونة بالقلق.

— 30 —

انتهى ذلك النهار وعدت إلى بيتي بعد أن عرجت على بيت أهلي كالعادة . في البيت رتبت أمور رلا وتركت عماد وحده مدعية التعب وأويت إلى فراشي باكراً. لكن من أين للنوم أن يأتيني وأنا على هذه الحالة من التوتر؟ وكما في العادة حضر المبتسم إلى جانبي وهو صامت . كان فقط ينظر إلي ويبتسم . خرقت الصمت وسألته:

— ما رأيك، هل يراني الدكتور سمير صيداً سهلاً لأنه هو من رد إليّ عذريتي قبل الزواج؟ هل يعتقد أنني من بنات الهوى الرخيص؟

— ربما، لكنه لم يكلمك عن مغامرة بل كلمك عن الحب.

ـــــ ورائد كلمني عن الحب في حينه وتعلم ماذا جرى بيننا.

ـــــ هل يذكرك برائد؟

ـــــ وبوالدي أيضاً.

ـــــ كيف؟

ـــــ ما أشعره نحوه هو مزيج لا أجيد قراءته بوضوح. لكن لست أدري لماذا شعرت بأبوته نحوي غير أنها أبوة إيروسية إ.rotisée

ـــــ هل أن فارق السن بينكما هو الذي دفعك باتجاه هذا التفكير؟

ـــــ ربما، لكني أرى في عينيه عطفاً أكبر وأشمل من مجرد الحب.

ـــــ وماذا عن عماد؟

ـــــ تعرف أنه لا يعني لي شيئاً وأن استمراري معه هو لإنقاذ الأولاد فقط.

ـــ إذاً ماذا تنتظرين؟

ـــ وماذا أفعل؟

ـــ سيري وراء م شاعرك وأنا أعرف أنك بدأت تحبين سمير. إن نجحت العلاقة فهذا جيد وإن لم تنجح، فلا يتغير وضعك الحالي.

ـــ تعرف أنني لن أطلب الطلاق الآن، فكيف ستستقيم علاقتي بسمير؟

ـــ لا تغوصي الآن في التفاصيل، فسوف تنتظم تلقائياً إن سارت الأمور بينكما كما ترغبين.

ـــ تعني أن أعيش حياة موازية لحياتي الحالية؛ حياة في السر وحياة في العلن؟

ـــ ولمَ لا؟ أتعتقدين أنك الإنسى الوحيدة التي تقوم بذلك. أكثرية نساء البلد يمارسن ما أنت خائفة منه الآن.

ـــ اتركني، لا أريد استعجال الأمور، الخوف يشلني ويشل قدرتي على التفكير، اتركني.

لم يتركني، غمرني بذراعيه وغفوت لأحلم برائد وأصحو على ترداد كلمات: «انصرف أيها النذل».

— 31 —

تتالت لقاءاتي بسمير وأصبحت أنتظر مجيئه إلى المستشفى كل يوم وهو لم يخيب انتظاري يوماً واحداً حتى أنه كان يأتي أحياناً وحده من دون الطلاب ليقوم بعمل تطوعي. يزور المرضى بسرعة ونجلس معاً في مقهى المستشفى لفترة ثم ينصرف لنعود ونلتقي على الغداء في أحد مطاعم العاصمة . هكذا ومع تتالي اللقاءات بيننا بدأت أشعر أنني أحبه فعلاً وأنه هو الشخص الذي سيملأ حياتي. لكن هذا الوضع لم يرحني، بل زادني قلقاً وبدأت أشعر أنني أحمل سراً يرهقني وبات من الضروري البوح به لأحد علني أخرج من ارتباكي، وأدخل المجتمع من جديد.

لمن أبوح بسري وليس لي أصدقاء حميميّون؟ هل أخبر والدتي وأستغل كرهها لعماد؟ حتماً لا، لأنها وعلى الرغم من كرهها لصهرها لن توافقني الرأي. هل

أخبر والدي أو أخي و سيم؟ حتماً لا لأنني أعرف مسبقاً موقفهما، فهما وإن كانا، افتراضاً، مؤيدين لموقفي، فحتماً لن يعترفا، بل على العكس، سيحاولان إقناعي بأنني مخطئة . لم يبق أمامي سوى خالتي هند . إنها حاملة سري منذ البداية وهي إنسى متحررة وذكية . لكن ماذا سأقول لها؟ هل من المعقول أن تشجعني على الاستمرار مع سمير؟

تحينت الفرصة المناسبة، التقيت بهند على انفراد وأخبرتها. ابتسمت ابتسامة عريضة معبرة وقالت : «كنت متأكدة أن هناك أمراً ما يشغلك ويسعدك معاً، لكنني لم أسألك عن السبب، كنت أراقب سلوكك فقط وحدست أنك عاشقة لأن جسدك يضج بالأنوثة هذه الأيام ونظراتك كلها بريق وحيوية، وهذا التغير لا يأتي إلا في حالات العشق . هيا اعترفي، من هو سعيد الحظ؟».

لم تناقشني الموضوع إطلاقاً، اعتبرته أمراً واقعاً، علينا التعامل معه بكل بساطة. هل هي واسعة الذهن إلى

هذه الدرجة أم أنها تمثل كي تستدرجني إلى الكلام والبوح؟ لكنها تابعت : «اعشقي وعيشي حياتك كما تريدين. أنا لا أطيق عماد وأكرهه أكثر حين أرى سلوكه الفج مع وجّوه حبيب قلبي . اعشقي عليه، فهو لا يستحق سوى الاحتقار والإهمال. يكفي أنك مستمرة معه غصباً عنك وتنقذين وجهه أمام الناس . هيا أخبريني من هو».

ــــ تسألين كما لو كانت الأمور محسومة و...

ــــ لا تكملي، أرجوك، ولا تراوغي، من هو؟

ترددت قليلاً ثم نطقت اسمه وتابعت : «هل تذكرينه؟».

ــــ طبعاً أذكره جيداً وقد التقيت به عدّة مرات .... كان دائماً يسألني عنك وعن أوضاعك.

ــــ صحيح، كان يسأل عني؟ إذاً صحيح أنه كان دائم التفكير بي، إنه لا يكذب. لكني لا أعلم شيئاً عن وضعه هو.

ـــ قد ظل عازباً بعد طلاقه . على كل حال، زواجه لم يدم طويلاً . أما أنت فلماذا لا تعشقين إلا من هم أكبر منك سناً؟ ما هذا الميل عندك؟

ـــ لست أدري لماذا أشعر بالأمان معهم على الرغم من أن ذلك النذل رائد...

ـــ لا تذكري اسمه، إنه م ن الساقطين المنحطين. لنعد إلى سمير، هل يعجبك فعلاً؟

ـــ تعجبني شخصيته وذكاؤه وسعة ثقافته وثقته بنفسه و...

ـــ إعجاب فقط أو...؟

ـــ لقد تحول الإعجاب مؤخراً إلى حب . أعترف أنني أحبه وهو يحبني.

ـــ هو يبحث عن ابنة ليست ابنته ليعشقها وأنت تبحثين عن أب ليس أباك لتعشقيه . لقد التقيتما على موجة واحدة حيث كل واحد منكما يجسد رغبة الآخر الدفينة. صمتت قليلاً ثم تابعت : «المهم هو أن يكون

صادقاً معك. تابعي معه، لكني أنصحك بعدم التورّط قبل التأكد من النوايا». صمتت من جديد كأنها تفكر بأمر ما، لكنها تابعت كأنها تحدث نفسها : «حتى ولو ك انت مغامرة عابرة، فما المانع؟».

ـــ ماذا تقولين؟ هل سمعتُ جيداً؟

ـــ أقول ما أنا مقتنعة به . حياتك مع عماد جحيم ولا كلام بينكما سوى الشجار ومع ذلك تضطرين لممارسة الجنس معه فقط لأنه، شرعاً، زوجك . إن الممارسة هذه ليست، بنظري سوى خيانة للذات ونوع من أنواع الزنا . اتركيه وتابعي حياتك . أنا ضد الازدواجية والحياة في السر.

تابعت نظريتها عن الجنس والحب وأنا صاغية لا أصدق ما أسمعه . كنت أعرف انفتاحها وذكاءها و ... لكني ذهلت بصدقها مع نفسها وكيف أن ما تقوله ليس قولاً فارغاً مدّعياً كما يتهمها البعض. قلت:

ـــ تشجعينني، هل أصدق ما أسمع؟

ـــ لا أشجعك بالمعنى الذي تفهمينه، بل أضع أمامك آرائي وأنت حرة في اختيار ما ترين نفسك قادرة عليه.

ـــ لو كنت مكاني فماذا تفعلين؟

صمتت طويلاً، ترددت ثم قالت : «لو كنت مكانك لسرت في دربي».

ـــ يعني؟

ـــ يعني لكنت مارست الحقيقي وتجنبت المزيف، والحقيقة الوحيدة في حياتك الزوجية هي الأولاد، وجّوه ورلا. ماذا يبقى من زواجك لولاهما؟ أنت أمهما ولن تتركيهما مهما تغيرت الظروف . الإنسى لا تُهمل الأولاد إطلاقاً. هي تجازف بزوجها وبكل شيء لكنها لا تجازف بأولادها . تترك زوجها أحياناً لكنها لا تترك أولادها. وأنا أعرف مدى تعلقك بهما ومطمئنة إلى أنك لن تهمليهما أبداً مهما تقلبت ظروف حياتك . حين تعشق الإنسى غير زوجها فهي قادرة على الابتعاد عنه، لكنها

تحافظ على أولادها، بينما هو، حين يعشق غير زوجته، يهمل الزوجة والأولاد معاً . اعشقي وأحبي، فمن الظلم أن تستمري في حياتك كما هي الآن. ما زلت صبية ولك الحق بالتمتع بالحياة.

ما هذه المزايدة التي لم أكن أتوقعها؟ لكنها تابعت : «ولداك هما أعز ما عندي في هذه الدنيا، سأساعدك في الاعتناء بهما، لا تخافي».

— 32 —

دخل عماد وقطع الحديث بيننا . لم يكن يكره هند بقدر ما كان يكره أمي الست هلا كما يسميها . رحب بهند وجلس معنا قليلاً قبل أن تنصرف خالتي وأبقى وحدي معه. أول ما قام به بعد انصرافها كان أن نهض من مكانه، حمل المنفضة المليئة بأعقاب السجائر، نظر إلي بابتسامة لئيمة وذهب إلى المطبخ حيث أفرغها في

سلة النفايات قبل أن يعيدها إلى مكانها . لكنه كان لطيفاً فيما بعد، فتناولنا العشاء معاً ورافقني إلى غرفة النوم حيث تعرى وتمدد إلى جانبي . مارسنا ما كنا نمارسه سابقاً لكن هذه الممارسة كانت مختلفة عن سابقاتها القليلة إذ إنني، خلال الممارسة تلك لم أشعر إطلاقاً بعماد، حتى أنه غاب عن بالي كلياً . والغريب في الأمر أن من احتل مخيلتي في تلك اللحظات كان صورة رائد وليس المبتسم كالعادة مما دفعني إلى التساؤل : «هل علاقتي بسمير ستكون كعلاقتي برائد ومن أين أتى هذا الأخير ليحتل كل هواماتي؟ ». المهم هو أنني، شعرت تلك الليلة، أنني لا أمارس الجنس مع عماد وفكّرت بما سمعته من هند حول خيانة ال ذات والزنا . تركني عماد بعد أن أشبع رغبته مني وعاد إلى غرفته، تركني لأفكاري وتحليلاتي التي شاركني فيها، طبعاً المبتسم الذي حضر كالعادة ليقول:

ـــ كنت أراقب هواماتك وأنت تمارسين الجنس مع زوجك، رأيت رائد ورأيتك تمارسين الحب معه.

ـــ ماذا يعني ذلك ولماذا رائد؟

ـــ استحضرت رائد لأنك لا تجسرين على استحضار من ترغبين به فعلاً، أي سمير . حاولت إسقاط صورة رائد على سمير كي تستبعديه . أنت جبانة حتى في هواماتك، لكنني سأتصرف، أنا من يعرف كيف تدار أمور الحياة. قال ذلك وانصرف تلك الليلة ولم يطوقني بذراعيه كالعادة. وحين استيقظت في الصباح لم أتذكر أي حلم.

ـ 33 ـــ

تتالت الأيام والحالة لم تتغير في البيت ومع الأولاد والأهل، لكنها لم تستمر على حالها في إطار عملي حيث كنت ألتقي سمير الذي بدأ يظهر اهتمامه بي من

دون مداراة، حتى أن الجميع في المستشفى أصبح يعلم أننا صديقان، لا بل حبيبان.

علم وس يم بالأمر لأنه كان يعمل في جو المستشفى، لكنه لم يسألني مباشرة عما يعلمه. ربما أفاده ذلك الوضع، لأن سمير أخذ يعامله كزميل وليس كمتدرب أو تلميذ، وأحياناً كثيرة كان سمير يدعوه معنا إلى الغداء أو غيره . ربما كان وسيم يعتقد أو يريد أن يعتقد أن علاقتي بسمير هي مج رد صداقة. لم يفاتحني يوماً بالموضوع. وأنا، طبعاً لم أقل له شيئاً.

— 34 —

في نهاية السنة تخرج وسيم من كلية الطب وشارك في مباراة للالتحاق بإحدى الجامعات الأميركية ونجح . ترك والدي وحدهما مما زاد من تعلقهما بي وبوجّوه ورلا وأصبحنا نقضي أغلب أوقاتنا، بعد العمل

والمدرسة، عندهما . أما عماد فكان يمكث في البيت ويزورنا بين وقت وآخر . هكذا بدأ يخرج وحده مع أصحابه وزملائه في العمل، وأخذت علاقتنا تبرد أكثر فأكثر إلى أن أصبحت كالجليد، شبه منقطعة . كان ما زال زوجي ويحق له بطلبي للعيش معه، لكنه لم يفعل وغرق في أجواء أصحابه وتعرف إلى إنسى من محيطه وبدأ يخرج معها من دون أن يعلمني بذلك. حين علمت، وعلى الرغم من كرهي له وعدم اكتراثي به، امتعضت وشعرت بنوع من الغيرة التي لا تشبه الغيرة بقدر ما هي إحساس بالكرامة المجروحة ؛ فأنا ما زلت زوجته وكان عليه أن يحترم موقعي.

لكن هذا الشعور ردَّني إلى ذاتي وتساءلت: «وماذا عن علاقتي أنا بسمير؟ ألست أنا البادئة؟» وأتاني جواب المبتسم: «هيا افترقا، لقد حان الوقت وتوفرت الظروف».

ـــ والأولاد؟ لن أتخلى عنهما أبداً ومهما حدث.

ـــ لن يطالب بهما، اطمئني، فهو مشغول ووجودهما معه يزعج تحركاته وحياته.

لم يطل الوقت وعلم والداي بالموضوع وشجعتني والدتي على طلب الطلاق . أما والدي، وكعادته، حاول ومعه والد عماد إصلاح الأمور، لكنها لم تصطلح وباشرنا عملية الطلاق الذي أنجز بسرعة.

خرج عماد من حياتي وانحصر دوره بتأمين قليل من المال لإعالة ولدينا وبزيارتهما له بين وقت وآخر . أما الغريب في الأمر فهو أن وجّوه الذي كنت أتوقع تأييده للموضوع بسبب سوء معاملة عماد له، كان الأكثر تأثراً وأصبح هو الذي يطالب بزيارة والده حتى ولو عاد من الزيارة منزعجاً . رلا لم تنزعج إطلاقاً، على عكس ما توقعت لأنها كانت الطفلة المدللة لدى والدها.

— 35 —

بعد انفصالي عن عماد انتقلت مع ولديّ، وبتشجيع من والدي ووالدتي، للعيش في بيت أهلي . هذا الوضع الجديد أفرح الأولاد لأنهما كانا شبه مقيمين في بيت جديهما من قبل وزاد في فرحهما أنني سأمكث معهما أكثر من السابق. ارتاح الوضع وقد ساهم والدي كثيراً في ملء الفراغ الذي يتركه، عادة، غياب الوالد. أما هند فقد أصبحت، هي الأخرى، شبه مقيمة معنا وتغرق الأولاد بالحنان والهدايا . كانت تمكث معنا إلى ساعة متأخرة من الليل قبل أن تعود إلى بيتها. أحياناً كانت تنام في بيت أختها وأحياناً أخرى كانت تأخذ وجيه معها وبخاصة في نهاية الأسبوع . ازداد تعلقها بالأولاد وبخاصة بوجّوه الذي بدأ يرى فيها هو أيضاً أماً أو جدة ثانية.

استقرت حياتي وانتظمت لقاءاتي بسمير وتعمقت العلاقة بيننا وعشت معه أمتع اللحظات. لكننا لم نتزوج ولم يقارب أحد منا الموضوع إطلاقاً، كأن اتفاقاً ضمنياً عقد بيننا للاستمرار على ما نحن عليه. هنا لعبت هند

دوراً مهماً إذ أقنعتني بأن العلاقة الحرة، من دون قيود الزواج تترك لي حرية التصرف وتضفي على العلاقة المتعة وتساعدها على الاستمرار.

— 36 —

لم تستمر الحياة نعيماً إلا لفترة قصيرة . لم تتغير بالنسبة إلينا، نحن العائلة الصغيرة، بل تغيرت با لنسبة لكل اللبنانيين، فالحرب التي عصفت بلبنان سنة 1975 لم تترك شيئاً أو بشراً على حاله . من بين الأشياء التي دمرتها الحرب كان المستشفى الذي كنت أعمل فيه. دمر المستشفى وشرد المرضى والموظفون . انقطعوا عن العمل وتوقفت أجورهم. في الوقت ذاته توقفت الشركة التي كان يعمل فيها عماد عن العمل وصُرف موظفوها مما دفع بعماد إلى الانقطاع عن دفع ما كان متوجّباً عليه للأولاد. ضاقت الحالة جداً وأصبح سمير ووالدي

وهند يساعدونني لتوفير الحد الأدنى من حاجات الأولاد من مدارس وكساء وطعام وما إلى ذلك، الأمر الذي رماني في حالة من الشعور بالدونية لم أستطع تقبله.

لكن الوضع لم يطل كثيراً، وقبل أن أغرق في الإحباط والانهيار، أتاني سمير، يوماً، ولديه عرض للعمل في منظمة الصحة العالمية لأنها بحاجة ماسة إلى ممرضات وخبيرات بالأمور الصحية . قبلت العرض من دون تردد على الرغم من أن شروطه لم تكن سهلة إذ كان علي السفر الدائم إلى بلدان مختلفة ومتخلفة لتوعية أهلها وتدريبهم على تطبيق المبادئ الصحية الضرورية. هذا من جهة، أما من الجهة الثانية فكانت المكافآت مغرية جداً. دخلت المنظمة كخبيرة.

— 37 —

بحثت عن المبتسم في تلك المرحلة فلم أجده، هو الذي كان دائم الحضور، يجالسني كلما كنت وحدي. أين رحل عني؟ لست أدري . لكني لم أفكر طويلاً به إذ غرقت في تحضير ما يلزم للسفرة الأولى وكانت إلى اليمن، هذا البلد الذي بقي في ذاكرتي كأحد أجمل بلدان العالم.

عشية سفري إلى اليمن، كنت مع سمير أستودعه لأننا سنفترق لمدة شهر تقريباً وقد أوصيته بأن يتصل بهند التي أصبح يعرفها جيداً من خلال لقاءات سابقة بيننا، ليطمئن على وجّوه ورلا.

ــــ الأولاد في وضع جيد عند أهلك وهند لن تبتعد عنهما أبداً وأنا سأهتم بكل ما سيحتاجان إليه أثناء غيابك. اذهبي مطمئنة.

أوصلني تلك الليلة إلى بيت أهلي وانصرف . بعد أقل من ساعة اتصل بي ليقول إنه هو الذي سيرافقني إلى المطار. كنت أتوقع ذلك من غير أن أطلبه . شكرته وأويت إلى فراشي لأبحث عن نوم لم يأت أبداً وأمضيت

الوقت أتفقد وجّوه ورلا، أقبلهما وأبكي . في الصباح ساعدتهما في ترتيب أمورهما وأنا أضغط على نفسي كي لا أنفجر بالبكاء . لكن بعد رحيلهما إلى المدرسة انهرت وأخذت أبكي بانفعال كبير . تدخل والدي قائلاً : «إن كنت لا ترغبين في السفر فالغيه وأنا سأتكفل بكل شيء، لا تهتمي ». ضمني إليه وتابع : «أنت ابنتي الوحيدة وولداك هما أعز ما عندي، إن كنت تسافرين غصباً عنك ولتأمين المال فقط فباستطاع تك الاتكال علي، ثم إنك ستجدين هنا عملاً لأن المستشفيات بحاجة ماسة إلى مثيلاتك من صاحبات الخبرة العالية».

— 38 —

لم يُتح لي أن أفكر بما قاله والدي، إذ حضر سمير ومعه تكسي. رافقته وعيناي مليئة بالدموع. حين جلست إلى جانبه في المقعد الخلفي للسيارة، أخذ يدي وقبلها، ثم

وضع ذراعه على كتفي، ضمني إليه وقال : «لن أتركك تسافرين وحدك، سأذهب معك وقد حضرت كل ما يلزم لذلك». تسمر نظري على وجهه وشُلّ لساني فابتسم وتابع: «أنا أيضاً متعاقد مع منظمة الصحة العالمية وأنا الآن رئيس البعثة إلى اليمن».

ـــ لا أصدق، لماذا لم تخبرني من ق بل؟ وهل صحيح ما أسمع؟

اعتصرني وهو يقول : «أتعتقدين أنني قادر على فراقك وتركك تذهبين وحدك في مثل هذه الرحلات الصعبة؟». ثم أخبرني كيف تعاقد مع المنظمة وكيف سعى لإقناع المسؤولين فيها بضرورة القيام ببعثات من هذا النوع الإرشادي إلى المناطق المتخلفة في العالم و...كنت أستمع إليه ورأسي على كتفه وكلي سعادة بهذه المفاجأة التي كانت الأهم في حياتي.

وصلنا إلى المطار وتكفل سمير بإجراء كل المعاملات قبل أن نصعد سلم الطائرة .. هنا حدث ما لم أتوقعه أبداً ؛ ما إن دسنا الدرجة الأولى من السلم حتى مثل المبتسم أمامي، حضر واح تل مكان سمير الذي ما عدت أراه. أصبح المبتسم هو الذي يصعد معي السلم . تأبطت ذراع سمير وسرت مذهولة خائفة وأسمع المبتسم يقول: «مهلاً، مهلاً، هذه المرة ستقع الطائرة ». كانت هذه المرة هي الثانية التي أركب فيها الطائرة، المرة الأولى كانت مع عماد حين ذهبنا لتمضية ش هر العسل. لفني الخوف ودخلت الطائرة وراء سمير وأنا أرتجف. وصلنا إلى مقعدينا، وضع سمير ما كنا نحمله بأيدينا في الخزائن المخصصة لذلك وجلسنا . جلس هو في مقعده، أما أنا فقد جلست في حضن المبتسم الذي كان يحتل مقعدي. أخذ سمير يدي.

ـــ ما بك ترتجفين؟ هل أنت خائفة؟

ـــ جداً. قلتها وأنا أرى وجه المبتسم يجتاح وجه سمير. كانت ابتسامتهما واحدة.

ـــ لا مجال للخوف، وإن حدث شيء ما فسنموت معاً.

ـــ وأولادي؟ قلتها بصوت عال وانفجرت بالبكاء.

ـــ لن يحدث أي مكروه، اطمئني . ضمني إليه قبلني وقال: «اربطي الحزام ستقلع الطائرة».

ربطت الأحزمة، كا نت ذراعا المبتسم تلفاني . تحركت الطائرة وأقلعت وأنا في شبه غيبوبة أشد على يد سمير الذي، بعد وقت قصير، سمعته يقول : «انتهى الأمر، لقد أقلعت الطائرة بسلامة وزال الخطر ». زال الخطر فعلاً وأمضينا ساعات نتحادث خلالها بشتى المواضيع، لكن صورة المبتسم لم تغرب عن نظري ، كنت أجلس في حضنه وفي الوقت ذاته كان قابعاً أمامي، كيفما وجهت عيني رأيته.

— 40 —

وصلنا إلى صنعاء وتوجهنا إلى الفندق حيث حجز لكل منا غرفة . أوصلني سمير إلى غرفتي وانصرف ليضع حقيبته في الغرفة المخصصة له. لم يطل الغياب، عاد حاملاً كل عدة النوم وأمضينا الليل م عاً. كانت المرة الأولى خلال علاقتنا التي ننام في غرفة واحدة وفي سرير واحد. كانت ليلة ممتعة أمضيتها بين ذراعيه. في الصباح تركني لأحضر نفسي قبل المباشرة بالعمل . حين التقينا في هول الفندق كنا خمسة ؛ أنا وسمير وثلاثة آخرين من بلدان مختلفة.

غفوت الليلة الأولى ب ين ذراعي سمير الذي أحاطني بكل دفء وحنان وحب، وتكررت تلك الليلة مرات ثلاثاً قبل أن يعود المبتسم. في الليلة الرابعة وبعد أن مارسنا الحب، حضر أمامي واندس بيننا في السرير ورأيت نفسي أردد ما أسمعه منه:

ـــ ماذا يفعل الأولاد؟ ربما كان أحدهما مريضاً.

ـــ وما المشكلة؟ يجيب سمير، كل الأولاد يمرضون ويشفون وينتهي الموضوع.

ـــ ربما وقعت رلا وجرحت رأسها.

ـــ لماذا هذه الأفكار السوداء؟ سنتصل بهم غداً وتطمئنين.

قفزت من السرير وأخذت أتمشى إلى أن دعاني المبتسم للجلوس مقدماً لي سيجارة ما كدت أنتهي من تدخينها حتى قدم لي الثانية.

ـــ لماذا كل هذا الإسراف في التدخين؟ سألني سمير، إنه يؤذيك ولا يحل أي مشكلة.

ـــ لكنني متوترة جداً وخائفة، وردّدت الكلام الذي أسرّه المبتسم في أذني : أنسيت أن البلد في حالة حرب؟ يا إلهي ماذا لو هاجمهم أحد؟

ـــ المنطقة التي تسكنون فيها هي آمنة جداً، ثم إن والدك رجل وا عٍ ويعرف كيف يتصرف . هيا اخرجي

من القلق وعودي إلى السرير، إلى قلبي . عدت إليه، لكني لم أنم تلك الليلة، كنت أتحدث مع المبتسم الذي زرع الرعب في داخلي.

لست أدري كيف أتى الصباح واتصلت بلبنان . تكلمت مع والدي ووالدتي ومع وجّوه ورلا وكرّرت سؤالي عدة مرات حول صحتهما . اطمأننت عليهما وقمت بعملي بشكل جيد. تتالت الاتصالات بهما كل يوم لأن المبتسم كان دائم الحضور ليخبرني إنّ أحدهما قد أصيب بسوء ما.

— 41 —

انقضت تلك المهمة التي دامت شهراً كاملاً وعدنا إلى لبنان. عدنا ليبدأ سمير بالتحضير لمهمة ثانية في بلد آخر. وهكذا تتالت ا لمهمات وانتعش وضعي المادي الذي سمح لي أن أقدم لولديّ كل ما يطلبانه. لكن المبتسم

كان يرافقني دائماً ويجعلني أعيش القلق الذي كان ينعكس سلباً على علاقتي بسمير. لكنه كان واسع الصدر ويستوعب كل تقلباتي بحب كبير ويردد : «قلقك غير مبرر. هل صدق حدسك مرة؟».

نعم لقد صدق المبتسم مرة حين أخبرني إن رلا وقعت وكسرت رجلها . نهرته يومها، واتهمته بالكذب كالعادة، لكنه كرّر ما قال ولاحقني كل ذلك اليوم وهو يردد: «رلا وقعت وكسرت رجلها ». ضاق صدري وأخبرت سمير عما يشغل بالي، فما كان منه إلا أن طلب بيت أهلي وأعطاني السماعة : «هيا تكلمي معهم وارتاحي». كنا في ذلك الوقت في التشاد وكان الوقت قبل الظهر في بلدنا.

ـــ هل كلكم بخير؟ سألت والدتي التي ردّت على الهاتف.

ـــ كلنا بخير، وأنت؟

ـــ ورلا؟

صمتت والدتي قليلاً ثم قالت : «إنها الآن بخير وهي معي في البيت».

ـــ لماذا هي في البيت؟ لماذا لم تذهب إلى المدرسة؟ سألت بصوت عالٍ ومنفعل . وسمعت صوت والدي يصرخ: «لماذا قلت لها إن رلا في البيت؟». حين سمعته فقدت صوابي وصرخت بدوري : «هيا أخبريني ما بها رلا؟ ». لكن هذه المرة كان والدي هو الذي أجاب: «رلا بخير الآن، لقد وقعت ولوت يدها وقد سوي الأمر، تكلمي معها ». وسمعت صوته ا وهي تقول: «ماما اشتقت إليك».

ـــ وأنا يا حبيبتي، لكن أخبريني ما بك؟

ـــ لقد وقعت في الأمس وكسرت ذراعي.

ـــ هل هو كسر أو التواء كما قال جدك؟

ـــ إنه كسر والآن ذراعي مغلف بالجفصين.

انفجرت بالبكاء وأنا أردد : «سآتي غداً ». لكن والدي أخذ السماعة من جديد وهدأ من روعي و طلب

مني أن أتابع عملي : «لأن الأمر لا يستأهل ورلا بألف خير».

أقفلت الخط وتوجهت إلى سمير : «أغادر بأول طائرة، لا أستطيع البقاء ورلا مكسورة الذراع وربما أكثر من ذلك، لست أدري ما هي الحقيقة، المهم أنني ما عدت قادرة على البقاء هنا، أكملوا المهمة من دوني».

ـــ لقد كلمتِها وهذا يعني أنها بخير.

ـــ لا، لا أستطيع البقاء يوماً واحداً.

لم أستمع إلى جوابه وبدأت بتوضيب أغراضي وطلبت منه أن يحجز لي مكاناً على متن أول طائرة متوجهة إلى لبنان. بعد فترة قصيرة سمعته يقول : «غداً الساعة العاشرة، ممتاز ». لكنه حاول كل تلك الليلة إقناعي بالعدول عن السفر وكان جوابي الإصرار على قراري. كان يحاول إقناعي بالعدول عن السفر وأنا أدخن السيجارة تلو الأخرى.

— 42 —

ودّعت سمير في المطار وصعدت إلى الطائرة من دون أن أشعر بالخوف كالعادة . جلست في مقعدي وجلس المبتسم إلى جانبي وأمضيت كل تلك الرحلة وأنا أدخن لأن كلام المبتسم لم يزرع في قلبي سوى التشاؤم والرعب. وصلت إلى بيروت وتوجهت مباشرة إلى المتحف، أي إلى الخط الفاصل بين المنطقتين المتحاربتين وهو خط يقع باستمرار تحت رحمة القناصة الذين كانوا يصطادون العابرين . توقف سائق التكسي قبل المعبر وطلب مني النزول من ا لسيارة. نزلت من دون تردّد، حملت أو بالأحرى جرجرت حقيبتي إلى أن وصلت إلى الخط الفاصل فأوقفني أحد المسلحين قائلاً: «المعبر خطر والقنص لم يتوقف طوال هذا اليوم وقد مات ثلاثة أشخاص . انتظري هنا، ربما توقف القنص ». وقفت إلى جانبه ونظرت إلى الجهة

المقابلة، فرأيت المبتسم واقفاً يلوح لي بيده ويدعوني إلى السير. لم أعد أفكر بما قاله المسلّح، ركضت بصعوبة لأن الحقيبة كانت ثقيلة وسمعت المسلح يصرخ بأعلى صوته: «توقفي سيقتلونك». وسمعت صوت الرصاص يلعلع فوق رأسي ويرتطم بالأرض إلى جانبي وفي كل الاتجاهات. لكني قطعت المعبر وارتميت بين ذراعي المبتسم وقد ساعدني أحدهم في الوقوف والوصول إلى إحدى السيارات المتوقفة هناك تنتظر الركاب.

وصلت إلى بيت أهلي في المساء وفوجئ الجميع بوصولي. كانت رلا في سريرها نائمة ومربوطة الذراع. أيقظتها وضممتها إلى صدري وانفجرنا معاً بالبكاء وأنا أردد: «لن أتركك بعد الآن». أتى وجّوه من غرفته وطوق عنقي بذراعيه الصغيرتين وبقينا، لفترة، كتلة واحدة إلى أن سمعت والدتي تسأل : «كيف وصلت والحالة الأمنية متدهورة؟».

ـــ لقد وصلتْ وكفى، الحمد لله على سلامتها .

أجاب والدي.

كنت منهكة من التعب ووالدتي تسأل وتسأل لكن والدي تدخل وط لب مني الخلود إلى النوم . نهض من مكانه، توجه نحو غرفة نومه وهو يقول : «الصباح رباح، اتركي البنت تنام وغداً تخبرك عن كل ما تريدين». خرج وهو يقول : «تصبحون على خير ». تبعته والدتي ودخلت أنا غرفتي، الغرفة التي كانت لي قبل زواجي والتي استعدتها بعد الطلاق، أصبحت لي ولرلا، بينما احتل وجّوه غرفة خاله وسيم بعد سفر هذا الأخير إلى الولايات المتحدة للتخصص . دخلت غرفتي وارتميت على السرير وغفوت بسرعة لأستيقظ على صوت رنين الهاتف. حدست أن سمير هو الذي يطلبني وقد صدق حدسي . طمأنته على حالي وعلى حال رلا وانتهى الكلام بيننا بأن قا ل: «مجنونة، ألم أطلب منك عدم التسرع وأن رلا بخير، لكن لا بأس، سأنهي المهمة ونلتقي قريباً».

— 43 —

تعافت رلا بسرعة وفك رباط ذراعها وعاد سمير من التشاد واستأنفنا حياتنا كالسابق إلى أن ذهبنا من جديد في مهمة تلتها مهمة و... وتتالت السنون وقد غاب المبتسم بشكل ش به كامل . كبر وجّوه وأنهى المرحلة الثانوية وبدأ يستعد لدراسة الطب كخاله وسيم الذي كان قد أنهى تخصصه وتزوج من أميركية . لكن كلية الطب كانت في الشق الثاني من العاصمة المنقسمة على ذاتها وكانت الحرب لا زالت مستمرة في لبنان . صعب علي أمر تنقّله بين البيروتين وتعرّ ضه للخطر فطلبت من وسيم أن يساعدنا في تأمين جامعة لوجّوه في الولاية التي يعمل فيها . رحّب وسيم بالفكرة وبأقلّ من أسبوع اتصل بنا ليقول إنه رتّب كل الأمور كما نرغب.

حضّرنا كل ما يلزم لسفر وجّوه، لكن ليلة السفر فوجئت بمثول المبتسم أمامي . كنت أفكر بسفر وجيه

وما يمكن أن يتعرّض له في الولايات المتحدة وفي إمكانية أن يبقى هناك وأن يتزوج من أميركية كما فعل خاله ويبقى في أميركا بعيداً عني   . كنت أستعرض إيجابيات السفر وسلبياته حين رأيته أمامي وابتسامته تشع كنور الشمس.

رأيته ولم أصدق ما أرى ؛ كان رجلاً وسيماً في الأربعين م ن عمره تقريباً وقد غزا السواد مفرقيه وشعره. أما ابتسامته فقد ازدادت سحراً . تجمدت مكاني وسمعته يقول:

ــــ اشتقت إليك. وسمعت صوتي يردد:

ــــ وأنا أيضاً، أين كنت كل هذا الوقت وماذا فعلت كي تبدو بهذه الوسامة وهذا الشباب؟

ــــ لا أبدو، بل أنا، في الحقيقة، هكذا   . اقترب مني، أخذني بين ذراعيه، ضمني وتابع : «لن أفارقك بعد الآن، ستكونين لي وحدي. أما ابنك وجيه، فلا تدعيه يسافر، فليبق هنا».

كنت أميل إلى هذا الحل فقبلت اقتراحه وحسمت ترددي. في الغد أخبرت وجّوه بما قررت، فلم يمانع وبدأ معاملات تسجيله في الجامعة في بيروت، وساعدنا سمير بأن حجز له غرفة في مبنى الجامعة كي يسكن فيها ولا يتنقل يومياً بين البيروتين ويتعرض لخطر القنص والخطف وغيرهما من خيرات تلك الحرب العبثية.

بدأ وجيه بالدراسة بعد أن أمّنّا له كل المتطلبات من قسط باهظ وإيجار غرفة وكتب وما إلى ذلك، وبدأت مرحلة القلق والعذاب ع ندي إذ بتُّ لا أستطيع النوم إلا بعد أن أتصل بوجيه وأطمئن عليه. مرات عديدة كنت لا أجده وأسهر مع المبتسم الذي أصبح رفيقي شبه الدائم ؛ أجلس على شرفة بيتنا وأبدأ بالتدخين والهاتف إلى جانبي أتصل بابني بين سيجارة وأخرى . حين يتم الاتصال أرتاح وآوي إلى فراشي لأغفو بقرب المبتسم الذي تغيّر كل سلوكه وأمسى حنوناً يلاطفني فيما

ازددت سحراً بابتسامته التي لا تشبهها ابتسامة أي إنسان.

— 44 —

استمرت علاقتي بسمير وزاد تعلقي به إذ كنت أجد فيه السند في كل ما يعترضني ؛ كان الأب والأخ والحبيب في الوقت نفسه . لكن ما تغير بيننا هو أ نني أصبحت مغرمة بالمبتسم الذي، كلما مارست الحب مع سمير، حضر أمامي ومارس هو الحب معي . لقد احتل موضوع هواماتي، أنا التي كانت تمارس الحب مع سمير في الواقع وفي الهوام . يمارس المبتسم معي وهو يردد: «أنت لي ولن تكوني لسواي مهما طال الزمن ». يعانقني يعتصر شفتي، ثم ينتقل إلى تقبيل عنقي ويعبث بثديي قبل أن يفترعني وننتشي. حتى أن سمير لاحظ أن سلوكي في ممارسة الحب معه قد تغير وسألني مرة :

«هل تلاحظين أننا نمارس الحب بشكل مختلف؟ أنت الآن أكثر شبقاً ومتعة وهذا يسعدني جداً لأنه يضفي على علاقتنا لذة تفوق تلك التي كنت أشعر بها سابقاً وهذا دليل على أن علاقتنا تتعمق وتتجذّر في أجسادنا . حبي لك استحوذ على كل كياني، ألا ترين ذلك؟ »

«طبعاً». أجبته إذ كيف أخبره عن التطور الجديد وأسبابه؟ سيهزأ مني إن تكلمت عن المبتسم، عن ظلي . سيعتقد أنني مجنونة أهلوس . وتبادر إلى ذهني إن كان هو سمير يرى ظله وكيف هو هذا الظل . لكني فضلت السكوت كي لا أعكر صفو علاقتنا بأسئلة ربما بدت من باب الخيال أو الانفصام في الشخصية . على كل حال بقي المبتسم سري الذي لم يشاركني فيه أحد ولا حتى هند التي كانت الأقرب إلى ذاتي.

— 45 —

حان وقت بعثة منظمة الصحة العالمية إلى الضفة الغربية في فلسطين فجهز سمير لي وله جوازين خاصين وذهبنا معاً كما في البعثات السابقة . في الضفة تعرفت إلى مناضلات عديدات يعملن في المجال الصحي والسياسي معاً . فرحت بهن وتبادلنا الأحاديث والآراء حول ما يجري في فلسطين وعن الدور الذي ينبغي للدول العربية أن تلعبه في تلك القضية و... كانت آراؤنا متوافقة مع الجميع واستمعنا إلى طلباتهم المحقة في مجال الصحة وضرورة تحسين الوضع فيها وبخاصة ما يتعلق بصحة الأطفال والمسنين وقد وعدهم سمير بالعمل مع المنظمة لتلبية ما هم بحاجة إليه في هذا المجال . تلك الرحلة إلى فلسطين كانت الر حلة الوحيدة التي شعرت خلالها بحماسة كبيرة لمساعدة وتأهيل المهتمين بالمجال الصحي . تعاطفي معهم كان تلقائياً وواعياً في الوقت نفسه . شعرت كأني أقوم بواجبي القومي تجاه هذا الشعب المظلوم والمعذب.

لكن، خلال تلك الرحلة بدأت أشعر بضيق في صدري وبغصة تسد مجرى نفسي وب قلق عارم على وجّوه ورلا، حتى أن قابليتي على الطعام قد تضاءلت جداً وأصبحت أكتفي بتدخين السجائر فقط، الأمر الذي استدعى تدخل سمير الذي حاول إقناعي بالتوقف أو على الأقل عدم الإسراف في التدخين: «هو سبب انعدام الشهية عندك، إنك تنتحرين . لقد غضضت النظر عن هذا الموضوع في السابق ولم أتدخل في أمر كنت أشعر أنه يؤمن لك نوعاً من المتعة، أما الآن فقد تخطيت كل معقول ومقبول، فماذا تبغين من ذلك؟».

ـــ الأمر لا يعنيه، وشوش المبتسم في أذني.

ـــ الأمر يعنيني وحدي، أجبت.

ـــ ويعنيني أيضاً، أنت حبيبتي وحياتك تهمّني مثلما تهمّني حياتي، لا بل أكثر . لا أطلب منك الإقلاع نهائياً عن التدخين، وأنا أعرف صعوبة الأمر، لكن على

الأقل دخني بشكل معتدل . تمتعي من دون أن تؤذي صحتك.

لم أستطع تخفيف التدخين وأصبحت أسرف فيه مع المبتسم خلال غياب سمير وأحاول الاعتدال أمامه مما دفعه إلى التوقف عن تأنيبي. لكن الغصة في أسفل حلقي استمرت وبدأت فعلاً تزعجني وسمير يخفف عني بقوله إنه القلق الذي أعيشه وانشغال بالي على وجيه وتنقلاته. كنت أقتنع بكلامه وأحاول تخفيف قلقي ببعض المهدئات الخفيفة. أما المبتسم فكان حضوره دائماً في تلك المرحلة. وهذا الحضور اتخذ شكلاً مختلفاً إذ أصبح يحضر أمامي، يضع ذراعه على كتفي، يضمني إليه ويردد: «عرسنا سيكون أجمل الأعراس ». ما كنت أتوقف عند كلامه هذا، بل أبتسم مثله، فيدير وجهي نحوه، يعتصر شفتي بقبلة من أمتع القبل وهو يقول : «لقد حان الوقت، ألم تري أنني أجمل رجال الكون؟ تعالي إلي وانسي كل شيء ». أصبحت مطواعة لا أرفض له طلباً حتى دخل جسدي وكياني وبدأت أشعر

كأنه هو الذي يتحرك في كل أعضائي بحيث أصبحت أحمله معي أينما توجهت، وكل توجهاتي كانت تدور حول اهتمامي بأولادي وحبي لسمير.

— 46 —

التقيت مرة بسمير في أحد المقاهي كما اتفقنا سابقاً. طلبنا القهوة وأخذنا نتحدث بأمورنا وأمور البلد والحرب التي لا زالت تحصد الناس من دون تمييز بين بريء أو مجرم . حين حضرت القهوة، أخرجت علبة السجائر، سحبت منها واحدة وبدأت بالتدخين . كنت أتحرك وسمير يتابع حركات يدي من دون كلام . سَمَّر نظره على يديّ للحظة، أخذ إحداهما بين يديه، حدق فيها جيداً ثم رفع نظره إلي بشكل لم أفهم معناه . لم أتردد، سألته: «ما بك؟ هل هي المرة الأولى التي ترى

فيها يدي؟» صمت قليلاً وهو يتأمل في أصابعي وسألني والخوف بادٍ على وجهه:

— هل تلاحظين تضخماً بسيطاً في أطراف أصابعك؟

— ربما قليلاً. ماذا يعني هذا؟

— وأظافرك، هل كانت دائماً معكوفة قليلاًً نحو الداخل؟

— لا أظن. أعتقد أنها منحنية أكثر مما هي عليه عادة. ربما يعود ذلك إلى طولها، فأنا لم أقم بتقليمها والاعتناء بها هذا الأسبوع.

لم يعلق، بل ظل ممسكاً بإحدى يدي يتأملها، بينما كنت أستعمل اليد الثانية لالتقاط السيجارة . بعد قليل، ترك يدي، أخذ السيجارة من بين شفتي، رماها بعيداً بحركة عصبية وقال:

ـــ هيا إلى المستشفى سأجري لك صورة شعاعية للصدر.

ـــ ماذا تقصد؟

لم يجبني وسمعت المبتسم يقول : «إنه مجنون لا تلبي طلبه». لكن سمير وقف وجرني من يدي وذهبنا إلى المستشفى حيث أجريت الصورة.

ـــ مساءً نحصل على النتيجة، بعد أن يأتي الاختصاصي وينجز تقريره. أنا سأهتم بالموضوع، لا تقلقي.

ـــ لمَ القلق؟ هل هناك شيء ما في الصورة؟ ألم تر ها أنت؟

ـــ نعم رأيتها، لكن من الأفضل أن يراها الأخصائي.

ـــ بمَ تفكر؟

ـــ لا شيء، فقط للاطمئنان. سأوصلك إلى البيت وأتصل بك فور حصولي على نتيجة التقرير.

دخلت البيت وكان خالياً من الجميع، إذ كانت رلا في المدرسة ووالداي عند الجيران، كما أخبرتني الخادمة. ذهبت مباشرة إلى غرفتي، ووقفت أمام المرآة فرأيته بابتسامته المشعة:

— لا تقلقي، فسمير يضخم الأمور ويريدك أن توقفي التدخين فقط، وهل لنا وسيلة سواه للتمويه عن حالنا؟ خذي، حبيبتي هذه السيجارة، دخنيها ولا تهتمي.

أخذت منه السيجارة ولأول مرة شعرت بمرارة طعمها. أطفأتها بسرعة، لكنه أشعل لي الثانية وهو يقبلني وينصحني: «اتركيه، اتركي سمير إنه لا يليق بك ويتدخل في أمور لا تعنيه كأنه يريد استعباد ك. اتركيه فأنا رجلك، انسي سمير وابقي معي، لقد بدأ ينغص حياتك بوسواسه».

— 47 —

عاد الأهل من عند الجيران وعادت رلا من المدرسة وبدأتُ، كالعادة، أنتظر مرور الوقت كي أتصل بوجّوه. كنت في الوقت نفسه أنتظر اتصال سمير الذي لم يتم تلك الليلة . في الصباح اتصلت أنا بسم ير فبادر إلى القول: «لقد سبقتني، كنت أحاول الاتصال بك الآن. هل نلتقي في مقهى الكاستيل في الكسليك، أو تفضلين المجيء إلى بيتي؟».

— كما تريد، لكن أخبرني ما هي النتيجة؟

صمت طويلاً وسمعت المبتسم يقول: «لا شيء، لا شيء».

— ما بك؟ ماذا في النتيجة؟

— تعالي أولاً ثم نتكلم.

خرجت كالمجنونة من البيت وحين رأيت سمير قرأت الخوف في عينيه وسألت : «ماذا؟». ظل صامتاً، ثم ضمني إليه وقال من دون أن ينظر إلي:

ـــ أمر بسيط، لا تخافي ... هناك سماكة صغيرة في أسفل الرئة اليمنى ... ستخضعين لصورة ثانية للتأكد... والأفضل أن نقوم بها بأسرع وقت.

لم أستوعب ما قاله لكني سمعت المبتسم الذي كان يقول: «لا تصغي إليه، اتركيه، سيحطم حياتك ».

وسمير يردد: «فقط للتأكد، فقط للتأكد».

ـــ التأكد من ماذا؟ هل أنا مصابة بـ...؟

ـــ لا، لا . ربما كان كيساً دهنياً يتم استئصاله وينتهي الموضوع.

ـــ ربما؟ ماذا تقصد بربما؟ ما هي الاحتمالات الأخرى؟

ـــ الأفضل أن نتابع البحث أولاً وبسرعة.

خضعت للصورة الشعاعية الثانية التي أتت نتيجتها تحث على الإسراع في إجراء العملية الجراحية.

ـــ ستخضعين لعملية بسيطة، الورم صغير جداً وسيتم استئصاله بسرعة وتشفين.

ـــ ماذا تقصد بورم؟ هل أنا مصابة بالسرطان؟

صمت قليلاً وعَبَقَ وجهه لكنه قال وهو يمسك بيدي: «إنه صغير جداً كأنه في بدايته، وأنا متأكد أن العلاج بالجراحة سيؤدي إلى الشفاء التام ». ختم كلامه وضمني إليه كأنه لا يريد سماعي . لم أعد أراه، فقط المبتسم رأيت ورأيت ابتسامته مظلمة كأنها تشمت بي وصرخت: «اخرج من حياتي لا أريد رؤيتك بعد الآن». ضمني سمير إلى صدره وقال، ظناً منه أنني أكلمه هو: «لن أخرج الآن من حياتك، لن أتركك ». لم أعره اهتماماً ومر أمامي كل شريط حياتي وصعب علي جداً أن أترك ولدي وهما ما زالا بأمس الحاجة إلي وبخاصة أن عماد كان قد تزوج ورزق بولدين وه و بالكاد يستطيع إعالتهما . عز علي أن يهان أولادي من بعدي وصرخت باكية بوجه المبتسم الماثل أمامي : «لا أريد رؤيتك بعد الآن، لقد دمرت حياتي، دمرت حياتي». ظللت أردد: «دمرت حياتي، دمرت حياتي ». وأنا أجهش بالبكاء على كتف سمير الذي استمر يضمني

إلى صدره ويحاول طمأنتي بأن الأمر بسيط وسيعالج بنجاح و: «الحمد لله أننا أجرينا الفحوصات باكراً».

سحبت رأسي من على كتفه فأخذ وجهي المبلل بالدموع بين يديه وقبلني على ثغري قائلاً : «حظك كبير، لقد اكتشف المرض في أوله ورأي كل الاختصاصيين أنك ستشفين نهائياً ». كنت غارقة في ذاتي وأفكاري، ولم يخطر في بالي إلا رلا ووجّوه . أصبحا كل دنياي. وقلت: «سأطلب منك شيئاً واحداً وهو أن تعدني بأنك ستهتم بولدي إذا أصابني مكروه».

— لن يصيبك أي مكروه وأنت من سيستمر بالاهتمام بهما . هيا ابتسمي وتشجعي . مسح دموعي وتابع: «سأحجز غرفة في مستشفى أوتيل ديو وستدخلين لإجراء العملية غداً . لقد اتفقت مع الطبيب الجراح وهو أفضل جراح هنا وأنا أثق به جداً وقد قام بعمليات مماثلة كثيرة وكانت كلها ناجحة».

ـــ لماذا كل هذه العجلة؟ سمعت المبتسم يسأل .

ورددت من بعده : «لماذا كل هذه العجلة، هل الوضع خطير إلى هذا الحد؟».

ـــ لا، ليس خطيراً ، لكني أريد أن يرتاح بالك بسرعة كي تعودي إلي بأسرع ما يمكن.

ـــ إنها لي، لقد حان وقت قطافها، همهم المبتسم في أذني. فما كان مني إلا أن عاودت البكاء.

سحبني سمير من يدي وذهبت معه إلى البيت، بيت أهلي حيث قام بإخبارهم أنني بحاجة إلى عملية جراحية. ذهلت والدتي وكاد يغمى على هند التي كان سمير قد أخبرها بأنني أخضع لفحوصات.

ـــ ما بها ابنتي، صرخت والدتي، ولماذا العملية؟ وركضت نحوي لتضمني إلى صدرها.

أما رلا فقد تجمدت مكانها وهي مسمرة النظر إلى وجهي، بينما وجّوه الذي أعلمه سمير مسبقاً بالأمر ظل هادئاً. لكني رأيت شفتيه ترت جفان وهو يتحدث إلى سمير. والدي لم يفه بكلمة، دخل غرفته لفترة ثم خرج

ليقول بصوت خافت : «ستنجح العملية بإذن الله ». نظرت إليه ورأيت عينيه محمرتين وأدركت أنه دخل غرفته كي لا أرى دموعه. اقترب مني، ربت على كتفي وتابع: «اتبعي نصائح الدكتور سمير، أنا متأكد أنه على حق وأنك ستشفين بسرعة».

— 48 —

دخلت المستشفى مساء اليوم ذاته حيث أجريت لي فحوصات الدم والقلب و ... وحضّرت للعملية التي ستستغرق وقتاً طويلاً فهي عملية استئصال قسم من الرئة. لم يتركني سمير تلك الليلة، بقي هو ووجّوه معي وأصّرا على هند أن تذهب إلى البيت هي التي كانت تصر بدورها على البقاء إلى جانبي . لكنها رضخت لطلبهما وغادرت وهي تقول: «سأكون عندك باكراً في الغد، سأراك قبل العملية».

في الصباح قبلني سمير وهو يقول : «سينتهي الموضوع اليوم، لا تخافي فأنت بين أياد أمينة ». كان وجّوه يردد وراءه الكلام نفسه . مُدّدت على السر ير النقال ودفعني أحدهم إلى الأمام وسمير ووجّوه يواكبانني بينما كان المبتسم يحاول إعاقة اندفاع السرير. أردت أن أصرخ به: «ابتعد عن طريقي». لكني عجزت بسبب المهدئات التي كنت قد تناولتها . وهكذا رافقني المبتسم إلى غرفة العمليات حيث إنه كان الصورة الوحيدة التي بقيت في مخيلتي قبل غيابي تحت تأثير المخدر.

صحوت بعد غياب لم أدر كم طال، صحوت لأرى وجوه ورلا قبالتي، كانا يبتسمان وهما يقولان : «الحمد لله على السلامة، لقد انتهت العملية بخير ». إلى جانبهما لمحت هند وهي تمسح دموعها . لكن صحوتي لم تدم طويلاً وغرقت في النوم الذي استيقظت منه على صوت سمير: «لقد نجحت العملية مئة في المئة وستستعيدين عافيتك بسرعة». فتحت عيني وإذ بهم جميعاً حولي في

الغرفة ؛ والدي ووالدتي وهند ورلا ووجّوه وسمير، وقد لمحت من بعيد عماد الذي اقترب مني ليقول: «الحمد لله على سلامتك، لقد أخبرني وجيه، لكنه طمأنني، أتمنى لك الشفاء العاجل».

في المساء غادر أهلي ورلا المستشفى بينما حاول وجوه البقاء، لكن سمير أقنعه بضرورة الاستراحة لأنه لم ينم في الليلة السابقة. ذهبوا وأصرت هند على البقاء، فبقيت وبقي معها سمير الذي برر عدم ذهابه بأن قال : «سأبقى هذه الليلة فقط، إنها الليلة الأولى بعد العملية وهي الأصعب، سأبقى، ربما احتاجت حياة إلى شيء».

بقيت في المستشفى ثلاثة عشر يوماً لم تفارقني خلالها هند لحظة واحدة . من جهتي كنت لا أرتاح إلا لوجودها، هذا الوجود الذي حررني من رؤية المبتسم الذي أصبح لا يزورني إلا حين أغمض عيني لأنام . لكنني كنت أغفو بسرعة نظراً لما كانوا يضعونه من مهدئ في كيس المصل المربوط إلى ذراعي.

كان الطبيب الجراح يمر لزيارتي كل يوم، يراقب الجرح الكبير الممتد من تحت ثديي الأيمن إلى منتصف ظهري صعوداً نحو الكتف . يراقب الجرح ويعلّمني بعض التمارين لتحريك ذراعي، يمسد وجهي، يتغزل بجمالي وبلون بشرتي السفرجلي الذي يحب، قبل أن يتركني وهو يطلب من هند أن تساعدني على التمارين خلال النهار.

انتهت فترة الاستشفاء وعدت إلى البيت حيث زارني الكثير من الأهل والأصدقاء وحيث اهتم بي والداي وهند بشكل كاد ينسيني مرضي لأنهم كانوا يزرعون الأمل في قلبي، وبخاصة وجّوه الذي كان يعود إلى الكتب الطبية والمراجع المتخصصة ويحاول طمأنتي. أما رلا، حبيبة قلبي ورفيقة غرفتي، فكانت شديدة الحرص على تأمين كل ما أحتاج إليه . هي وهند كانتا المهتمتين بأموري الحميمة الخاصة وبأناقتي وإظهاري بأبهى صورة . رلا قد أصبحت صبية جميلة

تلفت الأنظار وقد لفتت انتباه كل من زارني في تلك المحنة.

— 49 —

بعد هذه الحادثة أوقفت التدخين طبعاً كما أوقفته بدورها والدتي، لكنها أوقفته لتفي بنذر للعذراء أم يسوع وليس خوفاً على صحتها. بينما هند، المدخنة هي أيضاً، فقد قامت بالتحليل التالي: «سأجري فحوصات للصدر، فإن تبين أنني مصابة، فهذا يعني أنه لم يعد لي متسع من الوقت للشفاء بسبب سني وسأتابع التدخين، وإن أظهرت الفحوصات أنني ما زلت سليمة فسأتابع التدخين أيضاً، فإن لم أصب حتى الآن فهذا يعني أن السيجارة لا تؤثر بي». ضحكنا لتحليلها هذا واستمرت وحدها تحت وطأة هذه اللعنة التي اسمها السيجارة. حاولت إقناعها بالعدول عن فكرتها لكنني فشلت.

— 50 —

بعد مرور شهر على خروجي من المستشفى واجهني سمير بالحديث التالي:

ـــ لقد أرسلت كل ملفك إلى وسيم في الولايات المتحدة، وبعد أن عرضه على المتخصصين في هذا المجال، اتصل بي لنتفق على نوعية العلاج الوقائي المتمم للجراحة. لم أتركه يكمل وسألت:

ـــ هل ما زلت مريضة؟ ألم أشف بعد؟ لماذا كذبت علي؟

ـــ أنت تعملين في المجال الطبي وتعلمين جيداً أن كل عملية من هذا النوع تستتبع بعلاج كيميائي أو شعاعي أو الاثنين معاً وذلك لإتلاف كل خلية خبيثة في كل أنحاء الجسد . أنا متأكد أن الورم في حالتك كان محصوراً جداً ولهذا السبب أقترح الجلسات الكهربائية فقط من دون العلاج الكيميائي.

هذا الكلام ردني إلى درجة الصفر . كنت قد بدأت الخروج من القلق بكل ثقة وقوة وتشبث بالحياة . كنت مصرة على البقاء مع أولادي وهذه العزيم ة جعلتني أتعافى بسرعة. لكن عند سماعي ما قاله سمير لست أدري كيف ظهر المبتسم الذي كان قد غاب عني كل الفترة السابقة، عاد ليقول : «هل سمعت جيداً؟ وهل تصدقين أقواله بعد الآن؟ لقد أقنعك في البداية أن العملية الجراحية هي العلاج الشافي وها هو الآن يقنعك بضرورة علاج آخر، ومن يؤكد لك أن هذا العلاج المقترح هو العلاج الأخير وأنه هو العلاج الشافي؟ ارفضي وابقي معي لأن حياتك لاحقاً ستكون كلها عذاباً».

ــــ لن أخضع لأي علاج آخر، أجبت سمير . اتركني أدبر أموري وحدي.

ــــ تتكلمين كالجاهلين وأنت تعلمين جيداً ضرورة هذا العلاج الوقائي . لم أخبرك عنه لأنه أمر بديهي، ظننتك تتوقعينه.

انضم وجّوه إلى سمير في محاولة إقناعي بمتابعة العلاج واتصل بنا وسيم من أميركا يطلب مني السفر إلى حيث هو وأنه قد هيّأ لي موعداً لبدء العلاج الشعاعي في أهم مركز هناك . حاول الجميع إقناعي بالسفر والمبتسم يحاول إقناعي بالرفض إلى أن حسمت هند النقاش يوماً إذ قالت : «أخذت إجازة من العمل وسأسافر مع حياة، لدي تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة واتفقت مع سمير كي يستعين بمنظمة الصحة العالمية لتأمين تأشيرة دخول إلى حياة بأسرع وقت وسيحصل عليها قريباً جداً».

حسم الأمر رغماً عن المبتسم ورافقتني هند إلى حيث أخي وسيم، وكما في كل سفرة في الطائرة كان المبتسم حاضراً لا يفارقني لحظة واحدة . أما في هذه الرحلة فقد كنت في حضنه كما في الرحلة الأولى مع سمير، يطوقني بذراعيه ويزرع الرعب في قلبي وهو يتكلم عن أمكانية هبوط الطائرة أو عن لا جدوى السفر والعلاج و... هند إلى جانبي كانت تحاول بشتى الطرق

أن تحدثني بمواضيع متعددة كي تخرجني من انطوائي على ذاتي ودوراني في حلقة مفرغة . أما أنا فبالي كان مشغولاً بالمرض ومسكوناً بصورتيْ وجوه ورلا اللذين، إن قررت الرضوخ للعلاج ومقاومة المرض، فهو فقط من أجلهما . منذ أن وطأت قدماي سلم الطائرة أصبحت كالآلة، أنفذ كل ما يطلب مني للعلاج.

— 51 —

استقبلنا وسيم في مطار لوس أنجلس وأقلّنا إلى منزله في مدينة ثانية حيث يسكن مع زوجته، وقد رتبا لنا غرفة مع حمامها وكل ما يلزم لإقامتنا بشكل مريح . أما في طريقنا إلى البيت، فكان يتكلم ع ن فاعلية العلاج وأنني سأشفى نهائياً ولا مجال للقلق وأنه قد استشار العديد من الاختصاصيين وحدّد لي مواعيد معهم . كنت

أستمع إليه والمبتسم يسر في أذني : «لا تصدقيه، كل ما يقوله كذب».

وصلنا إلى بيت وسيم واستقبلتنا زوجته بالترحاب وبخاصة أنها كانت تعرف هند التي سبق لها أن زارتهما سابقاً. بعد العشاء قال وسيم: «أنتما متعبتان من السفر، ارتاحا الآن وغداً بعد الظهر نذهب لزيارة البروفسور مايكل ؛ إنه من أصل لبناني وهو ضليع جداً في اختصاصه ويعتبر من أهم الأطباء هنا».

ـــ لمَ هذه السرعة في أخذ المواعيد من الأطباء؟

قال المبتسم الذي ما إن دخلت غرفة النوم حتى مثل أمامي. تابع: «لماذا الاستعجال وأنت ما زلت متعبة من السفر؟ لمَ الاستعجال إن لم يكن الأمر خطراً على عكس ما يدّعون؟».

ـــ خيراً فعل وسيم باستعجال المواعيد، هكذا ننتهي بسرعة ونعود إلى لبنان . قالت هند وهي تتمدد على سريرها، كأنها سمعت ما قاله لي المبتسم. وتابعت:

«أما الآن فتصبحين على خير، النوم هو العلاج الوحيد للتعب».

أجبتها بمثل ما تمنته لي وأصبحت وحدي مع المبتسم الذي لم يتركني . حاولت إبعاده عني، محاولة النوم، لكنه أصر على البقاء : «قلت لك إنني لن أتركك بعد الآن . لن أتركك لسواي، أنت الآن في قبضتي والأفضل لك أن تستسلمي لإرادتي ». كنت بالفعل مستسلمة، لكن ليس لإرادته بل لإرادة من هم حولي، أنفذ كل ما يُطلب مني.

— 52 —

في اليوم التالي وبعد أن عاد وسيم من عمله ذهبت برفقته مع هند إلى عيادة البروفسور مايكل الذي بدأ بتفحص الصور الشعاعية قبل العملية وبعدها، ثم سألني عدة أسئلة وأجبته باختصار . كانت هند تساعدني في

البعض منها. فحصني ثم طلب مني ومن هند الخروج إلى قاعة الانتظار واستبقى وسيم معه . لم يعجبني هذا الأمر وتساءلت، أو بالأحرى سألت هند : «لماذا الأسرار؟ هل حالتي ميئوس منها؟ ». وأجابني المبتسم: «نعم حالتك ميئوس منها ومن الأفضل لك أن تعيشي ما تبقى لك من أيام من دون علاجات وعذاب وقهر لن تفيدك بشيء».

ــــ لن أتابع أي علاج إن كان هناك شك في شفائي. قلت لهند.

ــــ نحن الآن بين أيدي وسيم وهو يقرر كل ما يلزم فعله.

خرج وسيم من عيادة الطبيب وهو يقول : «هيا بنا إلى البيت، فكل شيء على ما يرام».

ــــ ماذا يعني ذلك وماذا قال الدكتور مايكل؟ سألت.

ـــ اقترح ما يجب أن نقوم به.

ـــ يعني؟

ـــ إنه يفضل العلاج الكيميائي وأنا لست مقتنعاً بضرورته، على كل حال لقد أخذت موعداً من مجموعة أطباء في لوس أنجلس، سيجتمعون ويدرسون الموضوع. سنرى لاحقاً ماذا سيقررون . الموعد بعد غد.

كنت صامتة في السيارة، أستمع إلى وسيم الذي حاول أن يكون مرحاً . حين وصلنا إلى البيت دعانا إلى العشاء، فخرجنا من جديد وعرّفنا على أحد أهم المطاعم اليابانية في المدينة. كنت معهم جسدياً لكن فعلياً كنت مع ذاتي، مع ظلي المبتسم الذي كان يهمس في أذني بكل ما يدعوني إلى التشاؤم . في المساء اتصل سمير بنا وتكلم مع وسيم الذي سمعته يقول : «فقط العلاج الكهربائي، أوافقك الرأي ». أنهى كلامه وأعطاني السماعة : «حبيبتي لا تخافي، سيكون علاجاً بسيطاً تعودين بعده إلى قلبي الذي ينتظرك على أحر من جمر . أحبك». ثم

سمعت منه ما شد عزيمتي لفترة قصيرة، قطعها المبتسم من جديد عندما أويت إلى فراشي.

— 53 —

في الموعد المحدد ذهبنا إلى لوس أنجلس إلى مستشفى يدعى U C L A. لم ندخل إلى عيادة أي طبيب، بل جلست مع هند في مقهى المستشفى حيث تركنا وسيم قائلاً: «أصعد وحدي لأخذ النتيجة لأن الملف معهم منذ فترة وقد درسوه جيداً والآن سيبلغونني نتيجة قرارهم». جلسنا أكثر من ساعة قبل عودة وسيم الذي، حين دخل علينا قرأت التوتر على وجهه . لم يستطع إخفاء قلقه ورأيت المبتسم بالقرب مني وهو يهز برأسه كأنه يقول : «لقد انتهى الأمر وسيتم كل شيء كما أريد».

— ماذا قالوا؟ سألت هند.

ـــ لم يتفقوا على العلاج، فالبعض منهم مع العلاج الكيميائي وهم الأكثرية والبعض الآخر طلب فحوصات إضافية. سنجري الفحوصات المطلوبة، لا فرار من ذلك على كل حال.

حين وصلنا إلى البيت، أنزلني وسيم من السيارة وقال: «ادخلي لترتاحي وأذهب مع هند لشراء بعض الأغراض للعشاء. قولي لميمي، وهو اسم زوجته، أن تحضر الباربكيو، سنعود بسرعة». حين عادا قرأت القلق على وجه هند التي حاولت أن تكون مرحة. لكنها ممثلة فاشلة. بعد العشاء دخلت مع هند غرفتنا وهي صامتة والمبتسم يلح علي أن أسألها ماذا قال لها وسيم.

ـــ لم يقل شيئاً غير الذي قاله لنا في طريق العودة. ستجرى لك فحوصات إضافية للتأكد فقط، هو مرتاح جداً وسيطلب موعداً للفحوصات في أسرع وقت.

في اليوم التالي، رن جرس الهاتف. ردت زوجة وسيم وبسرعة أعطتني السماعة قائلة: «إنه اتصال من لبنان». سمير كان المتصل. تحدثت معه وطمأنني على

أهلي وأولادي وطلب مني أن أنسى كل شيء وأن أهتم بنفسي. وحين سألته إن كان يريد التكلم مع وسيم ليسمع منه ما اتفق عليه الأطباء في لوس أنجلس، أجابني : «كلمته صباحاً وشرح لي كل الأمور ولا داعي للقلق ولا مانع من إجراء كل ما هو مطلوب من فحوصات . أنا متأكد أنها ستكون كلها جيدة».

بالفعل أتت كل النتائج جيدة واتصل سمير وهو فرح بالنتائج وأخبرني أنه كان قلقاً جداً لأن «الأطباء الذين طلبوا الفحوصات كانوا يشكّون في احتمال أن يكون الورم قد بدأ في مكان آخر غير الرئة لأنه، في الرئة، صغير جداً . لكن النتائج الجيدة تؤكد الآن أن الورم بدأ في الرئة وأن صغر حجمه يعني أنه في بدايته وأنك ستشفين نهائياً. العملية الجراحية هي كافية في مثل هذه الحالات، لكني أنصحك بالعلاج الكهربائي فقط. فلا خسارة من ذلك وبخاصة أنه لا يتعبك».

كلام سمير زرع الأمل في نفسي وغفوت تلك الليلة من دون أن أرى المبتسم مع أنني كنت أتمنى

رؤيته لأهزأ منه ومن كل ادعاءاته . بقي اتخاذ القرار النهائي حول نوعية العلاج وتم الاتفاق بين وسيم وسمير بأن أخضع فقط للعلاج الكهربائي . زرنا لهذا الغرض أحد أهم المراكز لذلك العلاج واتفق وسيم مع الطبيب المختص على كمية الوحدات ا لكهربائية الضرورية وبدأت العلاج الذي حدد بعدد من الجلسات تمتد على عشرة أسابيع . كان ذلك يوم الخميس وحددنا يوم الاثنين الآتي للمباشرة.

ـــ لن نضيع الوقت، قال وسيم حين خرجنا من عيادة الطبيب، سنذهب إلى لاس فيغاس هذا المساء ونمضي هناك ثلاثة أيام ونعود يوم الأحد و الويك أند القادم نذهب إلى دزني لند و...

ـ 54 ــ

بعد وصولنا إلى البيت بأقل من ساعة كنا في طريقنا إلى نيفادا، إلى لاس فيغاس .كان وسيم فرحاً يغني ما بقي عالقاً في ذاكرته من الأغاني العربية وبخاصة أغاني أم كلثوم . كانت ميمي تجلس إلى جانبه بينما كنت مع هند جالستين على المقعد الخلفي . استغرقت الرحلة حوالي الخمس ساعات توقفنا خلالها في أحد المقاهي المنتشرة بكثرة على ذلك الطريق حيث شربنا القهوة واشترينا بعض الحلوى وريضنا أقدامنا قبل أن نتابع المشوار . كل ذلك الوقت، كان المبتسم يجلس بالقرب مني، بيني وبين هند . كان يمسك بيد ي من دون كلام . هل كان مستاءً من نتائج الفحوصات الإيجابية؟ هممت بسؤاله لكني فضلت الصمت وعدم الإفساح له في المجال لمخاطبتي وانتزاعي من الجو الذي كنا فيه.

قضينا وقتاً ممتعاً في فيغاس حيث زرنا المدينة ليلاً وكانت مشعة كالشمس بفنادقها الفخمة وشوارعها المضيئة النظيفة. لكننا أمضينا معظم الوقت في كازينو

الفندق الذي لم نكن نغادره إلا لتناول وجبات الطعام . غرق وسيم وهند في اللعب، لعب الروليت والماكينات، بينما اكتفيت أنا بمرافقة هند من مكان إلى آخر من دون أن أحاول المشاركة في أي لعبة . «وأنت، تقول لي بين وقت وآخر، هيا، جربي حظك». لم أفعل لأن اللعب ما كان يعني لي شيئاً على الإطلاق وسألتها لمَ هي مأخوذة باللعب بهذا الشكل؟ فأجابتني : «إنه المكان الوحيد الذي أنسى فيه نفسي وأشعر بمتعة لا تضاهيها متعة، لا يفهمني إلا وسيم الذي يحب اللعب مثلي».

— 55 —

أتى يوم الأحد وعدنا إلى بيت وسيم حيث انتظم وقتنا على الشكل التالي : نستيقظ باكراً، نتناول الفطور والقهوة الأميركية، يذهب وسيم إلى عمله وتغرق هند في تحضير الطعام اللبناني الذي كانت تجيد تحضيره .

بعد الظهر كانت هند تقود سيارة ميمي وترافقني إلى مركز العلاج. ندخل قاعة الانتظار الغاصة بالمر ضى من كل الأعمار ومن الجنسين على السواء. ننتظر قليلاً ثم أسمع اسمي على مكبر للصوت، فأترك هند وأدخل إلى غرفة صغيرة حيث أجد الطبيب وممرضة. أستلقي على سرير خاص، تضع الممرضة غطاءً ثقيلاً على صدري للحماية وتبدأ الجلسة التي لا أشعر خلالها بأي ألم. ينتهي الوقت ال محدد مسبقاً لكل جلسة، أرتدي ملابسي وأخرج وترافقني هند إلى «المول» حيث نمضي ساعة أو ساعتين قبل العودة إلى البيت فنتناول العشاء أو يدعونا وسيم إلى أحد المطاعم. أما نهاية الأسبوع فكنا نقصد أماكن مختلفة.

— 56 —

كنت أتصل بلبنان يومياً، أتحدث مع وجّوه ورلا وأطمئن عليهما وعلى والدي وحالة البلد وما تُحدث بها تلك الحرب التي ما كانت تعرف النهاية. سمير كان دائم الاتصال بي، يسألني عن وضعي ويعبر لي عن شوقه مبدياً رغبته بالمجيء إلى أميركا . أما المبتسم فقد قلّت زياراته لي لأن هند كانت تلازمني باستمرار وتستدرجني إلى مواضيع بعيدة كل البعد عن وضعي ومرضي، حتى أنه استاء منها وقال لي مرة : «ما بها هند؟ أليست مدركة لوضعك الصحي؟ إنها تتصرف كأنها جاهلة وتمضي الوقت معك بأحاديث سخيفة وتافهة. بدأت أغار منها لأنها تأخذك مني وأنا أعرف أنك تفضلين البقاء معي . فهي لا تتركك إلا في الليل حيث أضمك إلى قلبي وأنتشي وأنت غافية بين ذراعي..». بالفعل كنت أغفو بين ذراعيه لأن أحلامي، في تلك الفترة كانت كلها كوابيس يسيطر عليها الموت؛ فكم مرة استيقظت مذعورة لأنني حلمت بموت والدي

أو والدتي أو سمير أو ...لا أجرؤ حتى على التلفظ بالأسماء الباقية.

— 57 —

بعد انتهاء جلسة العلاج الأخيرة، دعاني الطبيب إلى عيادته، أجلسني قبالته، أمام المكتب، أمسك يدي وقال: «أستطيع القول اليوم إنك قد شفيت، لكن عليك متابعة الفحوصات كل ستة أشهر خلال سنتين ومرة كل سنة خلال ثلاث سنوات لأن الخطر من معاودة المرض قد يدوم خلال خمس سنوات، بعدها نتأكد من الشفاء التام. لا تتوسوسي، فقد تشعرين بآلام متعددة كتلك التي يشعر بها كل الناس واعلمي منذ الآن أن كل ألم يخف أو يزول مع المسكنات فهو ألم غير ذي أهمية». تابع كلامه المطمئن لكني ما عدت أسمعه لأن المبتسم ظهر أمامي وهو يقول: «إنك ما زلت مريضة وكل ما قمت

به من علاج لم يفدك بشيء ». سألت الطبيب: «إذاً كل ما قمنا به من علاج لم يكن له فائدة؟ ». شد على يدي وقال: «هل هذا ما فهمته من كلامي؟ لقد شفيت لكن المتابعة ضرورية وأنا أجزم أن فحوصاتك ستكون كلها جيدة». اقترب مني وهو يبتسم، ضمني إليه وتابع : «اذهبي مطمئنه». ثم رافقني إلى الباب، مدّ يده لوداعي وقال: «go you are cure».

عدت مع هند إلى البيت وفي المساء أخبرت وسيم بما قاله الطبيب، فطمأنني بدوره شارحاً لي : «أن الفحوصات المطلوبة هي روتينية بعد الذي مررت به وأنها فقط لمزيد من التأكد من الشفاء ولطمأنتك أنت بنوع خاص وإخراجك من دائرة الخوف . اشكري ربك أن سمير لاحظ تورم أصابعك واستطعنا اكتشاف المرض في بدايته . في مثل هذه الحالات تتم السيطرة عليه بشكل نهائي . العملية التي أجريت لك في لبنان كانت وحدها كفيلة بالشفاء، وكل ما قمنا به لاحقاً كان فقط من باب الاحتياط ليس أكثر . لقد كلمني الطبيب

وأكد لي شفاءك التام . أما الآن فسنخرج لنحتفل بانتهاء العلاج وعودتك إلى الصحة والعافية ». أنهى كلامه واتصل بأحد المطاعم وحجز لنا طاولة . كانت السهرة ممتعة حيث أبدى الجميع ارتياحهم وتفاؤلهم، بينما كان المبتسم يسر في أذني باستمرار : «إنهم يمثلون ». لم أعره اهتماماً، كنت مسكونة بفكرة العودة إلى لبنان وفاجأت الجميع بالسؤال التالي: «متى نحجز للعودة؟».

ـــ لماذا العجلة؟ أجاب وسيم، المطار مقفل الآن في بيروت.

ـــ نذهب إلى قبرص ومنها بالباخرة إلى جونيه كما يفعل كل الناس، ربما تأخر إقفال المطار وأنا مشتاقة جداً إلى وجوه ورلا.

حاول وسيم إقناعي بالبقاء، لكنني أصررت على العودة بأسرع وقت. اتفقنا وحدد موعد السفر بعد يومين أمضيتهما بشراء الهدايا وأبلغت سمير عن تاريخ وصولي إلى لبنان.

— 58 —

في الباخرة التي أقلتني مع هند من قبرص إلى خليج جونيه، كان يوجد كازينو صغير وهذا م ا أفرح قلب هند التي، ما إن رتبنا أمورنا في الباخرة حتى تركتني وتوجهت إلى طاولة الروليت حيث أمضت كل الوقت تقريباً. حين عادت إلى حيث كنت جالسة كانت تضحك وهي تقول: «لقد كلفتني هذه الساعات أكثر مما كلفتني كل الرحلة».

خلال غيابها كنت مع جوقة من اللبنانيين العائدين إلى بلدهم. كانوا يغنّون ويخبرون عن مغامراتهم وأين كانوا... كنت أستمع إليهم علني أجد بينهم من ترك بلاده للعلاج مثلي وحسدتهم على الأيام البائسة التي أمضوها خارج بلادهم. عادت هند وأنا شاردة أنظر إلى البعيد، لكن البعيد ذاك كان الشاطئ اللبناني الذي بدأ يظهر في الأفق.

ـــ لقد وصلنا، قالت هند وتابعت : «بيتي يا بويتاتي».

ـــ وأنا سأعود إلى رلا ووجوه، أجبتها.

ـــ وسمير؟ هل نسيت سمير؟

ـــ وسمير إن أردت . وتابعت: «إن أعطاني الله عمراً وهمة».

ـــ لا أريد سماع هذا الكلام، أنت الآن كأي شخص سليم الصحة، مثلي ومثل أي واحد آخر . لقد مر القطوع والحمد لله.

نزلنا من الباخرة وإذ بوجوه ورلا وسمير ينتظروننا على الرصيف. كان اللقاء حاراً جداً وبخاصة مع وجيه الذي لم يستطع تمالك نفسه وتبللت عيناه بالدموع وهو يضمني ويقول: «الحمد لله على سلامتك، لقد اشتقت إليك». ركبنا سيارة سمير وتوجهنا إلى بيت والديّ حيث كانا قد أعدا لنا الغداء وقد حرصت والدتي على أن تطبخ كل الأطباق التي أحب . بعد الغداء قال سمير: «الآن عاد كل شيء إلى مكانه، سنباشر العمل

عما قريب، لن أسمح لك بأكثر من يومين للراحة من عناء السفر».

ـــ أما أنا فسأباشر غداً، أجابت هند.

ـ 59 ــ

عادت الحياة إلى ما كانت عليه، عاد إليها الجميع، ما عداي، كانت تحمل معنى آخر . شعرت أنني ولدت من جديد ولادة مسكونة بالوسواس من عودة المرض؛ كل تغير في حالتي ولو كان بسيطاً جداً كان يتحول بالنسبة لي إنذاراً بأن ورماً ما قد بدأ في مكان آخر من جسدي. مرت الشهور الستة وأنا أتخبط بين اليأس والأمل؛ اليأس الذي يزرعه المبتسم في قلبي والأمل الذي يرعاه سمير ويحرص على بثه في كياني كلما شكوت من ألم ما أو .... لكني هدأت قليلاً بعد نتائج الفحص الأول الذي أتاني بنتيجته سمير وهو فرح

كالطفل الصغير : «كل شيء ممتاز وقد انتهت مهلة النقاهة، سأحضر لبعثة إلى إندونيسيا، ستكون الأسبوع المقبل على أبعد تقدير ». فرحت بالنتيجة التي حاول المبتسم أن يقلل من أهميتها : «إن المرض لا يعود بهذه السرعة، فلننتظر الفحص الثاني».

— 60 —

هكذا أمضيت السنوات الخمس وأنا أتنقل من حالة إلى حالة، لكني تابعت عملي وقد ساعدني على ذلك هند وسمير ووالدي الذي كان يجزم دائماً ». بأنني قد شفيت نهائياً: «أنا متأكد، فحدسي لا يخطئ أبداً ». خمس سنوات مضت والمبتسم يلاحقني في كل تحركاتي زارعاً الوسواس في رأسي . قبل نهاية السنة الخامسة، مرض والدي واستعصى شفاؤه فتوفي قبل أن يرى وسيم الذي وصل وكله أمل أن يساعد أباه أو على الأقل

يودعه قبل موته . وللصدفة، أن تاريخ دفنه كان تاريخ ميلادي، دفن يوم عيد ميلادي . كنا نبكي حول النعش، لفتتني التاريخ المسجل على أحد جوانبه فصرخت بهند التي كانت إلى جانبي:

ـــ انظري، انظري إلى هذا التاريخ.

ـــ رأيته وفهمته، لقد رحل والدك فدى عنك وهذا يعني أنك ولدت من جديد. رحمه الله كم كان معطاءً، لقد حرص على عطائه حتى في موته.

كلام هند أنعش روحي على الرغم من حالة الحزن التي كنت أعيشها، لقد أحدث في داخلي ما أحدثه كلام الطبيب الأميركي حين قال لي مودعاً:go you are cure.

ـ 61 ــ

خلال تلك السنوات الخمس، أنهى وجيه دراسة الطب وأنهت رلا دراسة الحقوق وتقدم لطلب يدها شاب

تعرفت إليه في الجامعة؛ كان هو في السنة الرابعة من دراسته حين دخلت رلا الجامعة . تعارفا وتحابا بشكل رائع أفرح روحي وساهم أحياناً في نسياني المرض . حين تخرجت رلا وكان وليد قد باشر بالعمل، طلب يدها رسمياً وتمت الخطوبة تمهيداً للزواج بعد سنة خلالها يجهزون بيتهما وكل ما يحتاج إليه العرس من دعوات وحجز مكان للحفلة و .... أما وجيه الذي أنهى دراسة الطب العام في بيروت فقد طرحت أمامه ضرورة السفر إلى الخارج للتخصص. من جديد بدأ قلقي وعذابي لكني وافقت على سفره وساعدته وأمنت له كل ما يحتاج إليه. ما دفعني إلى تقبل فكرة السفر تلك هو أن وجيه سيذهب إلى حيث خاله وسيم الذي تمكن من تأمين موقع له في المستشفى الذي يعمل فيه . حان يوم السفر، ودعني وجوه، حبيب قلبي بكل حرارة . ضممته إلى قلبي ورددت في أذنه: «إياك أن تتزوج من أميركية ». كان همي الوحيد أن يتزوج من لبنانية تعيده إلى لبنان، تعيده إلي أنا التي كنت أموت حرقة لبعد أخي وسيم.

— 62 —

بالفعل تعرف وجيه إلى فتاة لبنانية تدرس في أميركا وعاد إلينا في صيف السنة الأولى برفقتها ورفقة خاله وزوجته وولديهما الجميلين . عادا لتمضية عطلة الصيف التي تم خلالها زواج رلا وقد أقيمت للمناسبة حفلة من أجمل الحفلات، تألقت فيها رلا كأميرة وهند كانت الإشبينة وقد حضر عماد، العرس بالطبع ونقط ابنته بما هو قادر عليه.

بعد زواج رلا بأسبوع تم الاتفاق على زواج وجيه وبذلت جهدي لأن أقيم له عرساً ظل حديث المعارف والأقارب لمدة طويلة . وسيم كان الإشبين والعروس كانت جميلة جداً بثوبها الأبيض الذي حرصت أمها أن تأتي به من باريس . أحببت زوجة ابني سهام وارتحت إلى حسن معاملتها له واطمأننت عليهما قبل أن يسافرا من جديد لكي يتابع وجوه تخصصه.

— 63 —

كان المبتسم غائباً كل تلك الفترة، لم ألحظ وجوده أبداً. لكن ما إن سافر وجّوه واستقرت رلا في بيتها وأصبحت وحدي حتى عاد يلازمني من جديد وهو بكامل شبابه ونضارته . أما سمير فلم يفارقني لحظة واحدة وقد ساعدني في كل ما قمت به . لكني لم أستطع الصمود طويلاً بعد فراق ولدي وأصبت ب نوع من الـ depression وتخبطت لفترة طويلة بين أيدي المبتسم الذي كان يحضر ليخبرني أن وجيه قد أصيب بسوء ما . أتصل بابني وأطمئن وأعود من جديد إلى الدائرة التي كان سمير يحاول دائماً إخراجي منها.

في أحد الأيام وبينما كنت جالسة مع سمير نتحدث بأمور مختلفة فاجأني قائلاً: «لماذا لا نتزوج ونبقى معاً في بيت واحد ونعيش بشكل شرعي أمام الجميع؟ »

صمت قليلاً وأجبته:

ـــ دعني أفكر.

ـــ ولماذا التفكير؟ ها أنت وحدك وأنا وحدي، ما المانع من العيش معاً إن كنت ما زلت تحبينني كما أحبك.

ـــ أحبك وأتمنى تحقيق ما تطلبه مني، لكن، ربما سافرت إلى حيث وجوه أو....

ـــ نسافر معاً، أين المشكلة؟ ها نحن نسافر معاً في كل المهمات التي نقوم بها.

ـــ اتركيه، سمعت المبتسم يقول، أنا أفضل أنيس لك في وحدتك . معي تكونين على سجيتك ولا أزعجك بشيء. أنا أكتفي بوجودك إلى جانبي ولا أتدخل في أمورك إطلاقاً.

ـــ سنبقى معاً، لكن كما نحن الآن . أجبت سمير. فما زال الأولاد بحاجة إلي وبخاصة وجيه الذي لم يبدأ بعد بإنتاج ما يكفيه مع زوجته . ما زلت مسؤولة عنه وسأظل هكذا إلى أن ينهي اختصاصه ويوفقه الله بالعمل.

ـــ كما تريدين، أنا قابل بالصيغة التي ترتئينها، المهم أن نبقى معاً.

ـ 64 ــ

بعد الاتفاق مع سمير على متابعة حياتنا على ذات الصيغة السابقة، عدت إلى البيت لأستريح وأسترجع كل ما مررت به. دخلت غرفتي وتمددت على السرير، لكن المبتسم لم يحضر إلى جانبي كالعادة . استرخيت على الفراش ومرت في ذهني أهم الأحداث في حياتي وتوقفت مطولاً عند بعضٍ منها ثم اتخذت قراري بأن أرتاح وأن أعيد القلم إلى الراوية كي تتابع سيرتي على هواها بعد أن حققت ما حققته في حياتي . نهضت من سريري وتوجهت إلى الدرج حيث كنت أضع أوراقي التي سجلت عليها ما اعتبرته مهماً من الأحداث التي مررت بها. سحبت الأوراق متهيئة لإعادة قراءتها قبل

أن أسلمها إلى الراوية. فتحت الملف، وضعت النظارات على عيني وهممت بالقراءة . لكن ما الذي حدث؟ الصفحة الأولى بيضاء، قلبتها، الثانية بيضاء، قلبتها وتتالت الصفحات البيضاء . هل أصبت بالعمى؟ أين ذهب الحبر؟ أين ذهبت الكلمات والأحرف؟ أين ...؟ فجأة ظهر المبتسم وهو يكاد ينفجر من الضحك.

ــــ ما الذي جرى؟ ما هذا البياض؟ أين كل ما كتبت؟ صرخت به.

ــــ كل ما كتبته، أدخلته في البياض، لقد محوته، لن أتركك تنتصرين علي . عدوي الأوحد هو الكلمة المكتوبة ودوري يكاد ينحصر بمحوها وغالباً ما أنجح . قليلون هم الذين يقهرونني في هذا المجال وأنت لن تشذي عن القاعدة.

ــــ ماذا سأقول للراوية وقد سلمتني القلم وقبلت أنا التحدي؟ هل أعطيها أوراقاً بيضاء؟ ما هذه المسرحية؟

ـــ الأمر لا يعنيني، وهل من الضروري أن تُكتب قصة حياتك؟ إنها تشبه قصصاً عديدة، الدائرة ستكتمل سواءٌ كتبت أم لم تكتبي. قال ذلك واختفى.

قصدت هند لأخبرها بما جرى معي، لكنها، كعادتها دائماً فسرت الأمور بإيجابية متفائلة، تماماً كما فسرت تاريخ موت والدي. قالت:

ـــ صفحات بيضاء، هذا يعني أنك شفيت نهائياً، لم يعد هناك أثر للمرض وستباشرين حياتك من جديد . أنت ما زلت دون الخمسين من عمرك وأمامك كل الحياة، تنعمي بها وانسي كل الماضي المرير.

ـــ كل الماضي لم يكن مريراً، لا تنسي فرحي بأولادي.

ـــ وفقهما الله لكنك أصبحت وحدك وعليك أن تفكري بنفسك . لا تبقي وحيدة مثلي أنا، تزوجي من سمير وعيشا معاً. الرفيق ضروري وأحياناً كثيرة نشعر بالحاجة إليه. اهتمي بنفسك، لا تهمليها.

— 65 —

استمعت إلى نصائح هند وعدت إلى بيتي لمتابعة حديثي مع ظلي المبتسم لكني فوجئت بوجود الراوية وكأننا على موعد لتستلم الأوراق. كانت هي أيضاً تبتسم كأنها علمت بما حدث. بادرتني بالقول:

ـــ لقد كشفت لعبته منذ البداية، حين بدأ بمحو الصفحة الأولى، لذلك كنت أسبقه لقراءة م ا تكتبين وقد حفظت الكثير مما قرأت.

ـــ لكنه سيمحو ما ستحاولين كتابته.

ـــ إنه ليس ظلي أنا ولا يستطيع التدخل في أموري.

ـــ كيف؟

ـــ لكل منا ظله المبتسم وهو ظل لا يهتم إلا بمن هو ظله . لكل منا علاقة معينة بظله . كلما سايرناه

وانتبهنا إلى وجوده، كلما تسلط وتجبر واستقوى ، وكلما تجاهلناه وأهملناه، كلما هزل وضعف . لكن في النهاية، وكما قال لك ظلك، الدائرة ستكتمل وسيكون هو المنتصر الأكبر . لكن ما نستطيع فعله هو تأخير هذا النصر الحتمي.

ـــ هل ظلك لا يتدخل في ما تكتبين ولا يمحو الكلمات.

ـــ بعض الظلال تناور وتتركنا نعيش الوهم، تتركنا نلعب اللعبة . بعضنا يدرك أنه يلعب، هكذا يحصل بينه وبين ظله نوع من التواطؤ، فيلعبان معاً أما البعض الآخر فيعتبر الوهم حقيقة ويتعامل معه بكل جدية ظناً منه أنه قهر ظله، بتجاهله بدل اللعب معه . هؤلاء يتصرفون كالنعامة، لكن الظل لا يغيب وإن حاولوا تغييبه. كيف يغيب وهو الذي يرسم الدائرة؟

ـــ لا أفهم كلامك . أعيديني إلى قصتي، ماذا ستفعلين بها؟

ـــ سأتابع، الدائرة ما زالت غير مكتملة وعلي إيصالها إلى اكتمال استدارتها.

ـــ تابعي حياتي كما تشائين، سأعيد القلم إليك، تابعيها كما يحلو لك، لكن بشرط واحد.

ـــ ما هو هذا الشرط؟

ـــ إياك أن تؤذي أولادي، تصرفي بحياتي وشكّليها كما ترتئين، لكن إياك الأولاد، فإن حاولت الإساءة إليهم، فأنا من سيمحو كل ما تكتبينه وأمزق كل أوراقك.

ـــ لن أتدخل في حياتهما . لكل منهما ظله الذي سيتعامل معه كما يريد . إنهما خارج الدائرة التي سأحاول إكمال رسمها.

سلمتها القلم والأوراق البيضاء واسترحت.

الفصل الثالث

— 1 —

عليّ بدايةً أن أستعيد موضَعة الشخصيات قبل أن أتابع. عليّ إعادة انتشارهم كي أتمكن من السير من دون تعثر. لقد أهملت حياة هذه الناحية لأنها كانت مشغولة بهمومها الخاصة وهو أمر طبيعي بالنسبة لشخص عانى م ا عانته . لكن بالنسبة لي الأمر يختلف لأنني مسؤولة عنهم جميعاً، فأنا التي جمعتهم في فضاء هذا العالم.

لقد عرفنا من حياة أن والدها قد توفي وانتهى دوره الفعلي. بات لا يظهر إلا في الذاكرة أو الأحلام . رائد الذي سافر إلى إحدى الدول العربية للعمل، لم يظهر إطلاقاً في القسم الثاني، ولست أدري الآن إن كان

سيلعب دوراً في الأحداث الآتية. الست هلا شاخت لكنها ما زالت محافظة على صحتها وحضورها الفعال إلى جانب حياة. عماد أصبح دوره ثانوياً، لا يظهر إلا في المناسبات المهمة كما فعل خلال مرض حياة وزواج ولديه. أما هند، وإن لم تتكلم عنها حياة بإسهاب فقد لعبت الدور الأهم في مساندتها في كل ما كانت تقوم به وكل ما مرت به وكانت على علاقة برجل متزوج وقد انتقلت إلى العيش في بيت أختها بعد زواج رلا ووجيه ومكوث وسيم في الولايات المتحدة . سمير كان وسيظل السند الأساسي لحياة في كل المجالات لأنها ترتاح إليه وتشركه في حل كل مشكلة تتعرض لها . السيد وجيه وزوجته راغدة انتهى دورهما فعلاً لأنهما غابا نهائياً من عالم حياة ولو استمر وجيه الصغير يزورهما بين وقت وآخر . بقي وجوه ورلا اللذان كانا وسيستمران محور وجود حياة . وأخيراً المبتسم ذلك الظل الذي لا يغيب أبداً حتى ولو توارى عن الأنظار . هذه هي الصورة التي خلصت إليها بعد قراءة الصفحات البيضاء

التي تسلمتها من حياة. انطلاقاً من هذا التوزيع للأدوار، سأحاول متابعة اكتمال الدائرة.

— 2 —

استلمت القلم من حياة وانصرفت فيما بقيت هي مع ظلها، وقد طال الحديث بينهما تلك الل يلة قبل أن ينقذها منه سمير الذي اتصل بها ودعاها لتتناول العشاء في أحد المطاعم. خلال العشاء حاول سمير إقناع حياة مجدداً بفكرة الزواج.

— زواج في مثل عمرنا؟ علقت . كان هو في السابعة والستين وهي في الخامسة والأربعين.

— وما به عمرنا؟ إنه العمر الأفضل للزواج وبخاصة أنه قائم على الحب والاحترام والتفاهم، إلا إذا كنت ما عدت تحبينني.

نظرت إليه حياة وابتسمت: «هل يعقل؟».

ـــ إذاً ما المانع؟

ـــ دعني أفكر.

ـــ تفكرين بماذا؟ أنت الآن حرة كلياً، ثم إننا نعيش كزوجين والكل يعرف بعلاقتنا ولا مانع عند أحد منهم، أمك، هند الأولاد... وكل الناس.

ـــ أعلم ذلك لكنني خائفة.

ـــ خائفة؟ لا أفهم.

ـــ ربما تغيرت علاقتنا إن عشنا تحت سقف واحد.

ـــ إن تغيرت بمعنى ساءت، فسنطلّق ونعود إلى ما نحن عليه الآن، ما المشكلة؟

ـــ المشكلة هي أنني لا أرغب في فقدانك . فإن تزوجنا وطلقنا لن تعود علاقتنا إلى ما كانت عليه، ولهذا السبب طلبت منك أن تدعني أفكر.

ـــ تريدين التفكير مع مستشارتك هند، أنا أعرف.

ـــ مستشارتي هند كما تسميها، تحثني على الزواج.

ـــ معها كل الحق . لو كانت ظروفها تسمح لها بالزواج ممن تحب لما تأخرت . لكنه متزوج، كما تعلمين، ولا يريد الطلاق أو لا يقدر على الطلاق من زوجته. لست أفهم تعلق هند به.

ـــ ربما كان تعلقها به لأنه غير قادر على الزواج. ربما كان لمثل هذا الوضع متعة خاصة.

ـــ إذاً سأتزوج من إنسى ما وسنظل عشيقين . قالها مازحاً.

ـــ إن استطعت افعل.

ـــ وهل أستطيع حتى النظر إلى إنسى غيرك؟ والآن هيا بنا لقد اشتقت إليك جداً.

ـ 3 ـــ

ذهبا معاً إلى بيت سمير حيث مارسا الحب كعادتهما بشغف وبهجة. بعدها استرخيا قليلاً ثم أوصلها إلى بيت أهلها حيث أمضت وقتاً قصيراً مع هند التي كانت لا تزال صاحية تنتظرها قبل أن يستلمها المبتسم ولا يتركها حتى الصباح.

ـــ حاول إقناعك مجدداً بالزواج.

ـــ وكيف عرفت؟ أين كنت؟

ـــ قلت لك ألف مرة إنك لا تستطيعين إلغاء وجودي، فأنا دائم الحضور حتى في غيابي.

ـــ أعلم، أعلم، لكن ماذا تريد الآن؟

ـــ هل قبلت بالزواج منه؟

ـــ إن كنت حاضراً كما تدعي فلماذا تسأل؟

ـــ أسألك لأنني رأيت التردد في عينيك . هند تحثك على الإقدام وأنت أيضاً تميلين إلى ذلك. لكن هل فكرت بسنّه؟ إنه الآن في السبعين من عمره وقد تقاعد

من العمل وسيصبح ملحقاً بك ولن يترك لك ولو حيزاً صغيراً من الحرية وأنت ما تزالين في عزّ شبابك وأوج نشاطك وحيويتك.

ـــ تقاعد فقط من المنظمة، لكنه ما زال نشيطاً يمارس الطب في عيادته، ثم إنه طبيب مشهور.

ـــ سيبقى نشيطاً إلى متى؟ سنوات قليلة ويصبح عجوزاً عليك الاهتمام به وخدمته و...

ـــ أنا أيضاً سأصبح عجوزاً. على كل حال أنا لا أطلب رأيك وسأنفذ ما يحلو لي.

ـــ أنت حرة. أما الآن فتعالي لأضمك بين ذراعي كي تنامي وأرعى أحلامك.

ـ 4 ــ

استسلمت حياة لنوم متقطع تخلّلته أحلام عديدة لم تذكر منها شيئاً حين استيقظت . في الصباح بادرت هند

إلى فتح موضوع الزواج مجدداً فيما كانت برفقة حياة وأمها يتناولن القهوة، وقالت متوجهة إلى الست هلا:

ــــ ألا تظنين أن حياة وسمير يشكلان ثنائياً رائعاً؟ ثم إن سمير حر وليس لكَ... وهو جاهز للزواج.

ــــ ولماذا الزواج؟ أجابت هلا، أنا ما عدت قادرة على العيش من دون حياة إلى جانبي . ألا تكفيني غربة وسيم الذي طابت له الإقامة في أميركا مع زوجته الست ميمي التي لا نعرف حتى بنت من تكون، لماذا لا يعود وقد انتهت الحرب في لبنان بعد إبرام اتفاق الطائف وبعد أن أكلنا نصيبنا في هذه المنطقة التي كانت آمنة طيلة الحرب إلى أن أتى من دمرها بهوسه وجنونه.

ــــ من تقصدين بالمهووس والمجنون؟

ــــ لا أقصد واحداً، أقصد الاثنين معاً، جعجع وعون على السواء وبخاصة عون الذي تمرد وأرغم لبنان على الاستعانة بالجارة ووضعنا تحت سيطرتها . لكن والحمد لله كل شيء انتهى . فلماذا لا يعود وسيم؟ حتماً زوجته لا ترغب في ذلك و....

ـــ لا تكوني أنانية، أتظنين أنني أرغب في الابتعاد عن حياة وبأنني مسرورة لغربة وسيم؟ لا أنت ولا أنا سوف ندوم لهما ولا أريد لحياة أن تعيش وحيدة بعدنا.

ـــ وسمير، هل نسيت عمره؟

ـــ لكنه لا يزال نشيطاً ويتمتع بحيوية فائقة.

كانت حياة تستمع إليهما صامتة . لكنها ما لبثت أن قالت حين لزمتا الصمت : «أنا من سيقرر في هذا الموضوع ولست مستعجلة.»

ـــ 5 ـــ

أما سمير فبعد أن أوصل حياة وعاد إلى بيته، لم يستطع النوم وبقي ساهراً يفكر برفض حياة فكرة الزواج منه: «أعرف أنها تحبني وتطمئن إلى وجودي

قربها، لماذا تمانع إذن؟ هل تخجل من أولادها؟ لكني متأكد أنهما يريدان سعادتها، ولو أقدمت على الزواج لما اعترضا إطلاقاً، بل على العكس، لربما اطمأنا عليها . ماذا لو اتصلت بوجيه وأخبرته بالأمر؟ رلا، طبعاً ستعارض لأنها شديدة التعلق بأمها ولن تسمح لأحد بأن يأخذها منها، وبالمقابل حياة هي أيضاً شديدة التعلق بابنتها وهي باستمرار معها تحثها على الإنجاب كي تصبح جدة وهي في عز صباها . أعرف أيضاً حياة وأعرف طموحها ومدى تعلقها بعملها وحبها للتقدم والارتقاء. ماذا لو عرضت عليها أن تتابع دراستها وأن تحصل على لقب دكتورة؟ هكذا أكون قد أشبعت كبرياءها وطموحها، هذا من جهة، أما من جهة ثانية فسأبقيها تحت إشرافي لأنها، في حال متابعة الدراسة، ستكون دائماً بحاجة إلي . أنا أحبها أكثر من نفسي ولا أستطيع الابتعاد عنها ولو للحظات، هي معي حتى في غيابها. سأعرض عليها الموضوع وستوافق حتماً».

— 6 —

في أول لقاء بينهما، بادر سمير إلى القول:

ــــ أعرف أن عملك في إطار المنظمة هو عمل مقدر جداً من قبل المسؤولين . لقد أصبحت عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه في كل المهمات . لكن لمَ لا تفكرين بتطوير وضعك وبتولي موقع متقدم في هذه المنظمة؟

ــــ وكيف يتم ذلك؟

ــــ يتم إن تابعت دراستك وحصلت على درجة الدكتوراه. فالشهادة والخبرة الطويلة يخولانك الترقي والوصول إلى أعلى المراتب.

صمتت حياة طويلاً إذ إن العرض أيقظ في داخلها شعوراً عاشته منذ مدة ولم تتوقف عنده مطولاً؛ حين توفي والدها وكتبت أوراق النعوة، لاحظت أن الأسماء المدونة عليها كانت كلها مسبوقة بلقب علمي إلا اسمها هي. قرأت في حينه : الدكتور وسيم والسيدة حياة والدة

الدكتور وجيه والأستاذة رلا زوجة الأستاذ ... استوقفها ذلك وتمنت لو كان لها لقب كأخيها ووالديها . لكن ضرورة الاستمرار في العمل لتأمين عيشها وعيش أولادها أسكت هذا التمني عندها. أسكته لكنه لم يلغه وها هو سمير يعرض عليها ما كانت تتمناه من دون أن تفصح عنه. شعرت أن سمير يقرأها جيداً ويعرف حتى أحاسيسها الدفينة . فرحت بعرضه وتهيبت منه في الوقت ذاته.

ــــ لكن الموضوع يتطلب سنوات عديدة وتعباً و...

ــــ أنا هنا لمساعدتك في كل ما تحتاجين إليه والفرصة الآن متاحة؛ لقد أنشأ المعهد الذي درست فيه التمريض منذ سنوات، قسماً للدراسات العليا في الصحة العامة وسيباشرون هذه السنة. ماذا لو سجلت نفسك فيه؟ ستكونين أول ممرضة في لبنان تحصل على هذه الدرجة العلمية، بعدها ستتابعين في فرنسا حيث يوجد

كليات للصحة العامة . حينذاك ستفتح أمامك كل المجالات في المنظمة والجامعات و...

أنعش هذا القول طموح حياة التي لم تتردد في الإجابة بكل حماسة : «سأفعل. متى يبدأ التسجيل في المعهد؟».

— أنا عضو في لجنة التحضير لهذا المشروع، سأهتم بالأمر، سأقوم بكل ما يلزم.

— 7 —

طبعاً، بعد هذا الاتفاق الذي أنعش طموح حياة من جديد وزرع الفرح في قلب سمير الذي أحكم سيطرته عليها، مارسا الحب بشكل رائع قبل أن يفترقا كل إلى بيته. لكن المبتسم لم يكن مسروراً، فكل ما يبهج قلب حياة ويبعث فيها الأمل ينغص عيشه هو ويدفعه إلى تدبير ما يعكر ذلك. حاول إقناع حياة بالعدول عما اتفقت

عليه مع سمير، لكنه فشل وأخذ يفكر بوسيلة أجدى .
يعرف أن نقطة ضعفها، في ذلك الوقت، كانت وجيه البعيد عنها. تمدد بالقرب منها في السرير وأخذ يخبرها أن وجوه ليس مرتاحاً وأنه على خلاف مع زوجته التي بدأت تعذبه وعلى خلاف أيضاً مع وسيم وأنه لا يدرس ولا يتابع تخصصه كما يجب و...

لم تتحمل حياة ما سمعته واتصلت فوراً بابنها الذي أخبرها أنه في أحسن حال على الرغم من التعب وصعوبة العمل في المستشفى. سألته عن علاقته بخاله، اطمأنت وحاولت النوم من جديد . المبتسم الذي لا يستسلم بسهولة عاد يكرر أن وجيه أخفى عنها الحقيقة:

ـــ ألم تسمعي صوته؟ الم تلاحظي سكوته وتردده حين سألته عن زوجته؟

ـــ صحيح، قالت لنفسها، لم يكن كالعادة فرحاً وممازحاً، هل يكون المبتسم على حق؟ سأزوره لأقف على الحقيقة.

في اليوم التالي أخبرت سمير بما قررته مساءً.

ـــ والجامعة؟ ستبدأ الدروس قريباً.

ـــ لن أغيب طويلاً، فقط أسبوعين وأعود، لن تبدأ المحاضرات الجدية قبل أسبوعين على ما أظن.

ـــ كما تريدين، لكني أرى أنك تبالغين في قلقك على وجيه. لا تنسي أن خاله إلى جانبه ولو كان يشكو من أي شيء لأخبرك.

ـــ لم يعجبني صوته، وكما تعلم، وجيه لا يحب أن يشغل بالي وهو دائماً يظهر القوة حتى ولو كان في أسوأ حال.

ـــ ماذا لو سافرت معك؟

ـــ هل تترك عملك هنا لمرافقتي؟ لماذا تسمح لنفسك بالسفر وأنت محاضر في الكلية بينما لا تسمح به لي وأنا مجرد طالبة أتلقى؟ قالت مازحة.

انتهى النقاش بينهما على أن تسافر حياة بمفردها وبأقرب وقت ممكن كي تعود بسرعة . اتصلت بوجيه وأخبرته، فرح بالخبر ولو أنه استغرب الأمر.

— 8 —

ركبت حياة الطائرة وجلس المبتسم إلى جانبها وأخذ يبث الرعب في قلبها كعادته في كل سفرة . بعد الإقلاع طلبت حياة لتقاوم شعورها بالخوف، الوسكي . شربت كأسين وغفت كي تتجنب وشوشات المبتسم الذي ما إن استيقظت حتى عاود كلامه حول الخطر وبخاصة أنها استفاقت على اهتزاز قوي بسبب فراغات هوائية وقد نبه القبطان الركاب إلى ضرورة ربط الأحزمة.

— ربما كانت النهاية، قال لها وهي تربط حزامها. الطائرة تعلو وتهبط بسرعة، ستكونين لي نهائياً، سأحميك بجسدي.

لفها بين ذراعيه إلى أن قطعت الطائرة المسافة المضطربة وعادت إلى طيرانها العادي المستقيم . انسحبت حياة من بين ذراعيه وقالت له : «لن أكون لك، أمامي الكثير من الطموحات وسأحققها رغماً عنك».

ــــ أعرف أن الوقت لم يحن بعد، لكن في النهاية...

قطع كلامه صوت القبطان الذي قال : «سنهبط قريباً في مطار لوس أنجلس ». ومرت مضيفة بالقرب منها لتقول : «هيا أعيدي مقعدك إلى الأمام واربطي الحزام». لكن المبتسم ظل يصر : «مرحلة الهبوط هي الأخطر، ستصطدم الطائرة بالأرض وتنفجر ». تجمدت حياة مكانها وهي تترقب الهبوط الذي أتى سليماً وهادئاً . نسيت حياة المبتسم الذي اختفى وأخذت تحضر نفسها لمغادرة الطائرة.

ــــ 9 ــ

بعد إتمام المعاملات الرسمية خرجت حياة من المطار لتجد وسيم ووجيه بانتظارها . حين رأتهما معاً فرح قلبها وبدأت تطمئن . كان اللقاء حاراً ذهبوا بعده

إلى بيت وجيه حيث كانت زوجة وسيم وزوجة وجيه تنتظرانهم. في طريقهم إلى البيت أخبرها وسيم عن عمل وجيه: «إنه فعلاًً مميز، الجميع في المستشفى يحبونه ويقدرونه وهو يعمل بكل جدية، سيكون طبيباً ممتازاً». استراحت حياة قليلاً ثم جالت في أنحاء البيت لتأخذ فكرة عن الوضع الذي يعيش فيه ابنها . البيت مؤلف من غرفتي نوم وصالون وغرفة طعام صغيرة ومطبخ وحمامين. تفقدته واكتشفت أن وجيه لا ينقصه شيء من براد وغسالة و .... تناول الجميع العشاء وانصرف وسيم مع زوجته . لكن حياة لم تستطع النوم قبل أن تختلي بوجيه لبعض الوقت كانت زوجته خلاله تعيد ترتيب البيت وتنظيف الأواني في المطبخ . تحدثت مطولاً معه واستفسرت عن علاقته بزوجته وطرحت عليه كل ما يجول في خاطرها ويقلق بالها وهو كان يجيب بكل عفوية وصدق إلى أن أفرغت كل هواجسها فاستراحت ونامت من دون أن يزورها المبتسم.

أمضت حياة أسبوعين مع أخيها وابنها، أمضتهما وهي تراقب حياة ابنها الزوجية، لم تكتش ف إلا الوفاق والمحبة بين كنتها وابنها. فاطمأنت وعادت إلى بيروت، عادت برفقة المبتسم الذي لم يجرؤ على محادثتها خلال رحلة الإياب كما فعل في طريق الذهاب لأنها أسكتته ولم ترغب في الإصغاء إليه.

— 10 —

عادت إلى لبنان وباشرت الدراسة في المعهد .

خلال العطل كان سمير ينظم لها البعثات إلى الخارج حيث كان يرافقها من خارج الفريق لأنه كما نعلم قد تقاعد عن العمل في إطار منظمة الصحة العالمية .

انقضت السنة الدراسية الأولى ونجحت حياة في الامتحان. خلال تلك السنة لم يزرها المبتسم كعادته لأن حياة كانت دائمة الانشغال بدرسها وزيارة ا بنتها

وملازمة سمير لها . لكنه كان يتحين الفرص ليفرغ سمومه في رأسها وبخاصة تلك التي تتعلق بصحتها . كلما شعرت بألم ما وفي أي ناحية من جسدها، أطل المبتسم رأسه ليقول لها : «لقد عاد المرض من جديد وهذه المرة ستكون النهاية . إن استطعت أن تقهري المرض مرة فأنت عاجزة عن قهره مرة ثانية لأنه سيكون أقوى منك ومن كل مناعتك ومقاومتك ». تتصل بسمير وتخبره بما تشعر، يضحك ويردد : «لقد شفيت نهائياً ألم تقتنعي بعد؟».

ـــ لا لم أقتنع بعد، لقد قلتم لي في البداية إنني لن أعود إلى الوضع الطبيعي إلا بعد مرور عشر سنوات وأنت تعلم أنها لم تمر بعد.

ـــ لقد مرت السنوات الخمس وهي مرحلة الخطر الحقيقي، أما الآن فاطمئني.

كان سمير يقول لها ذلك لكنه لم يكن مقتنعاً كلياً بما يقول فيتابع : «لكي ترتاحي ونرتاح معك، سنجري الفحوصات اللازمة ». تبدأ الفحوصات وخلال مرحلة

انتظار النتائج يصبح المبتسم ملازماً لها لا يف ارقها لا في الليل ولا في النهار، سواءً أكانت وحدها أم برفقة الآخرين. تبقى في حالة حوار دائم معه ولا ينقذها للحظات قصيرة إلا سمير الذي يحاول بشتى الطرق المزاح وتَتْفيه ما تشعر به من ألم أو غيره . هند أيضاً كانت تساهم مع سمير في إبعاد المبتسم عن حياة . تجالسها وتقول: «أنا واثقة أن ما تشعرين به هو لا شيء، أنا أيضاً أشعر مثلك بآلام كثيرة لكني أتجاهلها فتختفي بعد فترة ». ويجيب المبتسم في أذن حياة التي تبقى صامتة: «أنت سليمة البنية وآلامك غير آلامي».

تعيش حياة بصحبة المبتسم إلى أن يرن الهاتف وتسمع: «حبيبتي كل شيء عل ى ما يرام، كل النتائج جيدة. عليك أن تخرجي من وسواسك . هيا سنحتفل الليلة، أدعوك إلى...» يختفي المبتسم نهائياً وتعيش حياة فترة ممتعة لا تطول إذ يعود المبتسم من جديد مصراً كما في كل مرة، على إقلاقها، وتتكرر مرحلة الخوف

والفحوصات المخبرية وغيرها وتأتي النتائج ا لحسنة وتنطوي مرحلة لتليها مرحلة أخرى مشابهة و...

— 11 —

بعد اطمئنان حياة وإبلاغها بالنتائج الحسنة قال لها سمير ذات مرة : «الآن ستبدئين بتحضير رسالتك للدراسات العليا، ما هو الموضوع الذي تودين معالجته؟». اختارت حياة موضوعاً يتعلق بمهنة التمريض. وبدأت التحضير والبحث والمبتسم يطل من وقت لآخر لإقناعها بلا جدوى ما تقوم به فتترك أوراقها ويدور بينهما حوار يطول أو يقصر بحسب مزاج حياة؛ أحياناً تتجاوب مع رغبة المبتسم ويكون ذلك حين تواجه صعوبة معينة في البحث، وأحياناً أخرى ترفض تَدَخّلَه ويكون ذلك حين تسير الأمور بشكل ج يد ويكون سمير قد ساعدها في تقدم العمل.

— 12 —

خلال تلك السنة من التحضير اتصل بها وجيه يوماً، ليزفّ إليها خبر حمل زوجته . بعد وقت قصير علمت من رلا أنها حامل. وهكذا ما كادت تنهي دراستها حتى انشغلت برلا التي كان حملها صعباً . نسيت حياة نفسها وانشغلت بابنتها مما جعل المبتسم يستاء ويغير في أساليبه إذ حول قلق حياة باتجاه آخر وجعلها شديدة القلق على سلامة ابنتها وسلامة الجنين، وكما في مراحل حملها هي منذ سنوات عديدة، أصبح المبتسم يبتدع الأخبار السوداء حول صحة الجنين، وبدأت حياة تحلم بأن رلا ستنجب مسخاً أو أفعى أو أنها أجهضت أو... وتستيقظ مذعورة لتراه في زاوية الغرفة يدنو منها ليضمها إلى صدره. تدفعه بعيداً وتذهب إلى رلا وتصر على زيارة الطبيب للتأكد من سلامة سير الحمل والطفل معاً. لكنها ما كانت تهدأ إلا بعد استشارة ابنها وجيه

الذي هو أهم طبيب نسائي بنظرها . تطمئن وتعود إلى سمير ورسالتها التي أنجزت، بعد عناء، بشكل جيد ونالت عليها تقدير اللجنة الفاحصة التي كان سمير أحد أعضائها. بعد المناقشة، أقامت لها هند سهرة دعت إليها كل الأصحاب والأهل وانتهت تلك السهرة بأن نقلت رلا إلى المستشفى للولادة؛ وأتى زياد الذي أصبح محبوب جدته حياة التي انتقلت إلى بيت رلا، كما فعلت أمها معها من قبل، لمساعدتها وتدريبها على الاعتناء بالطفل.

— 13 —

وجود حياة في بيت رلا لم يكن كوجود الست هلا في بيت حياة، إذ إن وليد، زوج رلا وعلى عكس ما قام به عماد زوج حياة سابقاً، رحَّب بحماته وارتاح لوجودها إلى جانب ز وجته لأنه كان كثير الانشغال في

مكتبه ولا يعود إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل. رحب بحماته وطلب منها أن تأتي بممرضة لمساعدتها كي لا تتعب . قدرت حياة هذا الاهتمام بها وانحصر دورها في الإرشاد والمراقبة والبقاء مع رلا التي أصيبت بنوع من الحساسية الجلدية ب عد الولادة و«تلك حالة معروفة عند بعض السيدات بعد الولادة » كما قال لها سمير، لكنها حالة دامت لأكثر من شهر.

كانت الممرضة تأتي صباحاً وتغادر في أوائل الليل، الأمر الذي جعل حياة ووفقاً لرغبتها، تنام مع زياد في غرفة واحدة كي تتمكن من مراقبة نومه . هنا تدخل المبتسم الذي اغتاظ من انشغال حياة عنه، ليجعلها تعيش القلق الذي عاشته مع أولادها في أيامهم وشهورهم الأولى . تنام فيوقظها ليقول لها إن زياد يختنق أو إنه يتقيأ أو ... تهبّ من سريرها وتركض إلى الطفل الذي يكون نائماً كالملاك . لكن المبتسم يعاود محاولاته ولا يتركها إلا في الصباح حين تأتي الممرضة.

في تلك الفترة كانت حياة تراقب سلوك وليد وتفرح به لأنه وبالرغم من مشاغله، كان شديد التعلق بزياد وحريصاً على العودة باكراً إلى البيت كي يرى ابنه قبل نومه؛ وأحياناً كثيرة يشارك في حمامه والاهتمام به .

هذا السلوك كان يوقظ في ذاكرة حياة سوء سلوك عماد مع ابنها وجيه، فتشعر أن زياد يتمتع بما حرم منه وجيه، الأمر الذي كان يفرحها ويحزنها في الوقت نفسه.

— 14 —

بعد أقل من شهر، اتصل وجيه بأمه ليخبرها أن زوجته أنجبت صبياً.

ـــ مبروك، وماذا أسميته؟

تردد قليلاً ثم قال : «طبعاً عماد، أنا لست حاقداً عليه، فهو أبي». صمتت حياة بدورها للحظة ثم قالت :

«مبروك من جديد، لقد أحسنت يا وجيه . قبّل زوجتك ونحن بانتظارك. هل أخبرت والدك؟».

ــــ لا، أخبرتك أولاً والآن سأتصل به.

ــــ رضي الله عنك وحرس خطاك.

ــ 15 ــــ

في بداية الصيف ذلك العام عاد وجيه برفقة زوجته وابنه إلى لبنان، وبعده بقليل لحق بهما وسيم وعائلته وضج بيت الست هلا بالبهجة وغاب المبتسم عن حياة التي كانت تأوي إلى فراشها مهدودة من النعاس بعد تمضية نهارات مليئة بالفرح مع أولادها وأحفادها، حتى أن سمير قد غُيّب، وإن ليس كلياً، عن اهتماماتها إذ أصبحت لقاءاتهما المنفردة قل يلة وقصيرة تعود بعدها حياة، غالباً برفقة سمير إلى أجواء أولادها .

خلال تلك العطلة، زار وجيه والده وعرّفه إلى عماد الصغير مما دفع بعماد الأب إلى مراجعة نفسه والندم على سلوكه السابق مع وجيه، وللتعويض عن الماضي أقام حفلة كبرى على شرف وجيه، حفلة حضرها الجميع إلا سمير الذي علّق حين التقى بحياة، بعد الحفلة:

ــــ صحيح أن وجيه رجل أصيل واحترم علاقته بوالده. إنه، حقاً، نبيل.

ــــ هذه تربيتي أنا.

ــــ لا بل تربية الست هلا وهند والسيد رضا رحمه الله، وتابع ممازحاً : «لو اتكلنا على تربيتك، ما شاء الله، لكان وجيه شخصاً فاقد التوازن كلياً».

ـــ 16 ــــ

فترات الفرح لا تدوم إذ مرت العطلة بأسرع ما كانت حياة تتوقع وحان وقت الرحيل، رحيل ابنها وأخيها؛ رحيلٌ أحزن قلبها كما أحزن بشكل خاص قلب الست هلا وقلب هند، رحيل أحزن الجميع وأفرح قلب المبتسم الذي اشتاق إلى حياة وأفرح قلب سمير الذي اشتاق هو أيضاً إليها. بعد الوداع في المطار رافق سمير حياة إلى شقته وحاول إشباع اشتياقه إليها . كانا نهمين كهادتهما بعد كل فراق . لكن حياة، وعلى الرغم من شوقها إلى سمير وإلى لمساته وحنانه، كانت شديدة التوتر؛ إذ إن المبتسم، ما إن صعد المسافرون إلى الطائرة حتى حضر ليزرع القلق في قلبها وما إن انتهت من ممارسة الحب مع سمير حتى قالت: «لست أدري لمَ أنا خائفة وقلبي يغلي، لعن الله الطائرات، لم أحبها يوماً، يا رب توصلهم بالسلامة، لن أرتاح قبل ذلك ». بالفعل ظلت برفقة المبتسم الذي حاول جاهداً أن يرسم في مخيلتها كل أنواع الكوارث الممكن ة، إلى أن سمعت صوت وجيه الذي طمأنها على سلامة الوصول.

— 17 —

هدأت حياة بعد رحيلهم وعادت إلى نظامها السابق إذ كانت تمضي أغلب أوقاتها، خارج أسفارها مع سمير، برفقة رلا وزياد وتعود في المساء إلى البيت حيث الست هلا وهند تنتظرانها وقد بدأتا تشيحان وتتكرّس لديهما عادات معينة؛ الست هلا تسهر قبالة التلفاز حتى الساعة الحادية عشرة بعد أن تتناول وجبة عشاء خفيف، ثم تأوي إلى فراشها، بينما هند التي تقاعدت من عملها، كانت تمضي وقتها بالقراءة والرسم والخروج مع صديقها المتزوج . ثم تعود إلى البيت وتنتظر حياة لتسهر معها إلى ساعة متقدمة من الليل بعد نوم الست هلا.

في إحدى تلك السهرات قالت هند : «هل تعلمين بمن التقيت اليوم؟».

ـــ كيف لي أن أعلم؟ بمن التقيت؟

ـــ لا تصدقين إن قلت لك، لقد التقيت برائد.

صمتتا لفترة قالت بعدها حياة. «كيف وأين؟ هل ما زال وسيماً ذلك النذل؟».

ـــ التقينا صدفة في م حل لبيع الألبسة الرجالية . تعلمين أن عيد ميلاد هاني (وهو صاحب هند) كان البارحة فذهبت لشراء هدية له . حين دخلت المحل وجدت رائد يشتري قمصاناً له . حين رأيته وقد غزا الشيب رأسه، ارتعش جسدي وارتبكت، لكنه سارع إلى مناداتي بدهشة : «هند، ما هذه المفاجأة، ماذا تفعلين هنا؟» تقدم مني وقبلني على وجنتي وأنا صامتة لا أدري كيف أتصرف . تابع. «لا زلت جميلة يا هند، لم تؤثر فيك السنين كما أثرت بي ». لا أخفي عليك، سررت بلقائه واستيقظ في ذاكرتي كل الماضي، لقد أحببته يا حياة، أحببته كثيراً ولم أنسه يوماً.

ـــ لكنك لم تذكريه إطلاقاً خلال كل تلك السنين.

ـــ لم أذكره فعلاً مراعاة لشعورك . أحببته فعلاً، لكن بعد ما فعله معك كرهته واستمر ظله يطاردني وأحياناً كثيرة أخلط بينه وبين هاني الذي أناديه أحياناً رائد.

ـــ أكملي ماذا فعلتما؟

ـــ دعاني إلى أحد المقاهي وأخبرني عن حياته بعد فراقنا.

ـــ يعني بعد هروبه كاللص.

ـــ إذا أردت.

ـــ ألم يسألك عني هذا الوغد؟

ـــ بلى، وأخبرته عما مررت به، لكني لم أخبره أنك حملت منه، تجاهلت كلياً علاقته بك.

ـــ حسناً فعلت فهو لا يستأهل هذا الخبر . وهو كيف أمضى حياته؟

ـــ أخبرني أنه تزوج من إنسى قطرية ثرية جداً لكنه لم يرزق بأولاد لأن زوجته كانت عاقراً وقد حاولوا بواسطة الأنبوب وكل المحاولات فشلت و .. بعد وقت قصير مرضت زوجته وتوفيت وورث كل مالها.

ـــ لقد نال جزاءه. وهل يعيش وحده الآن؟

ـــ نعم، لكنه كما تعرفينه، زير نساء وهو يتنقل من واحدة إلى أخرى همه القنص السريع والإغواء . هو كمعظم رجالنا الشرقيين يتباهون بعدد انتصاراتهم وكأنها الدليل على رجولتهم. مساكين.

ـــ ليس كلهم، ألا ترين سمير؟

ـــ قلت أكثرهم ولم أعمم وهذا بنظري دليل على أنهم لم يحظوا بالحب الحقيقي أو أنهم غير قادرين على الحب. الإنسى بالنسبة لهم ليست سوى جسد يتمتعون به حتى استنزافه فيعدلون عنه ويصطادون غيره و .. لكن تصوري أنه عرض علي الزواج بعد أن علم أنني لم أتزوج، ضحكت طبعاً من عرضه وقلت له : «بعد هذه

الشيبة؟»، فأجابني : «ما المانع؟ هل لديك أحد؟ »
فأخبرته عن علاقتي بهاني.

ــــ وماذا تنتظرين منه وهو متزوج؟ سأل.

ــــ لا أنتظر شيئاً وأكتفي بما أنا عليه، هاني يملأ فراغاً ولا أريد منه أن يملأ حياتي.

ــــ ألم تقولي له إنه نذل؟ سألت حياة . ألم تذكّريه بما فعله بك وكيف أنه هرب من تحمل المسؤولية و..

ــــ لم أسأله شيئاً عن الماضي وتجاهلت كلياً علاقته بك كي لا أعطيه أهمية أو أجعله يعتقد أنه أثر في حياتك.

ــــ ربما كنت على حق، وكيف يمضي وقته، لقد أصبح متقدماً في السن.

ــــ إنه في الستة والسبعين من عمره، أعرف تاريخ ميلاده ولا تنسي لقد تجاوزت أنا الخامسة والستين.

ــــ لكنك ما زلت شابة وأنيقة.

ـــ وهو أيضاً، فلولا الشيب لقلت إنه في الخمسين.

ـــ يعني؟

ـــ لا يعني شيئاً. شربنا القهوة وذهب كل منا في سبيله. حاول إيصالي إلى البيت، فهو لديه الآن سائق وسيارة فخمة، لكني اعتذرت وقلت له إني أملك سيارة. افترقنا، ولا أراوغ، لقد أيقظ شيئاً ما في داخلي.

ـــ أما أنا فلا أريد رؤيته أبداً.

ـ 18 ــ

نامت تلك الليلة حياة وهي تستعيد الماضي وتفكر بهند التي غفرت لها كل ما حدث بينها وبين رائد من دون أن تغير سلوكها وحبها لها. نامت حياة لتحلم بوالدها: كانت جالسة أمام لجنة المناقشة لرسالة الدراسات العليا ورائد كان يحتل مكان سمير. بعد

المناقشة ظهر فجأة والدها الذي كان بين الحضور ولم تنتبه إليه، اقترب منها، هنأها وقال مشيراً بيده إلى مكان بعيد: «انظري أنا أسكن هناك »: نظرت حيث أشار فرأت سلماً طويلاً يوصل إلى بيت صغير يشع بالأنوار كشجرة الميلاد. استيقظت وهي تتساءل ما معنى هذا الحلم؟ أخبرت سمير به طبعاً من دون ذكر رائد، فسّره على هواه ووفقاً لما تتمناه حياة، قال: «والدك على حق، أنت الآن متحررة ولديك كل الوقت . شهادة الدراسات العليا ليست سوى الخطوة الأولى نحو الدكتوراه وهي البيت المشع الذي ستصلين إليه بعد تسلق السلم . هيا فلنسافر إلى فرنسا حيث تسجلين موضوعاً مع أستاذ أعرفه، ثم نعود وتكتبين الأطروحة على مهل . بعدها ستحصلين على مركز مهم في المنظمة وستفتح أمامك كل المجالات وتشعّين كشجرة الميلاد».

—— هل يستحق هذا بعد، وقد قاربت الخمسين من عمرك؟ قال المبتسم بصوت منخفض . فأجابت حياة :

«بعد هذا العمر؟ الدكتوراه تتطلب عملاً طويلاً لسنوات، لا أدري إن كنت...

ـــ ما زلت في أول حياتك وعطائك، لا تترددي، حلمي أن أراك دكتورة وأعرف أنه حلمك أيضاً . إن اخترت موضوعاً مهماً وأحسنت معالجته فسينشر ويصبح مرجعاً في مجال التمريض لأنه مجال قاحل لم يكتب فيه الكثير.

ـ 19 ـــ

بقيا معاً طيلة ذلك اليوم يستعرضان مواضيع مختلفة واتفقا أخيراً على متابعة الموضوع الذي كانت حياة قد اختارته لرسالة الدراسات العليا مع توسيع إطاره ليشمل مهنة التمريض بشكل عام وليس فقط في لبنان. بعد الاتفاق اتصل سمير بصديقه الفرنسي البروفسور ميشال الذي يدرس في كلية الصحة في

جامعة بوردو، شرح له الأمر عارضاً عليه الموضوع الذي تم اختيارهما له. وافق البروفسور ميشال من دون تردد وحدد لهما موعداً بعد أسبوع . في التاريخ المحدد كان سمير وحياة في فرنسا حيث اجتمعا بالبروفسور الذي أبدى اهتماماً كبيراً بهما وبالموضوع بعد أن قرأ بسرعة المخطط الذي قدماه له، وافترقوا وهو يقول : «أنا موافق مئة في المئة على الموضوع فهو جديد وسيحظى حتماً بموافقة اللجنة، لجنة الدكتوراه. لكن ذلك يتطلب وقتاً، بحدود الشهر تقريباً، لكني واثق من قبولها له بل تشجيعها على معالجته ». توجه إلى حياة وتابع: «باشري البحث منذ الغد، لا تنتظري رأي اللجنة فهو حتماً إيجابي وعلى مسؤوليتي وإن تمكنت من معالجة كل ما هو وارد في المخطط، سيكون عملاً مميزاً وس... لن أعدك بشيء الآن سنرى في حينه، يتوقف ذلك على جدية المعالجة».

— بماذا كان سيعدني؟ سألت حياة بعد أن انصرفا.

ضمها سمير وقال : «ربما طُلب نشره في كتاب كما قلت لك سابقاً». دغدغ هذا الكلام شعلة الطموح في داخلها وقالت: «نعود غداً إلى لبنان وسأباشر العمل في أسرع وقت».

ـــ سنعود إلى لبنان لكن بعد أن نتمتع معاً في باريس لمدة أسبوع تنسين خلاله كل شيء وتكونين لي وحدي.

ــ 20 ـــ

بعد عودتهما إلى لبنان، باشرت حياة العمل ونسيت كلياً المبتسم لأنها باتت تقضي الليل بالقراءة وتدوين الملاحظات ولا تأوي إلى فراشها إلا قبيل الصباح وقد هدّها النعاس. كل هذا الوضع لم يعجب المبتسم هو الذي يستاء بشكل أساسي من فعل الكتابة . فبعد أن فشل في إشغال حياة بمشاكلها الصحية بعد انقضاء السنوات

العشر من الخطر، حاول أن يغير في آلية حضوره إلى جانبها، وهي آ لية تعتمد إلهاء حياة عن متابعة عملها وتحقيق طموحها. تلك الآلية تمحورت حول تعلق حياة المفرط برلا وابنها زياد وبخاصة أن وجيه كان لا زال في أميركا.

بعد أقل من شهر على مباشرة حياة العمل في أطروحتها، مرض زياد وارتفعت حرارته، فأهملت كل أوراقها ولازمت بيت ابنتها التي لا تثق إلا بأمها في مثل تلك الحالات وهي تعرف جيداً اتساع الحيز الذي تشغله في قلبها. أهملت حياة كل شيء واهتمت بحفيدها الذي تعافى بعد أسبوع فعادت إلى عملها وقد استعصى عليها بعد ذلك الانقطاع مما فرض عليها مراجعته من جديد كي تتمكن من المتابعة . لكن الأطفال يمرضون كثيراً وبخاصة في سنينهم الأولى، الأمر الذي أدى بحياة إلى إهمال بحثها إذ أصبح متقطعاً وراح يوتر أعصابها كلما قاربته بعد انقطاع. في إحدى عوداتها إلى العمل، جلست إلى مكتبها، وإذا بالمبتسم يمثل أمامها :

«لماذا كل هذا التعب ورلا بأمس الحاجة إليك، أليست سعادتها أهم من كل ما تبحثين عنه وتسهرين الليالي من أجله؟».

فكرت حياة بما سمعته ولاحت أمامها المتعة التي يؤمنها الكسل إذا ما استسلمنا إليه . طوت أوراقها وعادت إلى أجواء ابنتها وأمها وهند، وإلى سمير الذي فشل في إقناعها بمتابعة العمل عارضاً كل مساعدة ممكنة. طوت أوراقها غير آبهة بالعواقب، همها الوحيد أن تقوم بإسعاد ابنتها وحفيدها ولو على حساب طموحها. طوت الأوراق والمبتسم يشد على يدها قبل أن يلفها بذراعيه ويحملها إلى السرير متخففة من عناء البحث والقراءة والكتابة والسهر و ...: «عدتِ، فأهلاً بك، سنمضي ليلة ممتعة ». وهكذا نامت حياة ورأسها على ذراع المبتسم الذي رعى أحلامها محاولاً إبعادها عن الكوابيس، إذ انقضى الليل وهي في واحة من الورود على ضفاف جدول عذب المياه. لكن سمير أصر عليها: «أكملي ولو بتقطع، لا تسيئي إلى نفسك بهذا

الشكل، أنا أعرف ما للكسل من جاذبية، إنه أمتع شيء في الحياة وعلينا قهره كي نحقق ما نصبو إليه وإلا تحولنا إلى بهائم، لا بل البهائم تصبح أفضل منا ».

تأثرت حياة بكلامه وعادت إلى أطروحتها التي قررت إتمامها من دون أن ترهق نفسها، محاولة تقسيم وقتها بشكل منطقي ومريح: «حتى ولو استغرق إنجاز العمل وقتاً أطول، لست مستعجلة».

— 21 —

قبل انتهاء السنة الأولى على ولادة عماد، أخبرها وجيه أن زوجته حامل من جديد.

— مبروك، لكن لمَ هذه العجلة؟

— أريد أن أمنح أولادي الجنسية الأميركية، ولهذا السبب سننجب أولادنا هنا قبل عودتنا إلى لبنان.

ـــ إنها فكرة جيدة، لا أحد يعرف ما يخبئ لنا المستقبل وبخاصة ... كانت ستقول : «وبخاصة أن الوضع في لبنان لا يشجع». لكنها خافت أن يدفع كلامها هذا بوجيه إلى البقاء في أميركا، فصمتت وحولت الكلام إلى وجهة أخرى: «هل أنت بحاجة إلى مال؟ سأساعدك في كل ما تحتاج إليه لا تحمل هماً».

ذهبت مباشرة إلى رلا وأخبرتها ما سمعته من وجيه وتابعت: «هيا أنجبي لنا طفلاً آخر كزياد».

ـــ لا زال الوقت مبكراً على الحمل مجدداً، أنسيت كم تعذبت في حملي.

ـــ أنا أعرف أن لا أحد يستطيع إقناعك بالموضوع سوى وليد، سأكلمه.

ـــ لكن الأمر لا يعنيك. أجابها المبتسم، لماذا هذه الحشرية؟ ولد واحد يكفي.

ـــ لا، لا يكفي. أجابت بصوت مرتفع.

ـــ ماذا تعني؟ سألتها رلا.

ـــ لا شيء، فقط أفكر بأن زياد يحتاج إلى أخ أو أخت، لا يجوز أن يبقى وحيداً.

ـــ لست مستعدة الآن . انتهى الموضوع . ربما حاولت لاحقاً.

ـــ ربما؟ حتماً ستحاولين وستنجبين لنا أولاداً كثراً. أنا سأهتم بهم لا تخافي.

ـــ وهل تحملين مكاني؟

ـــ ليتني أستطيع ذلك لأوفر عليك كل ما تعانينه أثناء الحمل. على كل حال الحمل الثاني هو دائماً أسهل من الأول.

ثابرت رلا على استبعاد الحمل وعدم الإصغاء إلى نصائح أمها، فقد كانت على اتفاق مع زوجها حول اختيار الوقت المناسب للحمل الثاني.

ـ 22 ــ

نسيت حياة الموضوع وانصرفت إلى الاهتمام بزياد ومتابعة عملها . لكن المبتسم الذي لاحظ أن أمراض زياد المتتالية كانت تشفى بسرعة، الأمر الذي لم يثنِ حياة عن متابعة قراءاتها وبحثها، حوّل نشاطه إلى ناحية أخرى، ناحية تبعد حياة بشكل مستمر عن متابعة أطروحتها. حين تكون حياة مع زياد، تنسى كلياً المبتسم الذي يحاول إقحام نفسه بينهما ويفشل . يبتعد وينتظرها في البيت . يستقبلها ويحاول إلهاءها بشتى المواضيع، لكنها كانت تجد دائماً أوقاتاً للدراسة ولو لساعة واحدة قبل النوم. تجلس إلى المكتب وتحمل القلم، فيتوتر ويمثل أمامها ليثبط ع زيمتها ويجمّل لها متعة الاسترخاء في السرير. كانت تبعده وتتابع الكتابة إلى أن تتعب وتنام من دون أن يتمكن من ضمها. لم ييأس وثابر على ملاحقتها إلى أن أرغمت يوماً على إهمال كل أوراقها والركض مسرعة إلى المطبخ حيث وجدت أمها ملقاة على الأرض تصرخ وهند إلى ج انبها تحاول مساعدتها.

ـــ ماذا حدث؟ ما بها؟

ـــ زلت قدمها ووقعت، لم أكن معها، ظننتها نائمة في غرفتها ولست أدري ما الذي أتى بها إلى المطبخ في مثل هذا الوقت.

حاولتا مساعدة الست هلا على الوقوف لكنهما عجزتا، فاتصلت حياة بسمير الذي أتى مسرعاً مع سيارة إسعاف حملتها إلى المستشفى حيث تبين أنها كسرت وركها. لازمت الست هلا المستشفى عشرة أيام عادت بعدها إلى البيت حيث أمضت أكثر من شهرين في السرير قبل أن تستطيع الوقوف والسير متكئة على (الووكر). هكذا انقطعت حياة عن عملها وعادت إلى أحضان المبتسم الذي كان ينتشي كلما أوت متعبة إلى فراشها ويضمها بين ذراعيه كطفلة صغيرة عاجزة عن كل مقاومة. يضمها ويخبرها قصص الأطفال إلى أن تغفو ويحرس نومها معتزاً بنصره وبقوته التي لا تقهر.

— 23 —

انتصارات المبتسم كانت متقطعة . واستطاعت حياة أن تمارس رغبتها في إنجاز عملها للحصول على الشهادة واللقب، لكن ذلك التحصيل تم ببطء وبمواجهات مع المبتسم الذي لا يعرف التعب ولا النوم ولا الغياب، فهو الحاضر الدائم، غذاؤه الوحيد مرور الزمن، يقتات باللحظات ويزداد شباباً وفتكاً.

كتابة أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ليست بالأمر السهل وتتطلب سنوات لإنجازها. من هذه الفجوة، فجوة الزمن، كان المبتسم يتدخل ليحبط عزيمة حياة : «لماذا تريدين هذه الشهادة؟ أليس من الأفضل أن تتمتعي برفقة أحفادك؟ لماذا السهر أمام شاشة الحاسوب وبين الأوراق والكتب؟ لماذا كل هذا التعب؟». أحياناً كثيرة كانت حياة تصغي إليه فترمي القلم وتتصل بسمير لتخرج إلى المقهى أو المطعم أو ... يلبي سمير طلبها ويحثها من

جديد على المثابرة : «أفهمك جيداً، العمل ليس سهلاً، لكني حاضر لكل مساعدة . ارتاحي قليلاً وباشري من جديد وأنا إلى جانبك». وتعود حياة إلى عملها ثانية بعد أن تتزود بجرعة المنشط التي يوفرها لها تشجيع سمير.

مرت تلك السنة، الس نة الأولى بعد تسجيل موضوعها في بوردو ولم تنجز حياة إلا القليل من مخطط الدراسة . وفي بداية الصيف اتصل بها وجيه ليخبرها أن زوجته أنجبت صبياً وأنه آت، كالعادة، مع عائلته لتمضية العطلة في لبنان . فرحت حياة بالخبرين اللذين شكلا لها حجة دسمة للابتعاد كلياً عن جو ا لكتابة وانشغلت بالتحضير لاستقبال ابنها . بالفعل، كانت إقامة وجيه في بيت جده صاخبة إذ إنها، وبسبب المولود الجديد أخذت طابعاً مميزاً وانصرفت حياة مع هند لصنع «المغلي» واستقبال المهنئين بولادة الطفل الجديد وسام. تلك الفترة كان المبتسم متوارياً لا يظهر لأنه كان مطمئناً إلى انشغال حياة وابتعادها عن عملها الكتابي.

— 24 —

الزمن لا يتوقف وحصاده لا ينتهي، يمر، يبتلع ولا يرتوي. انتهت العطلة وعاد وجيه إلى الولايات المتحدة وهدأ البيت الذي تحول بوجوده مع عائلته إلى ورشة من الحركة الدائمة . هدأ البيت وعادت الحياة إلى سابق عهدها من الروتين بين حياة وهند والست هلا؛ الأم تهتم بالطبخ وتجلس أمام التلفاز وتستقبل بعض الزوار، هند تخرج لملاقاة صديقها وبعض الرفيقات وتعود لتلعب مع أختها بالورق ثم تدخل غرفتها وتقرأ، إحدى الروايات المكدسة إلى جانب سريرها، بانتظار حياة التي غالباً ما كان ت تأوي في وقت متأخر، ذلك أنها كانت تداوم على زيارة رلا يومياً بعد الانتهاء من عملها وتنسى نفسها وهي تلاعب زياد حتى ساعة نومه. بعدها تلتقي بسمير وأخيراً تتوجه إلى البيت وتدخل مباشرة غرفة هند حيث تروي لها تفاصيل يومها وتستشيرها في

بعض الأمور قبل أن تقصد غرفتها لتجد المبتسم الذي لا يمل من انتظارها كل مساء.

يغمر المبتسم حياة بين ذراعيه، يقبلها بقوة هو الذي باتت تراه شاباً وسيماً ومغرياً . ترتاح في أحضانه وتستسلم له وهو ينتشي . لكن سرعان ما ينقلب الجو إذ يبث في أذنها : «ربما لم تشفي نهائياً كما يقول سمير، ربما عاود ك المرض ». تنهض من السرير لتذرع الغرفة بخطوات سريعة وهو مستلقٍ على الفراش، يرميها بنظراته وابتسامته المنتشية ويقول : «أليس من الأفضل لك أن تهتمي بصحتك بدل تبديد الوقت بين الكتب والوراق؟ ها أنت الآن جدة، فلماذا التعب بعد؟ لقد عملت طوال حياتك، استريحي الآن، تع الي، فأنا سأغمرك بالسعادة، تعالي إلى أحضاني، أنا الوحيد الذي لن يخذلك ولن يتخلى عنك أبداً . أولادك رحلوا عنك وسمير سيتركك، لن يبقى لك سواي . هيا تعالي إلى قلبي، فأنت أصبحت إنسى ناضجة وأنا مغرم بك، أعشق استدارات جسدك الممتلئ، هيا دعيني أشبع

رغبتي في امتلاكك، أنا الصامد الوحيد ». تستمع إليه وتتأمل ابتسامته الساحرة التي لم تتغير . تسير نحوه، تتمدد على الفراش وتغفو على ذراعه الممدودة تحت رأسها.

— 25 —

تتالت الأيام ومرت السنة الثانية من دون أحداث تذكر، مرت ضمن الروتين العادي الذي ألفته حياة، لكنها استطاعت أن تتقدم ف ي عملها وكان سمير إلى جانبها، يقرأ ما تكتب ويصحح بعض الأخطاء وهند تساعدها بالطباعة على الحاسوب. انتهت تلك السنة ولم يأت وجيه في الصيف بسبب انشغاله بتحضير الامتحان الخطي لشهادة البورد الأميركية . تعذر قدوم وجيه وانصب اهتمام حياة على حفيدها زياد الذي أمضت معه

الصيف تتنقل به وبرفقة هند ورلا إلى المسابح وأماكن تسلية الأطفال.

— 26 —

في بداية السنة الثالثة حملت رلا وفي الوقت نفسه أنبأها وجيه أن زوجته حامل : «سننجب هذا الولد وننتهي، هكذا يحمل أولادي الجنسية الأميركية قبل عودتي النهائية إلى لبنان».

— أنتظر عودتك على أحر من الجمر، أنتظر عودتك التي ستملأ حياتي . يا ليتك تقنع خالك وسيم بالعودة لنجتمع ونمضي ما تبقى لنا من العمر معاً.

— من الصعب أن يغادر نهائياً، لقد أسس حياته هنا وهو الآن طبيب مشهور . لا أظن أنه سيعود وبخاصة أن زوجته لا ترغب في العيش في لبنان . أما أنا فلن أبقى هنا مع أنهم يحاولون إغرائي بعقود ممتازة.

ـــ إياك أن تقبل، ما زلت في أول حياتك وستؤسس لمستقبلك المهني هنا بالقرب مني، فأنا لا أتحمل غيابك.

تنتهي من الكلام مع ابنها لتفكر بأمها : «كيف تستطيع تحمل فكرة أن ابنها سيبقى في الغربة بعيداً عنها؟ المسكينة قد استعاضت عن غيابه الفعلي بصورة له علقتها على جدار غرفة الجلوس قبالتها . يا إلهي لا تدعني مثلها أكتفي بالنظر إلى صورة وأنتظر رنة الهاتف». يظهر المبتسم: «هل تظنين أنك خالدة؟ اتركي ابنك يبني مستقبله كما يريد، ألا ترين الوضع في لبنان؟ ألا ترين التدهور الذي يتخبط فيه؟ ألا ترين أن كل من استطاع الهجرة لا يتردد؟».

ـــ أرى، لكننا سنبقى هنا ووجيه سيعود، سيعمل هنا بالقرب مني وهو يرغب في ذلك، لماذا تتدخل في ما لا يعنيك؟

ـــ كل ما يتعلق بك يعنيني وكل ما يبعدك عني يتعسني، لكن صبري لا ينفد ومرور الزمن هو في

صالحي. أكون أحياناً لجوجاً مع علمي الأكيد أنني لم أنضج بعد وأنك أنت أيضاً لم تنضجي كي نتوحد كلياً.

وتغفو حياة على نغمة صوته الذي يتردد في أنحاء الغرفة قبل أن يخترقها ويملأ كل الفضاء.

— 27 —

حمل رلا كان صعباً كما في المرة الأولى، مما اضطر حياة إلى تأجيل دراستها والاهتمام بابنتها التي لم ترتح إلا بعد مرور ثلاثة أشهر على بداية الحمل. انشغلت حياة بابنتها والمبتسم يردد في أذنها كلما لاحظ قلقها على عملها: «الحياة أهم من الكتابة والشهادات أيتها الغبية، وأهميتها أنها لا تترك أثراً بعدها سوى ما يعلق في الذاكرة التي تتلاشى مع الزمن لتُدخل من يرحل في ذلك العدم الذي يشكل نسيج كياني. الكل يرحل ولا يبقى سوى ابتسامتي الساحرة لأنها ساخرة».

ـــ الحياة فانية، أعرف ذلك، لكن علينا أن نحقق خلالها ما يشبع رغباتنا وطموحاتنا.

ـــ أوهام، أوهام. والمضحك أن البعض يقع في الوهم معتقداً أنه سيخلد ويمضي حياته في تقيؤ ما عاشه شخصياً أو ما عاشه سواه على الورق . لا يدري ذلك الغبي أن كل فعل كتابة هو اجترار وإيقاف لمسيرة الحياة التي لا تتوقف، غير آبهة بكل كتاباته وتعبه.

ـــ لكن من يكتب ويترك أثراً، لا يفنى وينتصر على ذلك العدم الذي ترمينا فيه الحياة بعد أن تكون قد شبعت منا.

ـــ هذا هو الوهم لأن هؤلاء يتعاملون مع زمن متناهٍ بينما زمن العدم لامتناه . في التناهي يقع فعل التقدير والتقييم، أما في اللاتناهي فتتربع السكينة حيث لا قيم ولا مقيّمون ولا نظام ولا منظّمون ولا قوانين ولا مشرّعون.

ـــ ماذا تقصد؟

ـــــ أقصد أن زمن العدم هو اللازمن ونسيج الحياة هو الزمن . لهذا السبب من يقع في حضن الحياة لا يستطيع الفرار من الزمن ولهذا السبب أيضاً هو عاجز عن فهم اللازمن العدمي.

ـــــ ما لنا وللزمن العدمي، كما تسميه، نحن هنا في الزمن وعلينا التعامل معه على حقيقته.

ـــــ وهل تعلمين ما هي حقيقته؟

ـــــ لا يهمني ذلك. هل تعرف أنت حقيقته؟

ـــــ أعرف أنه حركة التكرار الخاصة بكوكب الأرض الذي هو أقل من حبة رمل في هذا الكون، ولهذا السبب كل زمن الأرض لا يشكل لحظة في زمن العدم اللانهائي، حتى أن هذا الكوكب ليس سوى فجوة صغيرة في صلب ذلك العدم الكلي.

ـــــ وماذا تقصد بالتكرار؟ ألم تلاحظ التقدم الذي أحرزته البشرية؟

ـــ ألاحظ ذلك، لكنه ليس إ لاّ تقسيماً من تقسيمات العود الأبدي الذي أسميه العود الدائري.

ـــ أوقف تفلسفك، أرجوك . أنا هنا في الزمن وسأعيشه كما يعيشه كل الناس و...

ـــ ولهذا السبب أنا رفيقك الدائم، أنا لازمنُ زمنكِ الذي تعيشينه كسواك من الناس.

ـــ سكفَّ عن التفلسف أرجوك وعد إلى الواقع.

ـــ لن أكف إلا إذا غفوت جاعلة من ذراعي وسادة لرأسك الجميل.

يقول ذلك مرفقاً قوله بتلك الابتسامة التي تجذب حياة إليه من دون ممانعة، فتعانقه وتغفو مطلقة العنان لأحلام لا تذكر منها إلا القليل حين تستيقظ في اليوم التالي لتعود وتكرر ما قامت به في اليوم السابق.

ـ 28 ــ

خلال تلك الفترة كان سمير إلى جانبها لينتشلها من بؤرة الكسل التي تغرق فيها كلما واجهتها صعوبة في العمل ويحثها على المثابرة. كانت تمتثل لرغبته إلى أن أنجزت كتابة الأطروحة وحدد موعد المناقشة . في الوقت المحدد سافرت حياة وسمير وهند إلى فرنسا، وتمت المناقشة بشكل ممتاز وحاز العمل على تقدير اللجنة وتشجيعها على نشره . تلك الفرحة العارمة ترافقت مع حدثين سعيدين أولهما تم في الولايات المتحدة حيث رزق وجيه ببنت، والثاني في لبنان حيث رزقت رلا ببنت أيضاً وهذا ما كانت حياة تتمناه لهما.

بعد المناقشة بيوم واحد وكانت حياة لا تزال في فرنسا، اتصل بها وجيه وزفّ إليها الخبر.

ــــ أهنئك يا دكتورة وأطلب منك أن تهنئيني بولادة حياة الصغيرة.

ــــ أهنئك من كل قلبي . صمتت قليلاً ثم تابعت : «هل أسميت الطفلة حياة؟ وهل وافقت زوجتك؟».

ـــ طبعاً وافقت م ع أنها كانت ترغب في اسم آخر.

ـــ لا تكن أنانياً، لقد تفردت في تسمية ابنك الأول عماد وحتى في تسمية الثاني وسام الذي هو قريب جداً من اسم خالك وسيم، فاترك لها أن تختار اسم ابنتها.

ـــ أنت تقولين ذلك؟

ـــ أقوله وأقصده. سأكلم زوجتك في الموضوع وأتفق معها.

ـــ تكلمي معها وأنا موافق سلفاً على كل ما تقررانه.

بعد أن باركت لكنتّها بالمولودة الجديدة واطمأنت على صحتها وصحة أمها أجابتها:

ـــ عزيزتي أقدر قبولك بتسمية الطفلة حياة، لكني أطلب منك، راضية، أن تختاري لها الاسم الذي تريدين.

رفضت الكنّة في البداية، لكن أمام إصرار حياة اتفقتا على تسمية الطفلة رشا وهو اسم جدتها لأمها.

أما رلا فقد منحت ابنتها الاسم الذي كانت ترغب فيه أمها وهو هلا اسم جدتها، الأمر الذي أفرح قلب الجدة التي باتت تردد كلما سئلت عن الطفلة : «هلا الصغيرة جميلة وتشبهني جداً».

— 29 —

فرحة حياة اكتملت بعودة وجيه نهائياً من الولايات المتحدة فساعدته على شراء بيت وفتح عيادة وإبرام عقود مع مستشفيات في العاصمة. أما هند التي سبق لها أن اهتمت بوجيه حين كان يعيش في بيت جده، فقد انتقلت إلى الاهتمام بأطفاله الذين باتوا ينادونها، كما ينادون حياة : «جدتي». واتفق الأخوان، رلا ووجيه على اختيار مدرسة واحدة للأولاد كي يظلوا معاً.

كل ذلك أفرح قلب حياة وما إن ارتاحت إلى استقرار وجيه وترتيب أوضاعه حتى عادت لتهتم

بأمورها هي التي أتمت تخصصاً لم تحققه سوى قلة في لبنان، فميدان الصحة العامة كاختصاص على مستوى الدكتوراه كان جديداً في البلد ولم يكن معروفاً على مستوى واسع . هذا التميز فتح أمام حياة مجالاً رحباً للعمل.

مباشرةً بعد عودتها من فرنسا طلبها المعهد الذي درست فيه ليتعاقد معها على ساعات للتدريس بأجر محترم. طبعاً كان لسمير دور كبير في ذلك بسبب معرفته وعلاقته بالمديرة منذ سنوات . تعاقدت حياة مع المعهد وباشرت العمل حيث تميزت بنشاطها واندفاعها وحسها العالي بتحمل المسؤولية.

— 30 —

هنا لا بد من وقفة قصيرة لفهم نشاط حياة واندفاعها في العمل . أعتقد أن من تجاورت حياته مع

الموت لسنوات عديدة قبل النجاة، يصبح أقدر من غيره على معرفة الحياة ويستغرق في الإفادة م نها حتى الثمالة. وحياة التي أمضت أكثر من عشر سنوات تعاند المرض وتقاوم، عرفت معنى الحياة ولهذا السبب أصبحت نهمة في التمتع بكل لحظة منها.

هكذا انقضت السنة الأولى وحياة في نشاط لا ينقطع؛ تلقي المحاضرات في المعهد قبل الظهر وتمضي بقية وقتها بصحبة أحفادها الذين كانت تصر على رؤيتهم باستمرار للتمتع بعالمهم الذي سحرها هي التي لم تعش ذلك مع أولادها بسبب سوء علاقتها بعماد. ربما كان لعدم المسؤولية المباشرة دور في ذلك أيضاً، فحياة تتمتع مع أحفادها من دون أن تكون مسؤولة مباشرة عنهم، والعمر والخبرة قد أكسباها قدرة على التسامح معهم لم تكن تملكها حين كانت أماً صبية.

خلال تلك السنة لاحظت حياة أن سمير لم يعد نشيطاً كالسابق : «ربما يعود ذلك للتقدم في العمر ». قالت لنفسها . لكنها ما زالت على حبها له وهو ازداد تعلقاً بها وأصبح يصر على رؤيتها كل يوم وتمضية أطول وقت ممكن برفقتهِا وهي لا تمانع بل تلبي رغبته التي هي رغبتها أيضاً. لكن أين المبتسم وما سبب غيابه طوال تلك الفترة؟ إنه لم يغب إلا ليجدد شبابه ويعود إلى حياة متألقاً، وسيماً لم تتعرف إليه في البداية . ففي ذلك المساء بعد أن أكملت حياة كل واجباتها اليومية وأوت متعبة إلى فراشها، رأته. فتحت عينيها مشدوهة وسألته: «هل هذا أنت؟ من أين لك كل هذا التألق؟».

ــــ أنا أتغذى من أيامك وانفعالاتك . كل ما عشته من سعادة هذه السنة كان منشطاً لي، لقد منحتني القوة والشباب وقذفت بي إلى الأمام في زمني.

ــــ والآن ماذا تريد؟

ــــ لا تظني أني توقفت يوماً عن رؤيتك ومرافقتك حيثما تحلين. كنت أكتفي بالنظر إليك وأنت غارقة في

مشاغلك. كنت أراقب تقدمك وأنتعش . لكن أما حان الوقت كي تستقري، لقد استقر ولداك وها هما يعيشان بعيدين عنك غارقين في عالمهما ومعارفهما و.. صحيح أنك تتمتعين برؤيتهما وبخاصة رؤية أولادهما، لكن أين أنت؟ لماذا لا تفكرين بنفسك؟

ـــ أفكر بنفسي؟ أنا مرتاحة جداً مع ذاتي.

ـــ لست مرتاحة كلياً، لا تخفي عني . لماذا لا تتوجين حياتك بالزواج من سمير الذي هو أيضاً يعيش وحده وينتظرك منذ سنين؟ أما حان الوقت للقائكما بشكل جدي؟

ـــ أتزوج؟ وماذا سيقول ولداي؟

ـــ أظن أنهما لا يم انعان، لا بل يرحبان بالفكرة ويريدان لك السعادة التي ضحيت بها من أجلهما . هيا فاجئي سمير بقبولك الزواج منه، ستعيشان معاً سعيدين. ألست مقتنعة به؟

ـــ لم تكن يوماً مبشِّرَ سعادة، فما بالك الآن؟ هل تغيرت إلى هذه الدرجة أنت الذي لم تتوان لحظة واحدة

عن زرع الرعب وا لقلق في أعماقي؟ ما هذه الصفحة التي تفتح؟

ـــ التغير سنة الحياة، ألا تؤمنين بذلك؟

هل تغير المبتسم وهل يريد فعلاً سعادة حياة التي نامت تلك الليلة وهي تفكر بما قاله لها؟ إنها تعلم جيداً، إن عرضت فكرة الزواج على سمير فسيكون ذلك ما انتظره طويلاً. هل تقدم هي التي تمنعت حتى الآن؟ ما المانع؟ «ها نحن نعيش علاقة كاملة لا ينقصها سوى المساكنة. سأستشير هند».

— 32 —

هند التي كبرت في السن أمست معطاءة أكثر فأكثر تصرف كل ما تملكه على أولاد حياة وأحفادها. ما عادت تهتم بصغائر الأمور كأنها على سلم كامل مع ظلها.

ــــ هند، قالت حياة ، صبيحة اليوم التالي سأطلب رأيك في موضوع مهم.

ــــ ما هو هذا الموضوع؟ أنا جاهزة . هل من مشكلة جديدة؟

ــــ ليست مشكلة، ربما كانت حلاً.

ــــ أخبريني كلي سمع.

ترددت حياة، ثم أمام إصرار هند قالت : «ماذا لو تزوجت من سمير؟».

ــــ إنه أفضل ما تقومين به . أنت الآن وحدك والوحدة قاتلة، اسأليني أنا عنها . إن كنت تطلبين رأيي فأنا أشجع هذه الخطوة وأباركها وسمير ينتظرك منذ زمن بعيد. أنا واثقة أن حياتكما ستكون سعيدة.

ــــ تقصدين ما تبقى لنا من حياة.

ــــ الحياة لا تقاس بالأيام بل بلحظات السعادة فقط.

ـــ إذاً أنت موافقة، فهل وجيه ورلا سيوافقان؟
ـــ أعتقد ذلك، فهما يريدان سعادتك.
«كلامها يطابق كلياً كلام المبتسم وهي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا التطابق . في السابق كان رأيها مخالفاً تماماً لرأيه وبخاصة فيما يتعلق بموضوع مرضي ؛ تشجعني وتبعد عني فكرة الموت التي كنت أتخبط فيها بينما هو كان يعيدني إليها كلما ابتعدت عنها. ماذا يعني هذا التوافق بينهما الآن؟ هند لم تتغير، هو الذي تغير. هل ينصب لي فخاً وما هو؟ هل إن تزوجت من سمير ستنطفئ شعلة الحب بيننا كما يحدث في كل زواج؟ هل هذا ما يريده المبتسم؟»

ـــ لا، لا أبغي ذلك، فما هو قائم بينكما لا يحطمه الزواج. علاقتكما ستكون مميزة وناضجة وسعيدة و ... أجابها المبتسم.

ــــ سأقدم. قالت بكل فرح، سأبادر اليوم بالذات، لن أتأخر.

ــ 33 ــــ

حين التقت سمير وعادا معاً إلى شقته، كانت حياة متوترة وقد لاحظ سمير ذلك وسألها : «ما بك، ما هذا التوتر، هل من جديد وتخفينه عني؟».

ــــ الجديد هو أ نني أحبك جداً وأود أن نتزوج . وتابعت مازحة: أنا الآن دكتورة مثلك.

صمت سمير لفترة وهو ينظر إلى حياة بعشق كبير. أخذ يديها، قبّلهما، حدّق في عينيها وقال بالفرنسية: «trop tard» (فات الأوان). تجمد الدم في عروق حياة: «هل يرفضني؟ هل يعاقبني على رفضي

السابق؟ هل ما عاد يحبني؟ » تساءلت حياة بصمت وحاولت أن تسحب يديها من بين يديه، لكنه شد عليهما، ضم حياة إلى صدره وقال:

ـــ لا تفكري بأي شيء، لقد أحببتك وأحبك كما لم أحب إنسى في حياتي . أنت المعبودة التي بحثت عنها طوال عمري. أنت لي العشيقة والأم والابنة وكل ما حرمت منه في حياتي، أنت...

انسحبت من بين ذراعيه، نظرت في عينيه وهي لا تفهم ماذا يقصد، لكنها كانت حزينة وغير قادرة على الكلام واكتفت بهز رأسها يميناً ويساراً استفساراً.

ـــ اجلسي سأخبرك.

جلست من دون تفكير . جلس بالقرب منها وضمها إليه. فعل ذلك كي يكلمها من دون أن ترى وجهه : «حياة»، قال، ثم صمت.

ـــ ما بك أخبرني، هل ما..

ـــــ لا تكملي، حبيبتي أنا مريض ومرضي مستعصٍ، لن أشفى . منذ سنة وأنا أعالج من دون أن أخبرك، أما الآن فما عدت قادراً على الإخفاء.

ــــ ما هو مرضك؟ لماذا...؟

ــــ مرضي أصبح في المرحلة الأخيرة، إنه ذلك الداء الخبيث الذي...

ــــ أين؟ لماذا لا تخضع للجراحة؟

ــــ إنه لا يعالج بالجراحة . المهم أنني لن أعيش طويلاً... لا بل لن أكمل السنة على الأرجح.

صمت وشد عليها لكنها أبعدته عنها، غيرت جلستها، أخذت وجهه بين يديها وقالت مذعورة: «كيف؟ لماذا... هل أنت جاد ...؟» هز برأسه صامتاً، ربما اختنق الصوت في حلقه، لكنها قرأت الصدق في عينيه الحزينتين وكرجت دمعتان على خديها مسحهما بكفيه وقال: «أرجوك لا تبكي، لا أتحمل رؤيتك هكذا، أنت إنسى شجاعة وقد سبق لك أن قهرت المرض بعزيمتك

وقوتك وإرادتك وحبك للحياة . لا أريد أن أرى الدموع في أجمل عينين في الدنيا ». لم تتمالك أعصابها وانفجرت بالبكاء وهو يضمها إلى قلبه ويتابع : «عليك أن تكملي حياتك كما هي الآن بكل نجاحاتها . أما أنا فسأرحل مطمئناً عليك لأنك حققت كل ما تطمحين إليه، ولهذا السبب كنت مصراً على نيلك شهادة الدكتوراه بأسرع وقت وهذه السنة بالذات . رفضت أن أتركك قبل أن تحققي طموحك وقد كان ذلك أجمل هدية حصلت عليها في حياتي. رفضت أن أتركك قبل أن تتملكي كل أدوات النجاح ». هنا ظهر المبتسم أمامها للحظة ثم اختفى.

كان رأس حياة على كتف سمير وهو يتكلم بصوت منخفض وفمه بالقرب من أذنها . حين أنهى كلامه، ضمها بقوة وتابع : «أما الآن فلنعش ما تبقى لي من عمر بفرح، لا أريد أن أفكر بالمرض، وأنت أيضاً، أرجوك، لا تفكري به ». كيف لا تفكر به هي التي أتت لتزف إلى حبيبها أجمل خبر يتوقعه؟ ماذا وجدت؟ لقد

تزعزعت آمالها وزلزلت الأرض تحت قدميها . ماذا تسمع ولماذا لم يخبرها من قبل؟

ـــ لم أخبرك لأنني أعرف مدى تأثير ذلك عليك، لم أخبرك كي تستمري بمتابعة عملك وأفرح بك وبنجاحك. والآن، هيا، سأدعوك لتناول العشاء في مطعمنا المفضل.

ـ 34 ـــ

لم تمانع، مشت معه كأنها آلة تحركها أصابعه، ذهنها شارد وقلبها مليءً بالأسى . وصلا إلى المطعم وجلسا إلى الطاولة التي عينها لهما النادل. كانا صامتين وظلا صامتين إلى أن عاد النادل يسأل عما يطلبانه من طعام. ابتسم سمير وطلب بداية المشروب الذي تحبه حياة. رفع كأسه وقال: «بصحة أجمل إنسى في الكون». شربت من دون أن تجيب . لكنه يعرف نقطة ضعفها

وهي أولادها وأحفادها وبخاصة البنات منهم . قال: «أخبرني وليد أن هلا الصغيرة هي صورة عنك، فهل رشا أيضاً هي جميلة كجدتها؟ ». انفرج وجه حياة وأجابت: «إنهما أجمل مني، آه لو تراهما الآن، لقد أصبحتا محبوبتي الجميع وأمضي معهما أمتع الأوقات».

ــــ وماذا عن وجيه وزوجته ورلا وزوجها؟

ــــ وفقهم الله. وفق الله وجيه، فهو يعامل أولاده بكل حنان. إني أرى فيه كل ما افتقدته في أبيه.

ــــ وهند؟ كيف حالها؟ لم أرها منذ مناقشة أطروحتك في بوردو.

ــــ إنها جيدة، لكن العمر ! لم تعد نشيطة كالسابق، لكنها صديقتي التي لا أخفي عنها شيئاً، إنها سندي في كل ما أمر به، أطال الله في عمرها.

ــــ والست هلا؟

ـــ هي ست ا لستات ولا زالت تتمتع بكل حضورها ونضارتها رغم عمرها . تصور أن الأولاد يحبونها أكثر مني، فهي تلبي لهم كل طلباتهم.

ـــ ووسيم ما أخباره؟

ـــ لقد استقر في أميركا، لعن الله الغربة، هي مصدر وجعي.

بعد هذه الجولة على أفراد عائلة حياة التي خففت عنها وأخرجتها من حزنها قال: «ماذا لو قمنا برحلة إلى بلد لم نزره بعد؟ ». نظرت إليه واغرورقت عيناها بالدموع. تجاهل دموعها وتابع : «سنذهب إلى اليابان، إنه عالم مختلف عن البلدان التي نعرف، ما رأيك؟ نخطط لذلك في عطلة الربيع».

كان الربيع لا يزال بعيداً . «هل سيبقى سمير بصحة تمكنه من السفر ف ي الربيع؟ » تساءلت حياة . وأجابها من دون أن يسمع تساؤلها : «سأكون بحالة جيدة، لن يسوء الوضع قبل سنة على ما أعتقد».

ـــ لا، لا أفكر في ذلك، طبعاً ستكون بصحة جيدة وسنزور معاً اليابان.

ـ 35 ــ

رغبت تلك الليلة أن تظل معه، لكنه أصر على متابعة حياتهما كما في السابق وطلب منها أن تعود إلى بيتها كأن شيئاً لم يكن . استجابت لرغبته، لم تعاند، تركته وانصرفت. هي أيضاً كانت بحاجة إلى العودة إلى ذاتها، كانت بحاجة إلى التفكير بما يحصل معها، بحاجة إلى البكاء الذي كتمته خلال لقائها بسمير. رحلت والمبتسم إلى جانبها في السيارة . لم تكلمه وهو لم يفتح فاه مكتفياً بابتسامته المعبرة. ترجلت من السيارة ورافقها إلى البيت حيث كانت الست هلا وهند نائمتين . دخل معها غرفة نومها ووقف في إحدى الزوايا يراقبها . خلعت ثيابها، وقفت أمام المرآة ورأته : «ماذا تفعل هنا،

ارحل، ما عدت أتحمل وجودك » صرخت به. ضمها بين ذراعيه، قبلها على جبهتها وعاد إلى مكانه في الزاوية. تمددت على السرير لتطلق العنان لدموعها المحبوسة، لكنها لم تستطع البكاء؛ كانت عيناها جاحظتين مسمرتين في سقف الغرفة وذهنها ي طوف على كل مراحل حياتها، وانتهت إلى الهمس بصوت منخفض: «لمَ حظي سيىء هكذا؟».

ـــ حظك جيد جداً، لقد نجوت من المرض والموت المحتم. قال المبتسم الذي ما إن تمددت على السرير حتى سار بهدوء واندس بالقرب منها.

ـــ اسكت أنت، لم أطلب رأيك. صمتنا معاً للحظة ثم تابعت: «ما هذه الدنيا الماكرة؟ ما إن بدأت أرتاح حتى جرحتني، لا بل طعنتني في قلبي . لقد كان سميرٍ سندي وحبيبي. حققت معه كل ما أطمح إليه من سعادة وهناء وبخاصة بعد موت والدي. لماذا يا ربي؟ لماذا؟».

ـــ أليس الأمر الذي تتذمرين منه هو أفضل من أن يُصاب به أحد أولادك؟

ـــ اخرس، أمن الضروري أن يصاب أحد حتى ترتاح أنت؟

ـــ إني دائماً أبحث عن غذائي، عن هواء أتنشقه لكي لا أختنق. ثم إن سمير قد تخطى الخامسة والسبعين من عمره ومن المنطقي أن يرحل.

ـــ لكن لماذا الآن؟ فهو ما زال قوياً ويتمتع بنشاط يوازي نشاط الشباب.

ـــ ما الفرق بين الآن وبعد سنوات معدودة؟

ـــ إذاً لماذا الآن وليس بعد سنوات حتى ولو كانت معدودة؟

ـــ لكان هرم وضعف وبا ت عالة وعليك ـــ أن تخدميه و...

ـــ اسكت، لا أريد سماع المزيد من حكمك.

ـ 36 ـــ

نهضت من سريرها، ذهبت إلى غرفة هند، أيقظتها وقالت : «لا أستطيع النوم، هيا فلنسهر قليلاً». أدركت هند بسرعة أن حياة بحالة سيئة . نهضت من فراشها وهي تقول: «فلنخرج إلى الشرفة».

ـــ لا، نبقى هنا، أجابت حياة وانهمرت الدموع من عينيها.

ذعرت هند وسألت : «ما بك؟ هل أصاب أحداً مكروه؟». ظلت حياة صامتة وهي تجهش بالبكاء.

ـــ أرجوك تابعي، لا أتحمل رؤيتك هكذا، ماذا جرى هل تشاجرت مع سمير؟

ـــ لا.

ـــ ماذا إذاً؟ هيا أسرعي.

ـــ إنه سمير.

ـــ وماذا به سمير، هل خذل طلبك الزواج منه؟

ـــ سمير مريض.

فهمت هند أن مرض سمير هو ذاك المرض الخبيث اللعين. صمتت لا تعلم كيف تواسي حياة التي تابعت: «لن يكمل السنة كما قال لي ». أخذت هند حياة بين ذراعيها وحاولت تهدئتها وهي تقول : «كلنا راحلون، قصر الزمن أم طال . الحياة هكذا، مزيج عجيب من الخيبات وقليل من الفرح وعلينا الاستفادة من لحظات الفرح. لقد أنعم الله عليك بأولاد وأحفاد كنور العين و... أعرف أن لا شيء يقوم مكان شيء آخر، لكن علينا القبول والتفكير بالأفضل حين نكون عاجزين عن التغيير...أخبريني ما هو وضع سمير النفسي؟».

ــــ إنه أكثر تماسكاً مني، لقد أخبرني ببرودة عن مرضه وهو يخطط للسفر معي إلى اليابان.

ــــ سمير كل عمره شجاع ويجابه الحياة بغير اكتراث لضرباتها. أتوقع أن يكون شجاعاً في مواجهة المرض.

ــــ هند، أشعر أن الدنيا تنهار من حولي.

ـــ أفهم شعورك، لقد أحببته وأحبك بشكل يفوق كل تصور وقد كانت علاقتكما من أجمل العلاقات.

ـــ تقولين «كانت»، كم تزعجني هذه الصيغة.

أدركت هند أنها تتكلم كما لو أن سمير قد رحل فعلاً. حاولت التصحيح، لكنها لم تعثر على الكلمات المناسبة فصمتت ومسحت دموع حياة التي قالت : «أحببته وأحبه وسأحبه بعد موته».

ـــ أما الآن فعليك أن ترتاحي، س أعطيك حبة منوم، لا تمانعي.

ـ 37 ــ

بلعت حياة الحبة وأوت إلى فراشها . قبل أن يبدأ مفعولها، مثل ظلها المبتسم أمامها، رأته ورأت سمير إلى جانبه، هو شاب مليء بالحيوية وسمير عجوز

مترهل، يجمع بينهما ابتسامة واحدة : «يا إلهي كم ابتسامتكما متشابهة!».

ـــ وسيزداد هذا التشابه. أجابها الظل.

ـــ لكن ابتسامتك ساخرة وابتسامته كلها حنان وحب وعطاء و...

ـــ الحب هو قمة السخرية ولا أحد يعشق مثلي لأن عشقي لا يرتوي أبداً ولا ينطفئ . سأثابر على عشقي لك ولو أنك ما زلت قادرة على الهروب مني والتلهي مع الآخرين. إنني أنتظر اكتمالي.

ـــ لن أكون لك مهما فعلت.

لم يجبها، بل اكتفى بأن مد ذراعه، فوضعت رأسها عليها وغفت. غفت لتمضي تلك الليلة مع والدها الذي شغل مساحة الحلم كلها . رأته في مرحلة مرضه، رأته يفارق الحياة مبتسماً.

في اليوم التالي اتصلت بسمير باكراً وأجابها بكل هدوء: «ما زلت حياً، لا تخافي». صمتت قليلاً لتبلع غصتها ثم قالت: «متى نلتقي اليوم؟».

— علي المرور بالمستشفى قبل الظهر و...

— أرافقك، أنا آتية إليك.

— لا. أذهب وحدي برفقة السائق، أما أنت فاذهبي إلى عملك ونلتقي بعد الظهر.

بعد عملها، ذهبت حياة مباشرة إلى شقة سمير حيث كان ينتظرها . ضمها إليه ومارسا الحب وهو يتصرف كأنه في حالة طبيعية . أما هي فكانت، كلما أغمضت عينيها خلال ممارسة الحب، ترى المبتسم وشعرت أنها، لأول مرة، تعانق الموت . لكنها لم تظهر ما شعرت به وجعلت سمير يتمتع كما يشاء . بقيت معه حتى المساء قبل أن تعود إلى بيتها نزولاً عند رغبته.

— 39 —

استمرت الأمور على هذه الحالة مدة شهرين تقريباً قبل أن يبدأ الضعف بالظهور على جسد سمير الذي كان يحاول المكابرة. وقبل الربيع الموعود تدهورت صحته وبات عاجزاً عن مغادرة البيت. في أحد لقاءاتهما وهو على هذه الحالة، قال لحياة: «لن أستطيع الوفاء بوعدي لك، لن نزور اليابان معاً».

— سنزورها، ستتعافى ونسافر إلى اليابان معاً إن شاء الله.

ابتسم وقال بحسرة ظاهرة: «كما تريدين، آمل ذلك. أما الآن فعودي إلى بيتك وأولادك».

— لن أتركك بعد الآن، سأبقى إلى جانبك.

— لا، لقد اتصلت بشقيقتي، سعاد، تعرفينها. إنها الآن وحدها بعد أن توفي زوجها وتزوج أولادها. اتصلت بها وأخبرتها عن مرضي وهي آتية لتقيم معي. لن تطول إقامتها هنا، لن أعذبها كثيراً.

— لا تقل ذلك، أنت لا تعذب أحداً، ثم...

ــــ لا تكملي، هيا قبليني وانصرفي، ستصل سعاد، لن تتأخر.

ــــ أنتظر مجيئها على الأقل.

ــــ لا تخافي، لن أموت هذ ه الليلة، ما زال لدي بعض الوقت.

ـــ 40 ــــ

بعد وصول سعاد رحلت حياة التي ما إن أصبحت داخل سيارتها حتى انفجرت بالبكاء، أدركت أن النهاية اقتربت. سهرت مع هند التي عجزت عن مواساتها قبل أن تأوي إلى فراشها حيث كان المبتسم ينتظرها ويمارس أمتع ليالي الحب معها وقد بدا ل ها في الحلم شاباً ساحراً لا تملك أي إنسى ألا أن تنصاع لرغبته واستيقظت لتراه أمامها يسألها : «ليلة ممتعة، ألست أفضل من سمير في ممارسة الحب؟».

ـــ انصرف عن وجهي، لقد اغتصبتني.

ـــ كنت منتشية، لا تراوغي.

صفعته ودخلت الحمام لتحضر نفسها ليوم جديد لا تعلم كيف ستكون نهايته. اتصلت أولاً بيت سمير فردت سعاد وقالت لها : «إنه لا زال نائماً، لقد أخذ منوماً البارحة».

ـــ اتركيه مرتاحاً، سأصل فوراً.

ـ 41 ــ

اتصلت بالمعهد، اعتذرت عن الحضور وتوجهت إلى شقة سمير الذي حين دخلت عليه وهو لا يزال في السرير فتح عينيه فجأة ومدّ ذراعيه نحوه ا قائلاً : «ما هذا الصباح الجميل؟ تعالي إلى قلبي. قبلها وتابع: «لماذا لم تذهبي إلى العمل؟».

ـــ اتصلت بهم واعتذرت . أذهب غداً وأعوض على الطلاب.

سرّ بها وحاول النهوض لكنه كان متعباً جداً فاضطر إلى المكوث في سريره واعتذر منها : «لن أبقيك في الغرفة هنا، بعد قليل سأنهض ونجلس معاً في مكتبي كعادتنا ». كان يتكلم ببطء وحياة تضغط على نفسها كي لا تدمع عيناها وحين تعجز عن ذلك تستأذن منه وتدخل الحمام أو تخرج لدقائق، تمسح دموعها وتعود إلى جانبه والمبتسم لا يتركها لحظة واحدة، ظل كل ذلك النهار ماثلاً أمامها بصمت.

بعد تناول الغد اء الذي أحضرته سعاد، قال سمير بصوت منخفض : «لن أنام بعد الغداء، سأبقى صاحياً أنظر إليك، سأملأ عيني منك قبل رحيلي، لا تغادري، لن أغمض عيني إلا على وجهك الجميل الذي سيرافقني حيث أرحل». تمالكت حياة نفسها وأمسكت بيديه . حدّق بها، شد على يديها ثم أغمض عينيه، تراخت يداه ودخل في غيبوبة . صرخت حياة : «لا تتركني ». وركضت

سعاد إلى الغرفة وبدأت تلطم وجهها وتنوح، لكن حياة إذ رفضت أن يتركها سمير حاولت أن تتفحص نبضه، كان قلبه لا زال يعمل ولو ببطء . بريق أمل لاح في خاطرها واتصلت بابنها وجيه الذي حضر بسرعة ونقل سمير إلى المستشفى حيث دامت غيبوبته يومين قبل أن يرحل إلى الأبد.

— 42 —

بقي وجيه إلى جانب أمه كل فترة الجنازة والدفن والتعزية، لقد لمس مدى تأثرها وأدرك مغبة الوحدة التي ستحيط بها فيما بعد وقرر أن لا يتركها وأن يقترب منها أكثر ليساعدها على الخروج من حزنها واستعادة نشاطها وحيويتها المعهودتين. بالفعل بات وجيه الذي كان قد بعُد قليلاً عن أمه بسبب عمله وانشغاله بعائلته، أكثر تردداً عليها، وهي بدورها أضحت أكثر تعلقاً به

وبخاصة حين تشعر بأي توعك صحي . ففي مثل هذه الحالات كان سمير ملاذها الذي تلتجئ إليه، كان هو الذي يخرجها من قلقها ويبعث فيها الحيوية من جديد، بعد أن يكون المبتسم قد هد عزيمتها . بات وجيه يلعب هذا الدور وقد كان دوراً صعباً في البداية إذ إن حياة مرت بمرحلة دقيقة لم تتجاوزها إلا بصعوبة كبيرة.

— 43 —

هند لعبت دوراً مهماً في إخراج حياة من حالتها الحزينة، تحولت إلى رفيقتها الد ائمة في كل توجهاتها خارج العمل. تعود حياة من المعهد، ترتاح قليلاً وتخرج مع هند وترافقهما أحياناً الست هلا، إلى بيت رلا أو بيت وجيه حيث يمضين الوقت مع الأطفال الذين أصبحوا محور وجود حياة وكل اهتماماتها . احتلوا كل فضائها حتى أنها ما عادت تلتذ بالعيش إلا معهم ولا تتكلم إلا

عنهم وعن مشاكلهم الصغيرة وكلماتهم وتعليقاتهم الطريفة الجميلة، كأنها لم تكن يوماً أماً ولم تسمع ما تسمعه الآن من أحفادها.

— 44 —

بعد سنين، كبر الأولاد وتجاوزت حياة إحباطها ولم تعد صورة سمير ماثلة أمامها باستمرار كما في السابق، على عكس المبتسم الذي ثابر على ملاحقتها أينما توجهت مكثفاً حضوره في المساء حيث ينفرد بها ويشغلها بكلماته التي ترافقها حتى في نومها . لكي تبعده عنها، كانت أحياناً تأتي بأحد أحفادها لينام عندها، تحضنه وتحاول النوم وهو بين ذراعيها . يغفو الحفيد ويحضر المبتسم ليقاسمها الوقت حتى الصباح وهو يزداد كل يوم تألقاً وشباباً.

— 45 —

أما في مجال العمل، فقد تقدمت حياة جداً؛ في البداية أخذت مكان سمير في التدريس حيث أظهرت قدرات عالية كوفئت عليها بأن عينت مديرة للمعهد بعد سنوات قليلة. هذا النجاح دفعها إلى الانصراف أكثر فأكثر إلى العمل وأصبحت هي من يختار ويعين الأساتذة بعد مقابلتهم ودراسة ملفاتهم.

في بداية مرحلة الإدارة، أتاها طلب تعاقد لأحد الأطباء حديثي التخرج ومتخصص بالجراحة النسائية كسمير واسمه جهاد. استدعته للمقابلة. دخل عليها في مكتبها، نظرت إليه ولم تصدق ما تراه عيناها؛ بدا لها تماماً كالمبتسم. سمرت نظرها عليه للحظة وقد اختلطت الأمور في رأسها: «ماذا يحدث ومن هو هذا الشاب صاحب الابتسامة المشرقة؟»، هو أيضاً أعجب بها من

أول نظرة، شعر بارتعاش يجتاح جسده وتساءل بدوره : «ماذا يحدث؟».

ـــ ملفك جيد وسنتعاقد معك، قالت من دون تردد.

ـــ شكراً. متى يبدأ التدريس؟

ـــ بعد أسبوعين، لكن زرني قبل ذلك التاريخ كي نتفق على عدد الساعات وتوقيتها. عد بعد ثلاثة أيام.

شكرها وقبل أن يستودعها عبّر لها عن إعجابه بها: «حين استدعيت لمقابلة المديرة، لم أكن أتوقع أن أرى سيدة بهذا الجمال وهذه الأناقة ». شكرته بدورها على هذا الإطراء وتابعت: «إلى اللقاء».

عادت ذلك اليوم إلى بيتها بعد أن قامت بزياراتها اليومية إلى بيتي رلا ووجيه . عادت باكراً لتجلس مع هند وتخبرها عن جهاد الذي سحرتها ابتسامته.

ـــ وما عمره؟ سألت هند.

ـــ في بداية الثلاثينيات.

ـــ إنه بمثل سن وجيه.

ـــ لا بل أصغر، لقد تخرج السرة الماضية.

ـــ هل أقول إنها جهلة الستين وها أنت قد شارفت على هذه السن؟

ـــ قولي ما تشائين. إنه يتمتع بجاذبية غريبة.

ـــ عيش كتير بتشوف كتير . كان تعليق هند قبل أن تتركها حياة وتتوجه إلى غرفتها.

— 46 —

في الغرفة وقفت حياة أمام المرآة لتتفحص وجهها وبعض التجاعيد التي بدأت تغزو جبهتها وحول شفتيها ورقبتها و.... لكن ما إن نظرت في المرآة حتى ظهرا؛ الظل والصورة، رأتهما يحيطان بها وتساءلت: «من هو الظل ومن هو الصورة ». لكن المبتسم حسم الأمر إذ تكلم: «هل أعجبك جهاد؟».

ـــ لا تتدخل في ما لا يعنيك.

ـــ هو أيضاً أعجب بك وها هو الآن   يخبر كل رفاقه عن جمالك وسحرك . أظن انه سيغرم بك . وأنت ما رأيك؟

ـــ رأيي أن كل إنسان حر في مشاعره، إن أغرم بي فهذه مشكلته.

ـــ ألا يدغدغ ذلك مشاعرك؟

ـــ طبعاً. كلنا نحب أن يعجب الآخرون بنا.

ـــ أنثى وستظلين أنثى حتى آخر حياتك. لا تخفي عني مشاعرك، أعرف أنك أنت أيضاً   أعجبت به وقد سحرتك ابتسامته و...

ـــ لا تكمل لا أرغب بسماع رأيك وتهويماتك.

ـــ سأصمت، لا بل سأتركك وحدك معه.

غاب المبتسم وحضرت صورة جهاد . خلعت حياة ثيابها وهي تتأمل جسدها العاري الذي لا زال مشدوداً، ارتدت قميص النوم ببطء كأنها تفعل ذلك تحت وابل

نظراته. تعطرت كعادتها وتمددت على السرير. لم تتمدد الصورة بالقرب منها، استمرت قبالتها وهي تحدق فيها: «لماذا صورته لا تفارقني؟ ما الذي يحدث معي؟ أين سمير؟». قالت لنفسها وسمعت المبتسم وهو مستلقٍ قربها: «ستكون من أمتع المغامرات».

ــــ كيف تعرف؟

ــــ إنه أصغر منك سناً ويعمل عندك، ي عني أنك قادرة على التحكم به كما تشائين، سيكون مطواعاً إلى أقصى درجة وسيلبي كل طلباتك.

نظرت حياة إلى الصورة أمامها : «هل يسمع قول المبتسم؟».

ــــ هل تعتقد أنه سيغرم بإنسى من عمر أمه؟

ــــ في الحب يبحث الرجل دائماً عن الأم أو الابنة.

ــــ والإنسى؟

ـــ تبحث عن الأب أو ا   لابن. لقد خبرت الأب والآن ستختبرين الابن.

ـــ أليس من حل ثالث؟

ـــ نعم هناك حل ثالث وهو الحل الذي نجده في غالبية الزيجات حيث يُكتفى بالصورة التي تكون أحياناً مزورة ولهذا السبب يُلجأ إلى الطلاق   . فلنأخذك أنت كمثال؛ لقد أحببت رائد وسمير وتزوجت من عماد.

ـــ الذي لم أحبه يوماً كسمير أو رائد.

ـــ صحيح، ولهذا السبب تم الزواج وتلاه الطلاق.

ـــ لكن انظر إلى وجيه ورلا، فهما متزوجان ممن هما في مثل سنهما وهما سعيدان.

ـــ آمل أن تكون الصورة التي اختارها كل منهما ليست مزورة، لكي يدوم زواجهما.

ـــ وهند لماذا لم تجد...

ـــ لقد أحبت رائد، ولا تنسي ما حدث.

ــــ هل كنت أنا السبب في بقائها من دون زواج؟

ــــ لا ادري، لكن رائد فضل الابنة لأن ارتكاب المحرم، l'inceste مع الابنة هو الأمتع.

ــــ ماذا تقصد؟

ــــ أقصد أن أول تحريم في التاريخ، تاريخ البشرية طبعاً كان l'inceste. لماذا؟ لأنه الأرسخ في الوجدان وكل ا لمحرمات الأخرى تأتي في الدرجة الثانية.

ــــ لكني لن أغرم بجهاد بالرغم من كل فلسفتك.

ــــ ستقاومين ربما، نظراً لوضعك وسنك وصورتك في المجتمع ولا تنسي ما لهذه الصورة من أهمية.

ــــ صورتي؟ ماذا تعني؟

ــــ صورتك، طبعاً. لكل واحد من الناس صورة تتشكل مع مرور الزمن، ومع مرور الزمن يصبح

المرء أسير هذه الصورة لا بل يصبح في خدمتها ولهذا السبب هو كائن معذب، فهو هو وليس هو في الوقت نفسه. قليلون هم الذين يستطيعون تحطيم الصورة حين لا تعود مطابقة للأصل . لهذا السبب أيضاً يدوم الزواج حين يدوم.

ـــ ولماذا إقحام الزواج هنا؟

ـــ لأن دوامه هو دوام صورتين لا حقيقتين . يضحي الزوجان بأناهما الفعلي لإنقاذ الأنا كما يراه الآخرون لا كما هو في الحقيقة . أنت طلقت لأنك من هؤلاء الناس القليلين الذين لا يقبلون أن تستغرق الصورة كل أناهم . لقد فضلت الأصل ولهذا السبب طلبت الطلاق، ربما أنت قادرة على تحطيم الصورة مجدداً.

ـــ صورتي هي أنا.

ـــ أعرف ولهذا السبب قلت لك إنك ستقاومين، لكني لست واثقاً، ربما ستقومين بعملية تحويل،

ستقاومين رغبتك وتحولينها إلى مشاعر أخرى . لكن جهاد سيدخل حياتك.

ـــ لو كان لدي ابنة في مثل سنه لكنت وافقت على زواجها به.

ـــ طبعاً، فهذا ما يحدث غالباً؛ تغرم الأم بالشاب طالب الزواج، قبل أن تغرم به الابنة ولهذا السبب «الصهر هو سند الظهر » كما يقال، على عكس ما يحصل مع الكنّة التي تعتبر كأنها أخذت الابن من أمه.

في تلك اللحظات كانت حياة تقاوم النعاس ولم ترغب في متابعة الحوار مع المبتسم الذي لاحظ وضعها، فبسط ذراعه لتلقي رأسها وتغفو وتمضي تلك الليلة مع وجيه الذي رأته مريضاً وهي تعتني به . حين استيقظت اتصلت مباشرة بابنها الذي كذب ما حلمت به أمه.

— 47 —

بعد اللقاء الأول بين حياة وجهاد الذي يشبه المبتسم، بات المبتسم مرحاً جداً لأن حياة التي ترفضه أحياناً باتت هي التي تستدعيه وتتمتع برفقته كأنها تقوم بعملية تعويض عن إمكانية تواجدها مع جهاد . هذا الوضع عزز موقع المبتسم الذي أصبح يتمنع أحياناً عن الحضور إلى جانب حياة، هو الذي كان لا يوفر فرصة إلا ويمثل أمامها . بات يعاند وينتظر إلحاحها بطلبه، يتهرب قبل أن يلبي دعوتها . صحيح أنه كان يعاند لكنه يعرف أنه عاجز عن عدم التلبية، فهو أيضاً لا يستمر إلا بوجوده معها.

— 48 —

استقبلت حياة، في الأسبوع التالي، جهاد وكلّفته بعدد من ساعات التدريس بحيث أصبح يأتي إلى المعهد ثلاث مرات في الأسبوع . في ذلك اللقاء دار الحديث

بينهما حول أوضاع جهاد الذي علمت منه حياة أنه فقد أمه وهو طفل صغير وأن والده تزوج بعد موتها بسنة وأن زوجته الجديدة أساءت معاملته مما دفعه إلى العيش في بيت جدته لأمه ..... أخبرته حياة بدورها عن سوء معاملة عماد لابنها وجيه مما دفعها إلى طلب الطلاق منه و... كان جهاد يستمع إليها مبدياً إعجابه بشخصيتها وبما حققته في مجال دراساتها وعملها . في هذا اللقاء نشأ نوع من التقارب بينهما، تقارب أغناه سلوكهما في الأيام اللاحقة : أصبح جهاد يقصد المعهد، يزور الدكتورة حياة، يشرب معها القهوة، يلقي محاضراته ثم يعود ليمر بها من جديد قبل مغادرته.

توطدت العلاقة بينهما ودعته حياة إلى بيتها حيث عرّفته إلى وجيه وأصبح جهاد صديق العائلة التي باتت حياة تعامله كأحد أفرادها، وهند لا تتوقف عن الإدلاء بملاحظاتها حول هذا الصديق الجديد، ملاحظات ممزوجة بالمزاح لتُفهم حياة أنها مدركة لدوافع كل سلوكها. كانت حياة تضحك حين تسمع تعليقات هند

وهي تقول : «أليس جهاد شاباً وسيماً وممتازاً؟ ». تضحك هند بدورها وينتهي الحوار بينهما كما بدأ، بالمزاح.

— 49 —

أما التشابه بين جهاد والمبتسم فقد دفع هذا الأخير إلى الحضور كل ليلة إلى جوار حياة التي ما إن تنصرف إلى النوم حتى تجده قد سبقها إلى السرير. تتمدد بالقرب منه وتختلط الصورتان في رأسها إذ إن المبتسم وجهاد قد باتا واحداً في مخيلتها مما جعل علاقتها بالمبتسم تتخذ طابع المودة إن لم نقل العشق . فهي التي كانت على خلاف مستمر معه، أضحت تستاء إن تأخر يوماً عن الحضور . يظهر في زاوية الغرفة وينظر إليها عن بعد، تناديه، يسمعها ويتجاهل إلى أن تنهره وتطلب منه الاقتراب منها . يقترب ببطء كأنه

يبغي استفزازها . تصمت وتنتظره إلى أن يصبح في السرير فتعانقه وتقول: «اشتقت إليك».

ــــ وأنا أيضاً، اشتقت إليك، لكني خجول ولا أدري كيف عليّ أن أتصرف معك.

ــــ تصرف بكل عفوية ولا تكبت مشاعرك.

ــــ إن لم أكبت مشاعري، أصبح عاجزاً عن تمالك نفسي وعن عدم معانقتك وتقبيل ثغرك كما أشتهي.

ــــ هيا افعل.

وتغرق حياة مع المبتسم في قبلة توقظ كل رغبتها في المتابعة وممارسة الجنس . لكن هذه الرغبة توقظ عندها التباساً في الصورة بين جهاد والمبتسم، فتقمع رغبتها، تمسّد بيدها شعر المبتسم، تقبله على جبهته وتطلب منه أن يغفو ورأسه على ذراعها . تغفو بدورها وتحلم بوجيه طفلاً يلعب مع رلا وقد وقع وتأذى أو تحلم

بجهاد وهو يعانق إنسى صبية وفي الحالتين تصحو من النوم مستاءة.

— 50 —

جهاد عاش أيضاً من جهته التباساً في الصور؛ إنه يرى في حياة صورة أمه التي فقدها طفلاً كما يرى فيها صورة الإنسى التي يرغب ويعشق . هذا الالتباس دفعه إلى التردد في الاقتراب منها أو الابتعاد عنها . كان يحبها ويخاف من حبه لها . لكنه بعد مرور أكثر من شهرين على تعارفهما، ترك الأمور تجري على هواها وأصبح صديق العائلة وبخاصة صديق وجيه إذ إنهما يعملان في ميدان واحد . من باب الصداقة تلك أصبح يزور بيت حياة التي تعيش، كما نعلم، مع هند وأمها الست هلا. يزوره فتهتم به وتقدم له الطعام والمشروب وكل ما تفترضه الضيافة الراقية . مع الوقت بات

يزورها في غرفتها حيث كانا يتناقشان بأمور المعهد والتدريس وما سوى ذلك . الست هلا كانت تسأل هند عن هذا الشاب وعما تريد حياة منه وهند تجيبها أنه يعمل مع حياة ولديهما أشغال مشتركة . لكنها كانت مقتنعة أن ما يدور بينهما لا يقتصر على الشغل فقط .

بالفعل، في أحد الأيام وبعد أن عرض جهاد على حياة بعض م تاعب العمل والتدريس، تقدم منها، أخذ يدها، قبلها، ثم ضمها إلى صدره وهي لا تمانع . أزاح وجهها وحاول تقبيل ثغرها . كانت ترغب في أن يفعل، لكنها انسحبت من بين يديه بكل هدوء، أمسكت هي يده وقالت:

ـــ أفهم ما تمر به من أحاسيس، أنا أيضاً أحببتك، لكن فكر بعقلك وفي مستقبلك. أنا أكبر منك سناً، وقد أصلح لأن أكون لك أماً لا عشيقة . لست حاقدة عليك . كان يجب أن نمر بما مررنا به الآن كي أدرك وتدرك أنت أيضاً أنه من غير اللائق أن تنشأ علاقة بيننا .

ستبقى صديق العائلة. اعتبر أن لا شيء قد حصل وتابع كما كنت في السابق.

ــــ أعتذر عما قمت به. لكن اندفاعي نحوك كان أقوى مني. أعتذر ولا أدري كيف...

ــــ لا تكمل، أعرف هذا الشعور ولنعتبر أن الموضوع انتهى.

اقتربت منه، قبلته على جبهته وقالت : «هيا علينا أن نفرح منك قريباً، ستخبرني حتماً إن فعلت ». لكنه تابع اعتذاره، ثم استأذن وانصرف . في اليوم التالي لم يمر بحياة كعادته قبل التدريس، فما كان منها إ لاّ أن استدعته وشربت معه القهوة كما كانا يفعلان في كل مرة. عادت علاقتهما إلى ما كانت عليه لكنها أصبحت قائمة على الوضوح وليس على الالتباس كما في السابق.

— 51 —

ـــ جبانة، قال لها المبتسم في أول لقاء بينهما.

ـــ أنا لست جبانة، أنا عاقلة. هل تريدني أن أغرم بشاب أصغر من ابني؟

ـــ لكنك أغرمت وتمنعت.

ـــ وهذا ما أسميه تعقلاً.

ـــ وأنا أسميه جبناً.

ـــ سمه ما شئت، أنا الآن مرتاحة وكذلك جهاد.

ـــ سنرى حين يخبرك عن حبه لفتاة ما.

ـــ سيقدم حتماً، فهو لا زال شاباً وله كل الحق في الحب و...

ـــ أعرف، لكن سأذكرك في حينه.

— 52 —

استمرت العلاقة بين جهاد وحياة على حالها من الوضوح الملتبس لوقت طويل، إلى يوم تغيب فيه جهاد عن المعهد وأتت إحدى الطالبات تسأل عنه في مكتب حياة.

ــــ هل الدكتور جهاد سيغيب اليوم؟ سألت الطالبة.
ــــ نعم، إنه مريض وقد أبلغني ذلك.
ــــ مريض؟ ما به؟ سألت الطالبة بانفعال.

نظرت إليها حياة وقرأت أو حدست بشيء ما أزعجها: «لا أدري، إنه مريض وكفى». انصرفت الطالبة وتركت حياة لتساؤلاتها: «لماذا اضطربت هذه الطالبة هكذا؟ هل يعني لها جهاد شيئاً؟ حتماً، فردة فعلها واضحة. ما هو موقفه هو منها؟ هل هناك م ا يحاك من وراء ظهري بينهما؟ سأعرف لاحقاً».

بعد شفاء جهاد وعودته إلى المعهد، أخذت حياة تراقبه وتأكد حدسها حين رأت، مرة، تلك الطالبة،

يمنى، تصعد إلى سيارة جهاد بعد نهاية التدريس. ركبت إلى جانبه وانطلقا معاً . استاءت لكنها قررت السكوت لترى إن كان جهاد سيخبرها. غير أنها في اليوم التالي، لم تقاوم حشريتها في أن تعرف الحقيقة وبادرت جهاد حين دخل عليها : «من تكون تلك الطالبة، يمنى، كي تقلّها معك في سيارتك؟ هل هي قريبتك ». اضطرب جهاد وتلعثم، لكنه أجاب: «لا ليست قريبتي، فقط طلبت مني أن أوصلها إلى بيتها و...».

— مفهوم، على كل حال أنت حر وليس لي أن أتدخل في أمورك.

لم يجب واستعجل في الانصراف تاركاً حياة لتساؤلاتها واستيائها وغضبها التي حاولت التخفيف منه قبل عودتها إلى البيت.

— 53 —

ما إن دخلت غرفتها حتى بادرها المبتسم بابتسامة بدت أكثر سخرية من أي وقت مضى : «ما بك؟ لمَ أنت غاضبة؟».

ـــ لست غاضبة، إني متعبة فقط.

ـــ هل تكذبين عليّ وأنا أقرأك ككتاب مفتوح؟

ـــ اقرأ ما تشاء وارحل عن وجهي.

ـــ هل أساءك أن يغرم جهاد بغيرك؟

ـــ ماذا تقول؟ لقد أغرم بي ورفضته، وأنت تعلم ذلك.

ـــ رفضته لكن كنت ترغبين بأن يبقى عاشقاً لك لأنك أنت أيضاً تحبينه . قد نبه تك في السابق، ألا تذكرين؟

ـــ وأنا قلت لك في حينه إنه شاب ويحق له أن يعيش كما يرغب . أما أنا فقد عشت حياتي وأعتبره كابني.

ـــ أعرف ذلك، لكن الأم تستاء عادة إن أغرم ابنها بإنسى غيرها، فكيف إن لم يكن ابنها وهي تكنّ له مودة خاصة كي لا نقول حباً خاصاً؟

ـــ لقد أغرم بفتاة أصغر منه سناً وهذا أمر طبيعي.

ـــ لا أعترض على غرامه الجديد، لكني حزين من أجلك. ها هو يفلت من يدك ورويداً رويداً سيبتعد عنك ويتحرر منك ليتمتع بعلاقته الجديدة.

ـــ وفقه الله. أنا لي عملي وأولادي وأحفادي، إنهم كل حياتي وكنت أعتبر جهاد ابناً لي ليس أكثر. أما الآن فارحل، سأتصل بوجيه ورلا لأطمئن عليهما وعلى أولادهما.

— 54 —

رحل المبتسم وانشغلت حياة بالاتصال هاتفياً بأولادها، أمضت بعض الوقت بالكلام معهما ثم أكملت السهرة مع الست هلا وهند التي أخبرتها، بعد أن نامت الست هلا، أن رائد قد توفي.

ـــ كيف عرفت؟

ـــ قرأت الخبر في الجريدة.

ـــ رحمه الله ولو أنني...

ـــ لا تكملي، لقد مات وانتهى كل شيء ولا يجوز الحقد عليه بعد وفاته.

ـــ صحيح. هل أحزنك الخبر؟

ـــ لا أخفي عنك، لقد أحزنني خبر وفاته . كنت إلى لحظة قراءة ذلك الخبر أشعر أن هناك شخصاً يفكر بي، أما الآن...

ـــ كلنا نفكر بك ونحبك هي ا اسكبي كأساً من الوسكي نشربها عن روحه.

ضحكت هند وشربت الوسكي مع حياة التي ما إن فرغ كأسها حتى شعرت بالنعاس . لم تقاوم، وانسحبت إلى غرفتها وخلدت إلى النوم الذي أتى تلك الليلة من دون أحلام.

— 55 —

في اليوم التالي رأتهما، رأت جهاد ويمنى يتحدثان في أحد ممرات المعهد. تصرفت كأنها لم ترهما وعادت إلى مكتبها : «لقد اقترب الصيف، سأرحل إلى أميركا حيث وسيم وأمضي معه ومع عائلته العطلة، سأبتعد كي تتم الأمور خلال غيابي، هذا أفضل له ولي».

— تتهربين؟ ألست قادرة على رؤيته يفلت من يديك أو مواجهة ما سيحدث؟

ـــ مواجهة ماذا؟ لست مضطرة وبكل صراحة لقد اشتقت إلى وسيم وبخاصة أنه أخبرنا بعدم مجيئه هذا الصيف.

ـــ وتبتعدين عن أولادك؟

ـــ ما عادوا صغاراً، وهند هنا ستقوم مقامي في كل ما يحتاجون إليه وبكل محبة، ثقتي بها كبيرة عدا أنها تحبهم أكثر مما أحبهم أنا.

ـــ والطائرة؟ أما عادت تخيفك؟

ـــ أخافها دائماً لكني أصبحت أكثر قدرية، فما هو مكتوب لا يتغير.

ـــ ومنذ متى هذه الشجاعة؟

ـــ منذ أن أصبحت هذه الدنيا تافهة وفارغة.

ـــ تقصدين منذ وفاة سمير.

ـــ تماماً منذ ذلك الوقت وأنا أشعر أكثر فأكثر بتفاهتها، أتحسس طعم الموت في فمي . لكني أتجاهلها وأنغمس في العمل وأكتفي بالاهتمام بأمي وهند

وأولادي طبعاً.صمتت قليلاً ثم تابعت: «ما عدت بحاجة إلى الحياة، هي الآن بحاجة إلي».

ــــ هذا هو الشعور الذي يطغي عند الإنسى في سن اليأس وبخاصة إذا ترافق مع اقتراب التقاعد عن العمل.

ــــ التقاعد عن العمل، أنتظره بفارغ الصبر لأنني ما زلت قوية ولدي مشاريع كثيرة لتلك الفترة وأنا قادرة على تنفيذها وبخاصة إذا ساندتني هند فيها.

ــــ هند؟ أنسيت سنها؟

ــــ ما زالت نشيطة ومليئة بالحيوية وهي أحياناً أقوى مني.

ــــ أتمنى ذلك.

ــــ ماذا تقصد؟

ــــ لا شيء انسي الموضوع.

قررت أن تسافر وفعلت وأمضت شهرين مع أخيها وولديه اللذين أصبحا شابين، أحدهما دخل الجامعة للتخصص والثاني في المرحلة الثانوية ووسيم فخور بهما جداً لأنهما ناجحان في العلم ومهذبان كما يريد وتريد أمهما . لكن الزمن لا يتوقف وحان وقت العودة. عادت وأول ما علمت به هو أن جهاد تزوج من يمنى وقد دعا وجيه ورلا وهند والست هلا إلى عرسه. اتصلت به حياة بالهاتف وهنأته . شكرها وأبلغها أنه لن يدرّس السنة القادمة في المعهد لأن عمله في مجال الطب يأخذ كل وقته . فهمت حياة تهربه وسرت به فهو يعني أنه غير قادر على مواجهتها وهو يعني أيضاً أنه لا زال يحبها . «افعل ما يناسبك، أتمنى لك التوفيق». كان هذا آخر كلام بينهما . من بعده اختفى من حياتها كحبة ملح ذابت في الماء.

— 57 —

أكملت حياة ما تبقى لها في المعهد وهي تحضر لمشروع اجتماعي مهم . اتصلت بمؤسسات دولية وتمكنت من إقناعها بضرورة إنشاء دار للعجزة في لبنان لأن لا ضمان للشيخوخة فيه . اتفقت مع تلك المؤسسات وما إن تقاعدت حتى باشرت بعملها الجديد حيث أمضت سنتين وهي تشرف على البناء والتجهيز لتنشئ داراً نموذجية تهتم بالفقراء أولاً مع الإفساح في المجال أمام بعض الأثرياء لقاء دفع مبلغ معين شهرياً.

طوال فترة التحضير تلك، كان المبتسم غائباً وقد فعل لأن حياة لم تسمح له بالتدخل. لقد حاول مراراً ثنيها عن تحقيق مشروعها، لكنها ثابرت إلى أن أنجز المشروع ودشن وبدأ يستقبل العجزة . بعد المباشرة بالعمل في الدار تطوع عدد من السيدات اللواتي يعملن في الحقل الاجتماعي لمساعدة حياة ومن بينهن كانت هند التي كان نشاطها ضعيفاً ن ظراً لتقدمها في السن . لكنها أرادت أن تقيم في الدار وأقنعت حياة أن وجودها فيها بعد انصراف حياة إلى بيتها هو أفضل لمراقبة

العمل. تركت هند بيت الست هلا واتخذت لنفسها غرفة في المشروع حيث باتت تمضي أغلب أوقاتها بالقراءة ومشاهدة التلفاز . أصبح وجيه ورلا وأولادهما يزورونها في مقرها الجديد، والست هلا كانت تأتي صباحاً مع حياة لتجلس مع أختها طيلة النهار، ثم ترافق حياة من جديد إلى البيت في المساء.

إقامة هند في الدار لم تطل إذ في صبيحة ذات يوم وجدتها حياة في سريرها على غير عادة . نادتها وملأ الصمت الكون كله . لقد رحلت تاركة حياة تعيش فترة حزن عميق. بفقدانها لهند شعرت أنها جردت من آخر سند لها، هند تلك الخالة «التي حرمت من الزواج بسببي، تلك التي ضحت بكل ما تملك من أجلي ومن أجل أولادي، هند التي تحمل السر الذي لا يعرفه أحد سواها». بعد غيابها عاشت حياة في عزلة شبه تامة، في عزلة خانقة، لم يعد أحد يقاسمها سرها . شعرت أنها معزولة عن المجتمع الذي كانت قد دخلته مجدداً

بمشاركة هند للسر كاتمة سرها . لم يبق من يعرف هذا السر سوى المبتسم، الأمر الذي دفع بحياة إلى التعلق به.

— 58 —

الوحدة التي عاشتها حياة بعد رحيل هند سمحت للمبتسم بأن يكثر م ن زياراته لها وقد أصبحت تراه من جيل أولاد رلا ووجيه . يزورونها فتراه بينهم، يرحلون إلى بيوتهم ويبقى معها . لقد أصبح أقل دهاءً ومراوغة وهي باتت تعطف عليه وتسايره وحين يطيل الغياب تستدعيه ليجالسها ويخبرها عن حاله فيجيبها أنه في ألف خير وأنه لا يفرح إلا حين يراها ويكون معها.

— أنا أيضاً بدأت أفرح برؤيتك . وتسأله إن كان جائعاً لتحضر له الطعام.

ـــ لا، لا أشعر بالجوع أبداً، غذائي الوحيد مرور الزمن وهو لا يتوقف.

ـــ ولا ينتهي.

ـــ الزمن أزمان وهي التي تنتهي.

ـــ تعال، اقترب مني وافرك لي عضلات رقبتي إني مصابة بالوتاب.

يجلس و راءها ويبدأ بتدليك عضلات رقبتها، يضغط قليلاً وتشعر حياة بلمساته كأنها دواء. تمسكه من يده، تجلسه إلى جانبها، تضع رأسها على كتفه، تشرد وتقول كأنها تخاطب نفسها : «ما هذا الكون؟ من أين نأتي وإلى أين نذهب؟ إلى أين رحلت هند وكل من سبقها من أحبائي؟ ما هذا الغياب ا لأبدي؟ حقاً إن الحياة مهزلة». هي تتساءل والمبتسم يصغي بهدوء وهو يمسّد بيده على شعرها ولا يجيب إلا حين تصمت فيقول : «الحياة حقاً مهزلة، أنا الحقيقة الوحيدة، كلهم يرحلون وأنا صامد معك . هذه هند، لقد تحولت إلى حقيقة لا

تتبدل ولا تتغير، لقد دخلت المطلق الذي لا ي قبل التحول».

ـــ لكنها رحلت، وما يفيدها عدم التحول؟ ليتها بقيت وتابعت تحولها عوض أن ترقد تحت التراب وتبقى ثابتة.

ـــ لكن لا مفر من ذلك، التراب سيغطي الجميع وكلاًّ بدوره، مع العلم أن كل واحد يحسب أنه الناجي وأن التراب لغيره وليس له. دائماً ترابه مؤجل.

ـــ صحيح، لا نعرف الموت إلا من خلال موت الآخر، لا أحد اختبر الموت.

ـــ الموت ليس اختباراً إنه الحقيقة التي تتخطى إمكانية أي إنسان.

ـــ لكن الطب يتقدم وربما انتصر على الموت يوماً ما.

ـــ يتقدم، صحيح، لكن تقدمه ينحصر في إطالة زمن العمر بضع سنوات وهذا كله لا يقدم ولا يؤخر في النتيجة.

ـــ بل يقدم، وها هو الإنسان يتمتع بالحياة لفترة أطول.

ـــ وبعدها؟

ـــ لا أحد يدري، ربما...

ـــ اطمئني لن يجد الإنسان كتفاً يتكئ عليها أكثر رخامة من كتفي. ضعي رأسك على هذه الكتف ونامي إنها الوسادة الأوثر.

تلقي حياة برأسها على الوسادة التي وفرها لها المبتسم وتغفو لتستيقظ صباحاً وكلها نشاط، وتتابع أعمالها في دار العجزة.

ــ 59 ــ

ويمر الزمن وتتكرر الأيام ويكبر الأولاد والأحفاد ويدخلون الجامعات ويصبحون في سن الزواج، وصحة حياة تتراجع وتلازم البيت أكثر فأكثر والمبتسم إلى جانبها وقد أضحى ولداً صغيراً يتبعها أينما تو جهت. والست هلا التي أصبحت عجوزاً وقد جاورت سنها التسعين، ظلت محافظة على حضورها وحبها للحياة وكلما رأت هلا الصغيرة، رددت على مسمعها :

«دعيني أفرح بك قبل رحيلي».

بالفعل، هلا التي باتت صبية جميلة، أحبت أحد الشبان من عائلة محترمة وذات مركز اجتماعي مميز . وافق الجميع على اختيارها وتمت الخطوبة أولاً وتلاها الزواج بمباركة الست هلا التي كانت ترعى كل الاحتفالات بصفتها الأكبر سناً. لكن نهر الزمن لا يكف عن الجريان، وقبل أن تلد هلا طفلها الأول بأسبوع واحد توفيت الست هلا ووضعت حياة في حالة يأس شديد لم يخرجها منها إ لاّ ولادة الطفل الذي كرست له كل وقتها. سلمت دار العجزة لسيدات نشيطات وتقاعدت

عن العمل . لكن الطفل الجديد بعث فيها الحيوية مما دفعها إلى الاهتمام به عوضاً عن رلا، وهلا لم تمانع لا بل رحبت بجدتها وفرحت لرؤيتها نشيطة من جديد بعد أن تراجعت همتها في الفترة السابقة.

كبر الطفل برعاية الست حياة التي بدأت تحث ابنة وجيه رشا على الزواج كي تفرح منها وهي لا زالت قوية: «تزوجي وأنجبي لنا طفلاً أساعدك على العناية به كما فعلت مع هلا قبل أن أشيخ وأصبح عاجزة عن ذلك». ظلت تردد هذا القول على مسمع رشا إلى أن عرفت جدتها إلى زميلها في الجامعة، الذي كانت تحب. أعجبت الست حياة به وشجعت رشا على متابعة علاقتها به قائلة : «سنفرح منكما قريباً ». بالفعل تمت الخطوبة بينهما بعد تخرجهما الذي حصل في آخر تلك السنة، على أمل الزواج في السنة القادمة. انتهت مرحلة الخطوبة وعين موعد الزواج، لكن مرض عماد وموته أجّلا الموضوع سنة أخرى . غير أن الزواج تم وبعده بسنة أنجبت رشا طفلها الأول . لكن حياة لم تستطع

مساعدتها كما وعدتها لأنها بالفعل كانت قد شاخت وتضاءلت همتها وباتت تكتفي بحمل الطفل لبعض الوقت وهي جالسة. لكن الغريب في الأمر هو أنها كلما حضنت ابن رشا كانت ترى إلى جانبه طفلاً آخر ينظر إليها ويبتسم. وهل هناك أجمل من طفل يبتسم؟ عشقت حياة هذا الظل المبتسم وأصبحت تحضنه دائماً، تنظر إليه وتبتسم.

— 60 —

حضنت هذا الطفل بكل حنان ومن فرط حنانها در الحليب في ثدييها وأخذ يقتات من حليبها . يرضع حتى يشبع وهي تكون بحالة تشبه النشوة. لكنه كلما رضع منها هزل وصغر حجمه واعتلّت صحتها وضعفت إلى أن جف الحليب في ثدييها . توقعت أنه سيبكي ويعلو صراخه، لكنه ظل يبتسم، فضمته بين ذراعيها محاولة

هدهدته كي يغفو لكنه لم يفعل، فتمددت على السرير، وضعته فوق صدرها ونامت لتستيقظ على صوت قهقهة هزت الفضاء. قفزت من السرير وهي تضم ذراعيها على صدرها، وسرعان ما أدركت أنها تضم فراغاً . بحثت عن الطفل لم تجده، لقد اختفى . تحسست جسدها وإذ ببطنها منتفخ كأنها حامل في شهرها التاسع والألم يمزق أحشائها كأنه طلق الولادة؛ طلقات متتابعة أخذت في التباعد إلى أن تضاءلت ثم توقفت. لكنها ظلت منفوخة البطن وأصبحت ثقيلة الخطى وشبه مقعدة في البيت تبحث فيه عبثاً عن ظلها المبتسم الذي اختفى نهائياً.

بعد مرور خمسة أشهر على حالتها تلك ساءت صحتها وبدأت تتقيأ كل ما تأكله الأمر الذي أعاد إلى ذاكرتها مرحلة حملها الأولى حيث أمضت أربعة أشهر وهي تتقيأ كل ما يدخل معدتها. لكن الوضع لم يدم أكثر من شهرين عادت بعدهما إلى حالة شبه طبيعية وانتفاخ بطنها الذي تضاءل بالتدرج أعاد لها شكلها الطبيعي .

لكن التحول في داخلها لم يتوقف، فالمبتسم الذي دخل رحمها طفلاً بدأ يتحلل في جسدها إلى أن أصبح جنيناً ثم نطفة ثم خلية واحدة والتي ما إن انفلقت حتى أغلقت الدائرة وحصل الانفجار الكبير من جديد.

— 61 —

هكذا وفي لحظة اكتمال الدائرة أقفلت حلقة من حلقات العود الدائري فولدا معاً، خرجا من رحم واحدة، «إنسان»، أحدهما شيخ لا ندري ما عمره والثاني طفلة صغيرة. كان الشيخ يحمل الطفلة بين ذراعيه، ينظر إليها ويبتسم، أما هي، فحين فتحت عينيها ورأته بدأت بالصراخ.

الرحم التي خرجا منها لم تكن رحم أمهما، بل رحمها هي حياة التي انفجرت كالبيغ بونغ الذي به

انوجد الكوسموس وأخذ بالتمدد قبل أن يعود إلى الانكماش وتتراكم الحلقات العودية.

لحظة اكتمال الدائرة تم الانفجار، انفلقت الدائرة وبقي المركز لتبدأ منه حياة جديدة ومبتسم جديد في محاولة رسم دائرة جديدة بأحداث جديدة لتعود وتنفجر لحظة اكتمالها وهكذا إلى ما لا نهاية.

05/05/05

صدر للمؤلفة:

— **لبنان الحضارة الواحدة** ، عمل مشترك، النادي الثقافي العربي، لبنان، 1977.

— **أمين الريحاني رائد نهضوي من لبنان** ، عمل مشترك، دار العلم للملايين، لبنان، 1988.

— إلى هبى، **سيرة أولى** (رواية)، درا الفارابي، لبنان، 1991.

— **هبى في رحلة الجسد سيرة ثانية** (رواية)، دار مختارات، لبنان، 1991.

— **صوت الناي أو سيرة مكان** ، (رواية)، دار مخـتارات، لبنان، 1995.

— **نحو تحرير المرأة في لبنان (نظرة شاملة ورؤية مستقبلية) دراسة**، دار مختارات، لبنان، 1996.

— **أنا هي أنت** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، تشرين الاول/أكتوبر 2000.

— **حين كنت رجلاً** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، آب/أغسطس 2002.

— **أيهما هو** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، أيلول/سبتمبر 2003.

mد- Ihsa El ul

Enumération des science ou classification des sciences. Traduction Française avec introduction et notes. Centre de développement National, Liban, 1991.